
ميشال زيفاكو
رواية
باردليان
الجزء الثالث
المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان
S.Ghantous
Bibliotheca Alexandrina
0145843



باردالیان



ميشال زيفاكو

رواية باردليان

ترجمة : طانيوس عبده

الجزء الثالث

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

بيروت – لبنان

ص. ب ٨٧٣٧
تلفون : ٢٦٦١٥٨

تلكس : دارجيل ٢٣٤٣٠

Telex : DARJIL 23430

١٩٨٠

باردليان

- ١ -

كيف اتفق ان يكون

جميع الناس سعداء

كثرت حوادث هذه الرواية ، وتعدد أفرادها ، وتنازعت منازعهم بحيث لم نجد بداً بعد تلقاء ذلك من إظهار مجمل لحالة كل منهم كي لا يفوت القارىء شيء من ذلك .

وأول ما نبدأ بأهمهم شأناً وأطولهم باعاً ، وأكثرهم امتزاجاً بحوادث هذه الرواية التاريخية ، أي الملكة كاترين فنقول :

إن مطـالب هذه الملكة العاتيـة كانت منحصرة ، في ذلك العهـد ، في ما يأتي :

وهي أنها كانت تسعى إلى إبادة الهوكينوت ، وتجري إلى تحقيق هـــذه

الأمنية ببطء ودهاء .

فهي إذا فتكت بالهوكينوت ، فتكت أيضاً بولدها ديودات ، فنجت من عاره .

ولم يكن السبب في عزمها على إبادة الهوكينوت ، التعصب المحض للكثلكة . فقد قيل لها مرة أن الهوكينوت قد انتصروا على الكاثوليك ، فأجابت :

« إذاً سنسمع القداس باللغة الفرنسية » .

ولكنها كانت تخاف ملكة النافار خوفاً شديداً ، لوثوقها إنها طامعة في عرش فرنسا لولدها ، فاتخذت التعصب الديني حجة لمناصبتها العداء ، والتنكيل بها .

ولم تكن تطمع في البدء إلا أن تظفر بملكة النافار .

حتى إذا ظفرت بها وقتلتها ، كما تقدم ، ورأت ان جميع الهوكينوت أصبحوا في باريس ، وأنهم تحت مطلق سلطانها ، رأت ان تغتنم هذه الفرصة وتضربهم الضربة القاضية .

ذلك لأنها كانت تخشى أن يعين الهوكينوت ملك النافار على تحقيق رغائب أمه .

ثم انها كانت تخشى أسرة دي كيز ، لوثوقها أنهم يتآمرون على خلع ولدها ، وتنصيب الدوق دي كيز مكانه ، كي يحصروا الملك في أسرة لورين .

وكانت تخاف ديودات لأن افتضاح سر مولده يفضحها في أوروبا وفي فرنسا ويجعلها مضغة الأفواه في البلاط .

وهي كانت تسعى ان يفتك أهل دي كيز بالهوكينوت ، وأن يفتك الهوكينوت بأهل دي كيز ، وأن تقتل ماريلياك ، وأن توطد علائقها مع رومة .

وكانت أمانيها من هذا النصر راجعة إلى غاية واحدة ، وهي توليـة الدوق دانجو ولدها على عرش فرنسا بعد موت أخيه ، وأن تحكم هي البلاد باسم ولدها .

وقد أوشك ان يستتب لها النصر في جميع هذه المهام ، لأنها كانت قابضـة على زمام ماريلياك ، بواسطـة اليس دي ايكس ، والراهب بانيكارولا .

وكانت سائدة على ولدها شارل التـاسع ، لأنها أدخلت الرعب إلى قلبه ، وأقنعته ان الهوكينوت يأتمزون على موته ، فبات آلة بيدها تديره كما تشاء .

وكانت قد تغاضت عن دي كيز بحيث حملته على الاندفاع في دس المكائد للهوكينوت ، بحيث بات يتولى عنها الفتك بهم وهي آمنة صـابرة تنتظر دنو تلك الساعة الهائلة .

هذا ما كانت عليه الملكة ، فانها فتكت بعدوتها ، وأخذت أمانيها تتحقق فكانت تعد نفسها من السعداء .

* * *

وكان ولدها ديودات سعيداً أيضاً ، فقد كان يحسب هذا التعس انه أثر على قلب أمه وان الحنو قد حملها الى إسعاده .

وفوق ذلك فقد حظي بكل ما كان يطمع به ، فقد زالت تلك الريبة التي كانت تقطع قلبه وأصبح واثقاً كل الثقة من طهارة اليس .

ثم انه سيتزوجها ، وقد تعين يوم الزواج وستحضر أمه الملكة تلك الحفلة . وهذه هي السعادة كلها في نظره .

ولم يكن يشغله غير شاغل واحد ، وهو أين يقضي شهر العسل ، فلا يعلم

أيقضيه في باريس ؟ أم يطوف بامرأته سائحاً متجولاً في أجمل البلاد .

وكان يذكر من حين إلى حين ملكة النافار فتقع ذكراها موقع الغمامة السوداء في سماء هنائه الصافية .

ولكنه كان يتعزى عن فقدهـــا ، بأن الملكة كاترين كادت تجاهر له بأنها أمه ، وان خطيبته لا عيب فيها ، وهو قد وجد أماً وزوجة ، وهو بهما سعيد .

* * *

وكان الملك شارل التاسع ينتظر بملء الجزع تلك الحادثة الكبرى التي وعدته بها أمه ، وهو لا يعلم حقيقة هذه الحادثة بالتفصيل .

ولكنه كان واثقـــاً انها توطد أركان عرشه ، وانه يخلص بعدها من الدسائس والفتن والحروب ، فيتفرغ للصيد في الغـــابات ، وهو آمن من القتل غيلة .

ومتى تفرغ الملاهي وارتاح سره شفي من نوباته العصبية .

هذا الذي كان يرجـوه الملك شارل ، وهـو لا يتيسر الحصول عليـه إلا بعد حـدوث تلك الحادثة الخطيرة التي وعدته أمــه بها ، فبات يرجو وينتظر .

وكان في خلال ذلك باش الوجه ، طلق المحيا ، يبسم للكاثوليك ويلاطف الهوكينوت ، ويصغي الى أمه بارتياح . بل كان يبش للدوق دانجـو وهو يكرهه ، وإلى هنري دي نافار وكان يخافه ، والى كوليني وقد أخبرته أمه أنه يريد قتله .

وعلى الجملة لقد كانت السعادة ماثلة بين عينيه ، حتى سير أهل البلاط ، وهم لم يتعودوا منه غير التقطيب ومظاهر الاستياء ، وجعلوا يبحثون عن

السبب في ارتياح الملك فلا يجدونه .

ولكنهم لو نقبوا ودققوا في البحث ، لعلموا أن ماري توشيت ، خليلة هذا الملك ، قد ولدت مولوداً (وقد لقب هذا المولود بعد ذلك باسم الدوق دي أجوليم) .

فكان السبب في سعادته ان أمه وعدته بالراحة وهو وعد نفسه بالتفرغ للعناية بهذا المولود .

* * *

وأما الراهب بانيكارولا فقد كانت سعادته منحصرة فيقتل ماربلياك ووعد الملكة بارجاع اليس اليه .

وأما الدوق دي كيز فقد كان وضع لنفسه خطـــة بسيطة هائلة ، وهي بما أن الملك أبى إلا مسالمة الهوكينوت أعداء الدين ، أن يجعل الشعب ناقماً عليه .

ولا بد للشعب ان يثور على الهوكينوت ويجري القتال في الشوارع ، وعند ذلك يجعل نفسه قائداً عاماً للشعب الكاثوليكي الثائر .

ثم يتهم الملك بتشيعه للهوكينوت كي يثير الشعب عليه أيضاً

وبعد ان تبدأ المذبحة وتحترق باريس وتسيل الدماء في الشوارع ، يزحف بذلك الجيش الهائج إلى اللوفر فيخلع الملك .

ولا بد له من الفوز فان المارشال تافان معضد له ، والدوق دامفيل يساعده بسبعة آلاف فارس،وحاكم الباستيل من أعوانه فهو يعد للملك سجناً لايستطيع الخروج منه حتى إذا أراد الملك ان يدافع عن نفسه بحراسه وجد حراسه أنفسهم عليه ن رئيسم من أعوان الدوق .

وعندها ، أي بعد ان يظفر بالملك يأمر بايقاف المذبحة ، فينال بذلك ثناء

الكاثوليكيين إذ هو الذي دفعهم الى المذبحة ، وينال رضى الهوكينوت إذ هو الذي أنقذهم منها .

ولما كانت فرنسا لا يمكن أن تبقى من غير ملك وكان الكردينال لورين قد أثبت أن الدوق دي كيز من سلالة شارلمان فيحق للدوق ان يمين ملكاً بدلاً من شارل التاسع .

ولذا كان سعيداً كسواه من رجال هذه الرواية وقد أعد كل شيء فهو لا ينتظر غير الفرصة المناسبة للبدء بالعمل .

وأما الدوق دامفيل فانه استدعى من ولايته سبعة آلاف فارس ليضعهم في خدمة دي كيز .

والغريب في أمر هـذا الحتال ، أن هـذا الجيش قـد زحف بأمر الملك نفسه .

وقد كان له مأرب ، زينه له الطمع والغرور .

إذ كان يظن أنه إذا قتل دي كيز ، يحـل محـله في أطماعه ويضع على رأسه تاج الملك .

وإذا كان الفوز لدي كيز فقد كان طمعه قاصراً على أن يكون له شبـه مملكة في ما وراء اللوار .

على أن أخص ما كان يطمع به هذا الداهية ، هو سحق أخيه . فقد كان قرر مهاجمة قصر فرنسوا ، وقتـله بيده ، وأخذ حنة إلى مملكته الجديدة .

فهو كان سعيداً أيضاً ، يترقب الفرص . ولو كان علم بجنون حنة لكان غير خطته ، ولكن جيلوت لم يستطع إخباره لانه هو نفسه لم يكن عارفاً بجنونها .

* * *

ولندخل الآن بذهن القارىء إلى قصر فرنسوا دي مونمورانسي نجد فيه خمسة أشخاص يرغب القراء معرفة أحوالهم .

ولنبدأ منهم بالشفاليه باردالیان وبلويزا .

فانهما بعد أن باح كل منهما بغرامه للآخر انقطع بينهما الحديث إلا في القليل النادر .

وأية فائدة من الحديث ، فإن كل كلمة كان يناجي نفسه بهـا باردالیان كانت تعلمها لويزا ، وكل خفوق يبدو من قلب لويزا كان يشعر به باردالیان .

فكانا إذا تكلما بأبسط الأمور يتمثل الحب في كلماتهما ، ولم يخطر لأحدهما أن يفتكر بتلك الأخطار الهائلة المحدقة بهما .

فقد شغلهما الحب عن كل خطر . وأي خطـر يخطرر في بال لويزا وهي ترى حبيبها بقربها .

وأما باردالیان فإنه بعد ان وثق من حب لويزا لم يعد يكترث لخطر في الوجود .

على انه مع وثوقه من حبها له لم يكن واثقاً من الزواج بها فقد قال أبوها أنه يريد تزويجها بالكونت مارجنسي .

وهو لا يعرف هذا الكونت ، ولكنه كان يرجو أن يلقـاه والسيف بيده ، فينازعه لويزا . بل انه كان مصمماً على أخذها من أبيها قهراً ، إذا اضطر .

وفي كل حال فانه كان يعد نفسه سعيداً بحبها وبقربها ولكن ذلك لم يكن يمنعه عن التفكير بأمرين .

أحدهما إنقاذ لويزا نهائياً أي الخروج بها من باريس .

والثاني أن يعرف من هو هـذا الكونت ، الذي يريد المارشال أن يزوجه ابنته .

وأما باردالیان الأكبر فإنه كان يعد خطة سوف نراها في الفصول الآتية .

وأما حنة فكانت لا تزال مجنونة ، لكنها كانت أسعد جميع من ذكرنا ، لان جنونها عاد بها إلى أيام صباها فكانت تحسب انها في مرجنسي تناجي فرنسوا بأرق الفاظ الغرام وقد تحسنت صحتها تحسناً بيناً وظهرت عليها علائم الارتياح والهناء .

وأما فرنسوا دي مونمورانسي فقد اعتزله زعماء الهوكينوت لأنه أبى ان يساعدهم ، واجتنبه زعماء الكاثوليك بل كرهوه لأنهم كانوا يعتقدون انه من أنصار الهوكينوت .

أما هو فقد كان يرى كل ذلك ولا يكترث لشيء منه فقد أنف ما رآه من الدسائس والفتن حول ذلك العرش ولم يعد يطمع إلا بالعزلة في حصنه والراحة من عناء شقائه الماضي بقرب امرأته وابنته ، فكان يترقب الفرص للخروج آمناً من باريس وهو سعيد أيضاً بهذا الانتظار .

هذه هي حالة جميع أشخاص روايتنا في خلال ذلك السكون الذي كان يتقدم العاصفة الهائلة .

- ٢ -

مقابلة دامفيل وباردالیان

في ليلة من ليالي أغسطس الحـــارة ، كان باردالیان الأكبر في غرفته في قصر مونمورانسي ، يتم لبس ملابسه الحربية وهو يغني نشيـــداً من أناشيد الصيد .

حتى إذا أتم لباسه قال : إني سأختنــق بهذه الدروع التي تضغط علي ، ولكني أرجو ان أنزعها قريباً .

وعند ذلك نظر إلى الساعة فرأى أنها بلغت التاسعة فقال في نفسه : لم يحن الوقت بعد .

وجلس على كرسي وجعل يناجي نفسه فيقول :

ترى أأخبر ولدي بما عزمت عليه ؟ كلا فإني إذا أخبرته يصر على الذهاب معي دون شك ولا سبيل إلى إرجاعه عن عزمه .

إذاً لا بد لي من الذهاب وحدي لقضاء هذه المهمة ، وماذا عسى بعد ذلك ان يحدث ؟

إنه سيحدث أمر من أمرين وهما إما ان أجد الدوق دامفيــل وحده ، كما أخبرني جيلوت ، وفي هذه الحال لا حاجة بي إلى مساعد .

وإما أن أقع في كمين ، وفي هـــذه الحال ، لا أحب أن يموت ولدي معي .

ولكني إذا قتلت .. إني أحب أن أرى ولدي قبـــل الموت . . بل أية فائدة من ذلك ؟

وبقي في مجلسه يفكر إلى ان بلغت الساعة العاشرة ، فنزل من غرفته إلى غرفة البواب وأخبره انه خارج من القصر وانه قد يتأخر بالرجوع بل انه قد لا يعود غدا أو بعده فإذا اتفق ذلك يكون قد سافر .

ثم تركه وانصرف إلى قصر مسيم فبلغه في الساعة الحادية عشرة .

وكان القصر مظلماً مقفل الأبواب والنوافذ .

فبعد ان راد بردليان حوله باحثاً مراقباً دون أن يجد أحداً تسلق ســور الحديقة ووثب منه اليها .

ثم بلغ منها إلى الباب المؤدي إلى داخل القصر فأخذ خنجره وما زال يعالج قفله حتى فتحه ودخل .

وكان يعرف أين يقيم الدوق دامفيل ، فسار في أروقة القصر والظلام مخيم عليها وهو يعتقد ان جميع من فيه نيام .

حتى إذا وصل إلى الباب المؤدي إلى غرف الدوق ، ومد يده ليفتحه فتح ذلك الباب فجأة ، بيد سواه ، وظهر منه هنري دي مونمورانسي ، وبيده مصباح .

وقد قابله هنري مبتسماً ، كأنه ينتظر قدومه ، وقال له وهو يتكلف الانذهال :

— أهذا أنت يا بارداليان ؟ . كيف ذلك ؟. الملك أتيت تبحث عني ؟.. تفضل وادخل معي ، فإني ، أنا أيضـــاً ، أحب أن أراك وأباحثك .

أما بارداليان فقد ذعر ذعراً شديداً ، على فرط بســالته التي بلغ بها حد الجنون .

ولكن الرجل مهما بلغت بسالته فلا يسعه إلا أن يذعر حين يباغته عدوه

اللدود وهو يتوهم انه هو القادم لهذه المباغتة .

غير انه بذل جهداً عنيفاً ، فأعاد إلى نفسه مظاهر السكينة ، وأجاب الدوق قائلا :

– أقبل يا سيدي دعوتك ، لاني قادم لمباحثتك في شؤون خطيرة

– ولكني لو كنت عالماً بقدومك إلي لوفرت عليك مشقة اغتصاب الأبواب وتسلق الجدران وفتحت لك الباب بيدي .

– أشكرك يا سيدي وأؤكد لك إني لم أتحمل شيئاً من المشقات .

– ربما كان ذلك بسبب العادة .

– إذا كنت قد تعودت اغتصاب الأقفال ، فقد تعودت اغتصاب القلوب أيضاً .

– ولكن هلم بنا ندخل يا مسيو بارداليان فإني أحب ان أفيك كل حقوق الضيافة والإكرام.

فدخل بارداليان دون أن يتردد ، ودخل الدوق في أثره ، فأقفل الباب .

ثم ذهب الاثنان إلى قاعة متسعة لها ثلاثة أبواب مقفلة ، فجلس الاثنان كل منهما بازاء الآخر .

وبدأ بارداليان الحديث فقال :

– إذاً أنت تنتظر قدومي يا سيدي كما يظهر .

– هو ذاك ولكني كنت أنظرك دون ان أنتظرك ، وبيان هذا الابهام أن مركزي بازاء مركزك ، كان يحملني دائماً على الظن بأنك لا بد ان تأتي إلي لتراني .

فخطر عند ذلك لبارداليان ان جيلوت قد خدعه فقال :

– لا تقل ذاك يا مولاي بل قل أنهم أخبروك بقدومي .

– هذه هي الحقيقة .

– ألا يمكن يا سيدي أن تذكر اسم الرجل الذي أخبرك ما زلت قد تفضلت بمحادثتي بهذا الجلاء .

– دون شك ، لا سيما واني لا أجد مانعاً يحول دون إخبارك . أما الذي أخبرني فهو ضابط من ضباطي ، تعرفه حق العرفان ، لأنه يدعى أورتيس .

– الفيكونت اسبرمونت .

– هو بعينه لقد جمعت بينكما الصداقة كما أظن بدليل انه يبحث عنك كما تبحث عنه وأظن أنه يريد ان يحادثك بشأن خطير .

– وأنا مستعد للاصغاء اليه إذ لا بد لنا من الالتقاء وقول الكلمة الأخيرة ولكن تفضل يا سيدي باتمام حديثك فقد قلت ...

– قلت ان أورتيس كان يبحث عنك ليضمك بين ذراعيه ولذا كان يروح كل ليلة حول قصر مونمورانسي .

فقال بارداليان في نفسه : إذاً ليست الخيانة من جيلوت .

وتابع هنري الحديث فقال :

– وقد اتفق أنه في هذه الليلة فرآك تتسلق سور قصري فتركك وشأنك ودخل من الباب الكبير فأخبرني انك شرفتني بزيارتك . وكنت عازماً على الرقاد لكني امتنعت عنه إكراماً لك .

– ما زلت قد تلطفت يا سيدي ، إلى هذا الحد ، أتأذن لي ان أسألك سؤالاً واحداً .

– بل عشرة . بل سل قدر ما تشاء ، فلك الحق بما تريد من الأسئلة .

فاصفر وجه بارداليان، ولم يشك بقرب الموت ، ولكنه تجلد وقال :

– أسأل مولاي إذا كان وحده يسمعني ، وإذا كنت أستطيع ان أكلمه دون ان يسمعني أحد .

- إنك تستطيع ان تقول ما تشاء ، وإما ان أكون وحدي باستقبالك فإني أحسب ذلك إهانة لك لا أجسر عليها ، إذ يجب ان أستقبل مثلك بجميع ضباطي فانظر .

ثم قام إلى الباب الأول ففتحه فرأى باردليان اثني عشر جندياً مسلحين بالفؤوس .

ثم ذهب إلى الباب الثاني ففتحه فرأى باردليـــان خمسة عشر ضابطاً من الأشراف بأيديهم السيوف مجردة .

فبادرهم باردليان بالتحية ولبثوا ساكتين دون ان يردوا التحية .

فأقفل هنري الباب وفتح الباب الثالث فرأى باردليان ستة جنود مسلحين بالبنادق ، ورأى أورتيس وراءهم وقد صوبوا البنادق كأنهم لا ينتظرون غير الأمر باطلاقها .

فذعر باردليان وقال في نفسه : لم يبق مطمع بالنجاة .

لكنه ابتسم لخاطر فجائي خطر له فذعر هنري لابتسامه إذ كان يرجو ان يراه مضطرباً مصفراً .

ثم جلس وأجلس باردليان بإزائه وقال له وهو مقطب حاجبيه :

- لنتحدث الآن فأنت قادم لاغتيالي اليس كذلك .

- كلا يا سيـــدي ، بل أني قـــادم لقتلك كما يقتـــل الشريف الشريف بالمبارزة ، وكنت أرجو ان أجدك وحـــدك ، حتى إني ظننت أيضاً إني أجدك نائماً ، فعولت على ان أوقظك ، وأدعوك إلى لبس ملابسك ثم أقول لك ما يأتي :

« مولاي أنت تسيء إلى جماعة من كرام الناس لا يطمعون إلا بأن يعيشوا عيشة راضية .

« ولكنك لا تريد لهم غير الشر وهم لم يسيئوا اليك، وان شرك قد استفحل في هذه الأرض فوجب إنقاذ عباد الله منك .

« ثم أقول خذ حسامك ودافع عن نفسك لأني عولت على ان لا أخرج من هنا إلا بروحك » .

هذا الذي عزمت على ان أقوله يا سيدي ، لو وجـــدتك وحدك ، كما كنت أتوقع .

ويسرني بعد ان فتحت الأبواب الثلاثة ان أجد كثيراً من الشهود يشهدون ان هنري دي مونمورانسي دوق دامفيل لم يقتل غيلة بل قتل قتلاً مألوفاً بفضل الله وبفضل حسامي .

وقد كان هنري حيواناً ضارياً مفترساً ، ولكنه كان شجاعاً يعرف بسالة الشجعان . .

فلما رأى ابتسام باردليان وسمع أقواله ، وهو يعلم أنه على قيد خطوة من الموت لم يسعه إلا الإعجاب بهذا البطل الجريء الذي تجاسر على مخاطبته بهذه اللهجة وهو يرى السيوف والبنادق وكل آلات الموت محدقة به من كل جانب وقال له :

ــ ولكني أرى يا باردليان ، انـك لم تتوقع ان تكون أنت المقتول في هذه المبارزة .

ــ ذاك محال يا سيدي فلا أقول ان الخير يفوز على الشر فهذا وجودي في منيك أصدق دليل على ان الشر قد يفوز .

ولكني أقول ان القتال لا يفوز فيـــه غير الجسور ، وانا واثق إني أجرأ منك .

ــ ليكن ما تقول ، ولكنك لم تتوقع أيضاً إني أرفض أن أشرفك بمبارزتي .

ــ لقد بحثنا مرة في هذا الشأن في فنـــدق بونديكه ، واقتنعت يومئذ ان حسامي معادل لحسامك .

فوقف هنري ومشى في القاعة بضع خطوات مطرقاً مفكراً وهـــو يراقب

خلسة يد باردالبان .

ثم اتكأ على المستوقد وقال :

- إني طالما احترمتك يا باردالبان لبسالتك وجرأتك كما احترمك الآن أيضاً بدليل اعتدالي وطول اناتي .

فإني لو اشرت إشارة واحدة لسقطت مخضباً بالدم لأن جميع من رأيتهم لا ينتظرون غير هذه الإشارة

بل إني أستطيع ان أفعل ما هو اشر من ذاك أي اني آمرهم ان يقبضوا عليك حياً ويلقوك في الباستيل .

وأنت تعلم ان حاكم هذا السجن الرهيب من أصحابي فاذا أوصيته بك رأف بحالتك وقتلك قتلاً بطيئاً يطيل نزعك عدة أيام .

واني اذا اشرت هذه الاشارة فقتلوك او أمرت فقيدوك أكون قد فعلت ما يفعله كل إنسان سواي فأنت عدوي .

نعم انت عدوي ، لقـــد خنتني في مرجلسي ، ثم التقيت بك بعد أن كرت الأعوام ، فصفحت عن خيانتك ، وعقـــدنا اتفاقاً يعود عليك بالخير والفائدة .

ثم أقمتك في منزلي وجعلتك في عداد اصحابي فجوزيت منك جزاء سنار وخنتني تلك الخيانة التي تعلمها .

وقد اردت الانتقــام منك ، وظفرت بك ، فنجوت مــني ، وانحزت الى اعدائي ، وانضممت الى اخي ، وانت لا تعرفـــه . . في حين اني غمرتك بإحساني ، وانت تخدمني منذ خلقت ، ثم أتيت الآن لتقتلني . . . فماذا تجيب ؟

- أجيب إني لم اخدعك ، لاني اتفقت معك على ان اكون معيناً لك في عمل عظيم ، ولكني لم اعاهدك على المعاونة في امر سافل .

إني ادخل الى اللوفر وأقبض على الملك بيدي ، بل اقبض على تاجه إذا

أمرتني ، وأضمه فوق رأسك ، بل أقاوم فرق الملك بأسرها إذا وليتني قيادة جيشك ، ولكني لا أقدر أن أكون جلاد إمرأة .

إنك ان تطلب إلي ما أستطيع أن أعطيه ، وهو سيفي ودمي وإقدامي سفكت دمي .. في سبيل خدمتك .

وأما أن تطلب إلي أن أكون جاسوساً على ولدي ، وسجاناً للمرأة التي يحبها فهذا ما لا يطيقه بشر يا مولاي ..

ثم أنت تعلم اني لم أخنك .. ولو أردت ان أخونك ويكون لي ثروة طائلة .. وأستولي على أراضيك وثروتك .. وأزج بك إلى هاوية الأبد .. لذهبت إلى الملك وقلت له : « إنك تريـــد قتله » لتولية الدوق دي كيز » .

ولكن سكوتي عن إفشاء هذا السر يدلك يا سيدي ، اني لست من الخائنين ، واني من أهل الوفاء وهم قلائل يا حضرة المارشال .

فاصفر وجه هنري واضطربت أعضاؤه وقال له :

— ألم تقل كلمة لأحد مما تعلمه ؟. اصغ إلي .. إنك قد لا تكون نقلت ما تعلمه من قبيل الوشاية ، ولكنك قد تكون بحت به لمن تثق به .

فقال بارداليان في نفسه : لقد وضح السبب في اعتداله ، فانه يريد أن يعلم قبل الفتك بي إذا كنت قد بحت بهذا السر ..

ثم قال له : لمن تظن اني بحت بهذا السر يا مولاي ..

— لا أدري ، فإنك قد تكون بحت به لرجل ليس له مكارم أخلاقك كأخي فرنسوا مثلاً ..

فأجابه بارداليان قائلاً :

— وهب اني بحت به لأخيك يا سيدي ، ألا يحق لي أن أعاملك كعدو كما تعاملني ؟

ألا يحق لي أن اقلد أخاك هذا السلاح ؟

نعم يحق لي فيما أرى ، فلقد سجنت إبنة المارشال فرنسوا ، عدا عما أصيبت به أمها من الشقاء الهائل .. ثم لما نجت تلك الأم منك وعادت بابنتها إلى أبيها ، أقفلت أبواب باريس دون المارشال ، وجعلته مع أسرته أسيراً ، بل كنا نحن أيضاً اسرى معه ، وأخذت تتأهب لضربنا جميعاً الضربة القاضية .

وأنا أعترف لك يا سيدي ، اني لم أجسر على الوشاية بك الملك ، ولكني افتكرت انه يجب على الأقل أن أبوح بهذا السر ، لأخيك المارشال كي يستطيع الدفاع عن نفسه .

فصاح به هنري صيحة يأس قائلاً : ويحك أيها الشقي ، أأخبرت أخي بهذا السر الهائل ؟

فهز بارداليان كتفيه وقال :

ــ اني أردت ان أخبره ، ولكني لم أفعل شيئاً ، ولا تشكرني على هذا ، فقد كنت مصمماً على الاباحة له ، ولكن ولدي منعني عن الافشاء .. فالفضل له إذا كان هناك فضل ، ولكني أراه أضاعني بهذه المبادىء وسيضيع نفسه .

أتعلم ما قاله لي يا سيدي الدوق ؟

.. اني أؤثر ان اقتل نفسي أمام عينيك ، ولا أراك تبوح بسر اؤتمنت عليه فتلطخ اسمك بوصمة عار لا تزول .

فليحرق دامفيل باريس في سبيل القبض علينا ، إذا استطاع ، واذا كان لا بد لنا من الموت فلنمت على الأقل دون ان ندع لمثل هذا الخائن ، مجالاً لاتهامنا بالخيانة .

هذا ما قاله لي ولدي ، وهذا الذي حملني على السكوت .

فقال له هنري بصوت أجش : إذاً أخي لا يعلم شيئاً .

ــ كلا ، ولا سواه .

فتنهد هنري تنهد ارتياح ، فقد كان رعبه شديداً ، حتى انه لم ينتبه للكلمة الشائنة التي وصفه بها بارداليان ، ولم يكن لديه ريب بصدق محدثه .

وعندها ، عادت اليه السكينة ، وعاد معها الغضب على بارداليان ، ونظر اليه نظرة منكرة .. ثم مشى إلى باب الغرفة التي كان فيها أورتيس مع حملة البنادق .

ولكنه توقف فجأة وعاد إلى بارداليان فقال له :

– ماذا تقول اذا عرضت عليك السلم .

فوقف بارداليان وانحنى ثم سأله : ما هي شروطك يا سيدي .

– شرطي بسيط ، وهو أن لا تحول ، أنت وابنك دون ما أريد قضاءه ، وأن تخرجا من قصر مونمورانسي وتبرحا باريس الى حيث شئتما ، فانكما تجدان جوادين مسرجين ، وفي سرج كل منهما الفا ريال ، فانكما بمثل هذه القيمة تعيشان أين كنتما .

فأطرق بارداليان برأسه كأنه يفتكر .

فقال له الدوق : تمعن بالأمر يا بارداليان فانك جردتني من سلاحي بوفائك وكتمان السر بحيث وجبت علي مكافأتك .

فاعلم الآن اني انسى كل أقوالك وافعالك واكافئك وولدك خير مكافأة واحترم مبادئكما ، حتى اني لا أقترح عليكما الدخول في خدمتي ، فلا اسألكما أن تكونا من أصدقائي ، ولا أريد ان تكونا من أعدائي ، بل كل ما أبغيه منكما أن تلزما الحياد .

فتنهد بارداليان .

وعاد هنري الى الحديث فقال :

– تمعن يا بارداليان ، فانك اسيري الآن ، ومهما بلغت من الجرأة ، والقوة لا تستطيع مقاومة ثلاثين رجلاً مسلحين بجميع آلات الموت ، فاقبل ما اقترحته عليك ، أطلق سراحك ، ويكون هذا الأمر خيراً

الك ولولدك .

– وان رضيت يا سيـدي ، فكيف يكون اطلاق سراحي ، واي احتياط تتخذه فانك لا تكتفي بكلامي فيما أظن .

فبرقت عينا هنري واجاب :

– اني لا اتخذ غير احتياط واحد لا بد من اتخـاذه ، وهو أن تكتب لولدك كي يحضر الى هنا لموافاتك ، فيذهب أحد رجالي بكتابك اليه وعندما يحضر ، وتعدني وإياه وعداً شريفاً على أن لا تعودا إلى باريس ، قبل ثلاثة اشهر ، أتولى حراستكما بنفسي مع بعض أصحابي إلى باب باريس واتمنى لكـما سفراً سعيداً .

– انه تشريف اذكره بالامتنان ما حييت

– إذاً تقبل ، اليس كذلك ؟

– بلا ريب ، بل أقبل بملء الشكر والامتنان .

فأخرج الدوق ادوات الكتابة من درج ووضعها على مـــائدة فقال له : إذاً قم واكتب الكتاب إلى ولدك .

فلبث بارداليان في موضعه ولم يتحرك ، ثم تنهد وقال :

– اني أقبل .. ولكني لسوء الحظ لا استطيع ان اضمن قبول ولدي .

– لا بأس فاكتب وانا أتولى إقناعه .

– إني أعرف ولدي يا سيدي حق العرفان ، فان سوء الظن قد بلغ منه أشد مبلغ ، حتى انه لا يثق بوعود الملوك والأمراء ...

ويسيء الظن بي ، بل يسيء ظنه بنفسه ، وطالما خجلت من نفسي أمامه ، حين كان يسيء ظنه بأمثالك يا سيدي ، في حين انه كان يرى مني احتراماً لا يوصف وثقة لا حد لها .

– ماذا تعني بهذا .

ــ أعني انه إذا أطلع ولدي على هذه الرسالة التي تريد أن ارسلها اليــه يضحك ويقول :

« ايكون ابي أسيراً في قبضة الدوق دامفيل ويريد ان اذهب اليه بحجــة انه عقد معه شروط السلم .

« لا شك يا ابي إنك من المجانين . الا تعلم ان الدوق دامفيل خائن محتال يريد ان يقبض علينا معاً .

(هذا ما يقوله ولدي وما هو بقولي) .

« ولكن ما هذه الحيلة التي لا تجوز على البلهاء »

« اني احب الحياة فلا ازال في عنفوان الشباب ، وأما أنت يا ابي فقد شبعت من الحياة ، فمت وحدك ما زلت قد اخطأت ورميت نفسك في جب الأسد » .

هذا ما يقوله ولدي يا سيدي ، حين يقرأ رسالتي واني واثق من هذا حتى اوشك أن اسمع صوت ضحكه . .

فعض الدوق شفته وقال إذاً لا تريد ان تكتب الرسالة

ــ لا اكتبها إذ لا فائدة منها وفوق ذلك فلنفرض المستحيل ، وهو ان ولدي يحضر إلى هنا بعد قراءة رسالتي اتدري ماذا يكون .

ــ ماذا ؟

ــ إن ولدي على سوء ظنه شديد العناد فهو اشد عناداً منك ، وقد اصر على إنقاذ حنة دي بيانس وابنتها واخيــك من قبضتك فلا شيء في الوجود ينزع من فكره هذا العزم ، اما أنا فإني اقبل اقتراحك بالشكر والسرور ، واما هو اتعلم ماذا يقول إذا حضر .

ــ ماذا يقول ؟

ــ يقول .. أنت يا حضرة الدوق الذي اقترحت علي هذا الاقتراح ، ألا تخجل ان تعرض علي ان ادنس شرفي بأربعة آلاف ريال وجوادين

مسرجين .

أأبيع شرفي وسيفي الذين اخذتهما من ابي بالمال ، وأتخلى عن امرأتين منكودتين اقسمت ان احميهما واسفك دمي في سبيلهما ، ثم أحشر نفسي في زمرة الخائنين .

« وانت يا ابي اترضى لي ان اكون سافلاً خائناً ابيع نفسي بالمال ؟ . كلا فلتقع تبعة هذا الاقتراح الشائن على الدوق دامفيل ، فهو قد تعود الخيانة والغدر » .

وقد قال بارداليان هذا القول . ومد يده حتى كاد يلمس بها وجه هنري

فاحمر وجه هنري وقال : ويح لك ايها الشقي .

– كلمة بعد يا سيدي .. كلمة واحدة ، وهي ان لولدي غير العيوب التي ذكرتها عيباً آخر ، وهو انه يحبني فوق ما يحب نفسه وهو عالم اني عندك الآن ، فاذا لم يراني في الصباح قد عدت إلى القصر ذهب إلى الملك وأخبره انك تخونه لتولية دي كيز .

نعم ، إن اليأس من لقائي يحمله على الوشاية بك ولا يحسبها وشاية في تلك الساعة ، بل انتقاماً لأبيه .

وقد كان هنري هم أن يصفع بارداليان ، ولكنه توقف حين سمع قوله ، كأنما الصاعقة قد صعقته .

أما بارداليان فانه ابتسم وقال له قل لرجالك ان يقتلوني ، إذا شئت الآن .

غير ان هنري على شدة حذره وخوفه من هذه الوشاية بلغ الغضب والحقد منه مبلغاً جعله لا يكترث للأخطار فقال :

– ليفعل ابنك ما يشاء .. الي . الي .. جميعكم .

فجرد بارداليان خنجره ، ووثب في الحال وثبة النمر إلى هنري

وهو يقول :

– ولكنك ستموت قبلي ايها الزميم ..

غير ان هنري رأى بارداليان ينقض عليه بخنجره فألقى نفسه على الأرض قبل أن يصل اليه بلحظة ..

وسقط بارداليان أيضاً لاندفاعه وخلو الدوق من طعنته فسقط جاثياً على ركبتيه .

وعند ذلك فتحت الأبواب الثلاثة وأطبق الجنود على بارداليان قبل ان يتمكن من طعن هنري فقيدوه بالأصفاد .

وبعد أن فرغوا من تقييده قال اورتيس للدوق : أين تريد يا مولاي أن نشنق هذا اللص .

فأجابه هنري بصوت لا يزال يتهدج من الغضب .

– كلا ، لا يجب أن نشنقه الآن ، فإن هذا اللص يعرف أسراراً كثيرة يجب أن ننزعها منه لفائدة جلالة الملك . نعم ، وأنا سأختار الذي سيتولى تعذيبه وتقريره واحضر ذلك بنفسي .

– إلى أين إذاً يأمر مولاي أن نذهب به .

– إلى سجن التامبل .

- ٣ -

دير العجائب

حدثت في سنة ١٢٩٠ أعجوبة لا بد لنا من ذكرها لعلاقتهـا بحوادث هذه الرواية .

وهي انه في ذلك العهد كان رجل يهودي يدعى جوناتاس مقيماً بالقرب من كنيسة نوتردام .

وكان له منزل جميل تحيط به حدائق غناء .

وقد قدر له نكد طالعه أن يقيم بجوار دير للرهبان ملاصق لحدائقه .

فما رواه اولئك الرهبان ان هذا اليهودي كان يقسم دائماً أن يفضح الديانة المسيحية فضيحة هائلة .

فأرسل في عيد الفصح إمرأة من أتباعه إلى الكنيسة ، فأخـذت المرأة قربان الفصح

ولكنها بدلاً من أن تأكله عادت به إلى جوناتاس

وكان اليهودي شديد التعصب كما يروي الرهبان . فـأخذ قطعة القربان وجعل يثقبهـا بخنجره ، فـأخذ الدم يسيل من كل ثقب من ثقوب تلك القطعـة .

فلما رأت المرأة هذه الأعجوبة ذعرت ذعراً شديداً ، وعاد الايمان إلى قلبها ، فأسرعت إلى الدير وانطرحت على اقدام الرهبـان وأخبرتهم نادمة

بكل ما اتفق لها .

وأما اليهودي فان منظر الدم أثاره كما يقول الرهبان ، فأخذ مطرقة ومسماراً وطرق المسمار بالقربان كما فعلوا بالمسيح ، فساد الدم يتدفق من قطعة القربان .

فزاد هياج اليهودي والقى القطعة في النار ، ولكنها جعلت تطير فوق النار فلا تحترق .

فيئس جوناتاس من إخضاعها ، وأخذ حلة فوضع فيها ماء وغلاه فوق النار ، ثم القى قطعة القربان في الماء ، فبقيت كما هي ، غير ان الماء تحول إلى دم .

وكان نتيجة كل ذلك انهم قبضوا على اليهودي المنكود فلم يعترف بجريمته وأصر على الانكار ، فغضب اولئك الرهبان ، وفي أيديهم زمام السلطة في ذلك العهد ، فوضعوا جوناتاس في مرجل وسلقوه في مياهه الغالية .

ثم اغتنموا فرصة قتله فأخذوا منزله وحدائقه المجاورة لديرهم وضموها الى الدير ودعوه دير العجائب ؟

ولا ندري إذا كان جوناتاس قد جرت له هذه المعركة حقيقة مع القربان أو غير القربان ، ولكن الذي لا ريب فيه أن منزله وحدائقه قد انضمت إلى دير الرهبان . .

ومنذ ذاك العهد ، أي منذ سنة ١٢٩٠ إلى سنة ١٥٧٢ ، كانت العجائب تتوالى في ذلك الدير ، ولكنها كانت منحصرة في شكل واحد وهو إحالة المياه الغالية إلى دم .

وقد تطرقوا في العهد الأخير ، أي في عهد هذه الرواية إلى حسبان هذه العجيبة أمراً من أوامر الله ، يقضي به أن يحرق فريق من الملحدين كما أحرق ذلك المنكود جوناتاس .

ففي السابع عشر من شهر أغسطس سنة ١٥٧٢ ، أي في اليوم التالي لزواج

هنري دى نافار بمرغريت أخت شارل التاسع ، وهو يوم أحد كان النـــاس مزدحين في الشارع ، ففتح باب الدير في الساعة الخامسة بعد الظهر وخرج منه راهبان وجعلا يصيحان بملء صوتيهما :

عجيبة .. عجيبة !

وكان هذان الراهبان تهيبوت ولوبين ، اللذين عرفهما القراء في فندق دفينير .

ولاسيما لوبين ، فقد كان خرج من ديره باذن خــاص فلبس ملابس العوام وذهب إلى فندق دفينير بصفة خادم للمائدة ..

حتى إذا فرغ الدوق دي كيز من مؤامرته ولم يعد محتاجاً إلى الاجتماع في الفندق استدعى رئيس الدير لوبين وقال له :

– إنك قد جاهدت خير جهاد في مهمتك ولكن الانسان ضعيف بالطبع ولا بد أن يكون الشيطان قد جربك مدة بعدك عن الدير فارتكبت بعض الهفوات بحيث وجب التكفير عنها .

ولذلك أعينك حارساً للحلة العجائبية مع الأخ تهيبوت ، وهو أعظم شرف وفخر لكما معاً .

ولكن .. مثل هذا المقدس يقتضي له التكفير التام عن كل الهفوات ، ولذلك .. أمرك أن لا تذوق اللحم والخضر ، وأن لا تشرب الخمر مدة أسبوعين .

فذعر لوبين وقال : أأعيش اسبوعين لا آكل غير الخبز ، ولا أشرب غير الماء ؟

ثم أطرق برأسه حزيناً مهموماً وسار إلى صومعته حيث اجتمع بالأخ تهيبوت ، الذي كان ينتظره ، بلا ريب ، إذ صدر اليه مثل هذا الأمر من الرئيس ..

وسار الاثنان بعدها إلى قاعة متسعة تشبه الكنيسة ، إذ كان فيها كثير

من التماثيل ومذبح فوقه رسم المصلوب .

وكان تحت هذا المذبح حلة قديمة العهد جداً ، كان يمر بها الرهبان ، فيسجدون وينظرون إلى داخلها من حين إلى حين ليروا إذا كانت العجيبة قد حدثت ، وإذا كان ما فيها من الماء قد استحال إلى دم .

وقد ذهب تهيبوت بلوبين إلى تلك الحلة وركع أمامها .

أما لوبين فانه وقف أمامها وقفة الحزين وتنهد تنهداً طويلاً .

فقال له تهيبوت : ماذا أصابك ، وما هذا التنهد .

— اتسألني أيضاً أيها الأخ عن السبب .. العلك نسيت أيام الفندق ، رعى الله تلك الأيام ، وذلك الفندق فقد كنا نأكل فيه ما نشاء .

وليس هذا بذنبي أيها الأخ فقد خلقت نهماً وكنت أنال كل ما أريده في فندق دفينير .

اني لا أعلم ما أعده الله لنا في الجنة من أسباب النعيم ..

ولكن الذي أعلمه أن في الأرض جنة أيضاً .. وهذه الجنة كائنة في فندق دفينير .

— ألا تزال تذكر ذلك الطعام الشهي ؟

— كيف لا أذكره ، وماذا تريد ان اذكر سواه .

فتوجع تهيبوت لمصابه وقال له :

— لقد تبدلت أيام نعيمنا منذ عهد بعيد ، فلقد كنسا معشر الرهبان في عهد فرنسوا الأول ندخل إلى أي فندق شئناه ونأكل فيه أي طعام أردناه ثم نخرج منه ولا ندفع غير البركة .

— نعم ، فاننا بتنا نجاهد في سبيل الطعام الشهي جهاد الأبطال .

— ولقد جاهدت اكثر من جهادك ، فانني أفرغت جعبة الحيل حتى تمكنت من الذهاب إلى فندق دفينير مع الدوق دي . . ولكنك لا تعلم هذه الأسرار .

– وأنا لا أبالي بها الآن .. فقد كفاني من الهموم .. اني محكوم علي كما يحكمون على المجرمين في السجون ..

اي بأكل الخبز وشرب الماء فقط .

فابتسم تهيبوت ابتسامة معنوية ..

فقال له لوبين :

– لماذا تبتسم هذا الابتسام .

– اسكت واذهب فاقفل الباب .

فأسرع لوبين إلى إقفال باب القاعة وقد ملء قلبه رجاء .

ثم عاد إلى رفيقه فقال له تهيبوت :

– إذاً لقد حكم عليك بمثل هذا الصيام مدة أسبوعين .

– نعم .. وآسفاه .

– ولكني لا أخالك تصبر عليه .

– بل أموت قبل انقضاء المدة .

فأخرج تهيبوت من خزانة قطعة من الخبز الأسود ، وزجاجة من الماء ، فدفعها إلى لوبين وقال له :

– هذا هو غذاؤك مدة يومين .

فضم لوبين ذراعيه إلى صدره واغرورقت عيناه بالدموع وقال :

– ليقولوا لي اني محكوم علي بالموت ، فان هذا الغذاء والموت واحد . ثم أانت يا تهيبوت الذي تقدم لي هذا الغذاء ، وانا الذي كنت في فندق دفينير اطعمك افضل الطعام واسقيك افخر الخمر .

اني لم اكن أتوقع منك هذا الجفاء يا تهيبوت .. وبعد فاني حين افتكر بتلك الفطائر ..

– كفى ..

– وحين افتكر بتلك الفراخ وهي ترقص فوق النار وتنبعث رائحتها

فتنعش القلوب ..

– كفى . كفى .

– وحين افتكر بتلك الزجاجات افرغ خمرها في الكؤوس فيفعل بي صوتها فعل اعذب الألحان .

– كفى فقد هجت شهوتي للطعام واسمع ..

افترض اني أزحت الغطاء عن هذه القدر فوجدت فيها .. اولاً ..

وعندها أزاح تهيبوت الغطاء عن الحلة التي كانت تظهر فيها العجائب .. ومد يده إلى جوفها .

فقال له لوبين وقد اتقدت عيناه بشعاع الأمل : ماذا تجد اولاً ؟

– اجد تلك الفطائر المقلية التي كنت تأكلها في الفندق، ثم اجد زجاجة باردة ، ثم قطعة من لحم الخنزير المقدد ، ثم زجاجتين من الخمر الأبيض واربع زجاجات من خمر بورجونيا .

وكان تهيبوت كلما ذكر صنفاً اخرجه من الحلة ووضعه فوق المذبح ولوبين ينظر اليه ، وقد اندلع لسانه واضطربت عيناه .

فلما اتم تهيبوت نقل الطعام والشراب إلى المذبح ركع لوبين وبسط يديه إلى السماء يسبح الله .

فقال له تهيبوت :

– افترض الآن ايها الصديق ، إن هذه الفراخ واللحم المقدد والفطائر خبز اسود ، وان هذه الخمر ماء فبارك واشرب منها ، بل لتأكل هذا الخبز الأسود ، وأنا اعلم اني اكذب ، ولكن ذلك لخير الكنيسة فلا تحاول ان تفهم .

فقال لوبين : بل هو لخيري ولا أبالي الآن ان افهم فقد قتلني الجوع .

وجعل الاثنان يأكلان ، فكان تهيبوت لا يقتصد في الطعام ، ولكنه اقتصر على شرب زجاجة واحدة من الخمر الأبيض .

وأما لوبين ، فإنه بعد أن شرب الزجاجة الأولى ، تمكنت منه السويداء .

وبعد شرب الثانية صار يضحك لكل كلمة دون سبب .

وبعد شرب الثالثة انطلق لسانه بالترتيل فجعل يمجد الله ...

وبعد الرابعة جعل يبكي ويذكر خطاياه .

ثم بحث عن الخامسة كي يتعزى بشربها عن تلك الخطايا فلم يجدها .

أما تهيبوت فانه كان قد أفرغ الزجاجة البيضاء التي لم يشربها في حلة العجائب ثم سكب فوقها مادة حمراء .

ثم رفع يديه إلى السماء ونادى لوبين قائلاً :

ـ أسرع أيها الأخ !

فنهض لوبين وكان جاثماً على الأرض يبحث عن الزجاجة الخامسة وأسرع إلى تهيبوت فقال له : ماذا حدث ؟

أجاب لا أدري ، وأخاف أن تكون عيني قد خدعتني ، ولكن يظهر لي .

ـ ماذا أصابك ؟

ـ تحول الماء دم .

ـ أهذا ممكن ... ويا ليته تحول إلى خمر .

فنظر تهيبوت اليه نظرة المؤنب ، وقال : لا يجب المزح ، في الأمور المقدسة .

ـ ولكني أخاف أن يكون بصرك قد أصيب بغشاوة ... وسأرى بنفسي ...

ثم دنا من الحلة ونظر إلى ما فيها ، فاصفر وجهه ، وجعل يصيح بملء صوته قائلاً :

ـ عجيبة .. عجيبة .. إن الماء قد احمر ، وأنا الذي وضعت الماء بيدي ..

أيها الاخوان .. أيها الرهبان .. أسرعوا أسرعوا .. إن دم المسيح قد حل في الحلة وأنا وضعت الماء .. الينا الينا !

ثم ركع أمام الحلة وجعل يبكي .

فأسرع تهيبوت ورد الزجاجات الفارغة وبقايا الطعام الى الخزانة ، وأقفلها وفتح باب القاعة .

أما الرهبان فلما سمعوا صوت لوبين أسرعوا اليه وفي مقدمتهم رئيس الدير وهو يقول :

– ماذا حدث ؟ .

فأجاب لوبين وهو يبكي :

– لقد ظهرت العجيبة على يدي ... وأنا الذي وضع الماء في الحلة فاستحال الى دم ... إشربوا ... إشربوا ولنشرب جميعنا .

فارتفعت أصوات الرهبان بالتهليل والتسبيح ، وأحدقوا بلوبين يجلونـه ويتبركون به وقد اعتبروه من القديسين الصالحين .

وعندها رفع رئيس الدير الحلة وأمر ان تفتح جميع الأبواب وتقدم الرهبان الى الكنيسة وهم يرتلون .

وسار هذا الموكب ، حتى بلغ إلى باب الدير ، فـــإذا بجماهير الناس قد احتشدوا ، وبينهم نحو عشرين رجـلا من الأشراف ، وفي طليعتهم مـورفر .

فلما مر الرئيس ، وبيده الحلة ، ركع الجميع أمامها وجعلوا يتبركون بها .

ثم دخلوا بها الى الكنيسة وأقفلوا الباب . ولكن الناس كانوا يسمعون ترتيل الرهبان ، وقرع الأجراس ، فتعلو أصواتهم على تلك الأصوات ، وهم يصيحون :

– لتحيى الكنيسة .. ليحيى دي كيز .. ليمت الهوكينوت !

وعندها أشار مورفر إلى رجل كان واقفاً بين الجمع ,قال : هوذا واحـد

منهم ، هوذا اثنان .

فانقض الناس عليهما انقضاض الصاعقة فرفعت الأيدي ولمعت الخناجر فلم يبق في قتلهما ريب .

وكأنما الله قد أراد إنقاذهما ، ففتح باب الدير في تلك اللحظة ، وخرج منه لوبين ، وقد دفعه السكر إلى الاعتقاد بنفسه انه حقيقة من القديسين ، فأفلت من الرهبان وخرج من الدير وهو يبكي .

فصاح الناس قائلين : هوذا القديس الذي أحال الماء الى الدم .

فتركوا الرجل الذي كانوا يهاجمونه ، وازدحموا حول لوبين يتبركون به .

أما لوبين فانه رأى الرجل الذي كانوا يهاجمونه فأسرع اليه وقال : أهذا أنت يا سيدي بارداليان الذي كنت تسقيني الخمر في الفندق تعال أعانقك فإني لا أنسى جميلك .

وبينما كان الناس يصيحون : ليحيى القديس لوبين ، كان هذا القديس لوبين يعانق بارداليان ويقول : ليحيى باكوس (إله الخمر) .

- ٤ -

مهمة مورفر

كان بارداليان يذهب في كل يوم الى صديقه ديودات ، فيقيم عنده فترة من الزمن ثم يرجع إلى قصر مونمورانسي .

وكان كل منهما يحدث الآخر بغرامه فيقيان الساعات الطوال ، ولا شاغل لهما غير هذا الحديث .

ففي يوم الأحد وفي تلك الساعة التي ظهرت فيها عجيبة الحلة في دير المجائب كان بارداليان عند صديقه ديودات .

وقد القاه طلق الوجه ، منشرح الصدر ، فعلم منه أنه سيتزوج الليـــلة باليس ، وأخبره أن أمه الملكة كاترين ستحضر الزفاف ، وانه سيعقد في كنيسة سانت جرمين ، عند انتصاف الليل ، وان الملكة ستتولى بنفسهـا مهام الزفاف .

وكان بارداليان شديد الانقباض ، فزاده هـــذا الخبر انقباضاً ، وأوجس خيفة على صديقه من تلك الملكة الجائرة . فعول على ان يحضر الزفـاف وان يسير الى الكنيسة مع بضعة من أصحابه ، إذ بات يعتقد أن الملكة لم تهتم بديودات هذا الاهتمام ، ولم تجعل الزفاف عند انتصاف الليل إلا لغاية شر لم يعلمها .

ولكنه لم يذكر شيئاً من هواجسه لصديقـــه ، سوى انه سيحضر

هذه الحفلة .

فشكره وسأله ان يرافقه إلى إحدى الحانات فيشربان فيها كأساً من الخمر فوافقه على ما أراد .

وكان ديودات رأى انكماش بارداليان ، فسأله وهما في الطريق عن سبب انقباضـه .

فقال له : إن أبي خرج من القصر منذ ثلاثة أيام ولم يعد الى الآن وأخشى ان يكون أصيب بسوء .

— كيف ذاك ألم تعلم شيئاً من أخباره .

— كلا فإنه ذهب مساء الاربعاء وقال للبواب إنه إذا لم يعد صباحاً يكون قد سافر ، فإلى أين هذا السفر ؟ وكيف يستطيع الخروج من باريس وأبوابها مقفلة ؟ ومع ذلك فقد يكون تمكن من مبارحة المدينة وحده ، ولكن إلى أين ذهب ؟

- لا ريب ان أباك وافر الحكمة فلا سبيل الى الخوف عليه .

— ربما ، فإن ذلك يريح بالي بعض الراحة ، وانه لو كان مصاباً بخطر لأخبرني به ، ولكنه يجري في خطة وأنا أجري في خطة ، وأخاف ان يفسد غيابه خطتي .

— ما هي خطتك يا بارداليان .

— لقد تمكنت من إغواء ضابط سيتولى حراسة باب سانت دنيس يوم الثلاثاء وقد وعدني انه لايدافع غير دفاع ظاهري حين نخرج من ذلك الباب بشرط ان يكون هجومنا شديداً كي يكون له عذر بالفشل ، وإني معتمد عليك أيضاً أيها الصديق في هذه المهمة .

- حسناً ففي أية ساعة من يوم الثلاثاء يكون اللقاء .

- في الساعة السابعة من المساء ، فتكون حنة وابنتها والمـــارشال أيضاً ، في مركبة مقفلة ، فقد أقنعته ورضي ان يتوارى . وسيكون معي

عشرون مهاجماً .

– وأنا أعدك بعشرين رجلاً أيضاً .

– أواه لو كان أبي معنا .

– إنه سيرجع بلا ريب في ذاك الحين ... ولكن ما لهؤلاء الناس يحتشدون ؟

– ما هذا ؟.. إنهم يجثون جميعهم على الركب .. تقدم ، أيها الصديق لنرى .

– ألا تخشى ان يعرفوك ؟

– ومن عساه أن يعرفني منهم وليس لي علائق بهذه الجهة .

وعندها سمع باردليان صوت رجل يقول : « هوذا اثنان منهم » فارتعش لهذا الصوت إذ علم انه مورفر .

وكان باردليان وماريلياك قد تقدما إلى باب الدير ، وامتزجا بالناس قبل أن يراهما مورفر فرأيا ان جميع الحضور قد ركعوا حين مرور الحلة المقدسة فلم يبق واقفاً غيرهما .

وكانوا يصيحون في ذاك الحين : ليمت الهوكينوت . وفي تلك اللحظة صاح مورفر قائلاً : هوذا اثنان منهم .

فأحاط الشعب بهما من كل ناحية ، وانقضوا عليهما انقضاض العقبان على الفريسة .

فنظر كل منهما إلى الآخر نظرة مفادها ان الموت بات محتماً ، ولكن لننتقم ما استطعنا قبل الموت .

لكنهما قبل ان يجردا سيفيهما رجع الشعب فجأة الى الركوع وجعل الناس يصيحون : هوذا القديس !

وعند ذلك رأى القديس ، وهو لوبين ، باردليان وأسرع اليه يعانقه فتفرق الناس من حول ذلك القديس ، بحيث تمكن باردليان وماريلياك من

تجريد سيفيهما .

وقد رأى باردالیان زاوية تحت الدير، فقال لصديقه . انظر الى هذه الزاوية في الجهة اليسرى من الدير .

– اني اراها .

– هلم نثب اليها لاننا نستطيع الدفاع فيها ... تأهب .

– هلم بنا .

فاندفع ماريلياك الى تلك الزاوية وهو يفرق الناس بسيفه المسلول فيبتعدون عنه منذعرين ثم يركضون في أثره ناقمين .

حتى اذا وصل الى تلك الزاوية رأى انه وحده فيها .

فحاول ان يعود الى حيث كان ، للدفاع عن صديقه باردالیان ، ولكنه شعر ان عدة أياد أمسكته من الوراء ، ثم شعر انهم حملوه وأدخلوه الى الدير .

واما باردالیان فانه حين رأى صديقه يركض الى الزاوية ، وان لوبين يعانقه بحيث يمنعه عن إدراك صديقه ، تخلص منه بعنف ووثب يشق عباب ذلك الجمهور .

ولكنه وجد سداً من الناس ورأى مورفر ورفاقه قد انقضوا عليه من كل صوب . فما زال يدافع عن نفسه دفاع القانط المستميت حتى تغلب عليه ذلك الشعب الزاخر الناقم ، وسقط على الأرض وقد تهشم جسمه من الجراح .

فاحتاط الناس ، واسرع مورفر فجاء بحبل متين ، فأوثق به يديه ورجليه ، وأمر بإدخاله الى الدير ، بعد ان جرح عشرين رجلا من اولئك المهاجمين .

وبعد ان أقفلت أبواب الدير ، وقف الناس خارج الأبواب يهتفون لذلك القديس .

وكان لوبين يظهر من حين الى حين من النافذة ويبارك ذلك الشعب ، وهو يكاد يسقط من السكر .

* * *

أمـا مورفر فانه ، بعد ان دخـل الى الدير ، خلا برئيسـه وتداول معه ملياً .

ثم ذهب الى الغرفة التي وضعوا فيها ماريلياك فقال له : انت حر يا سيدي الكونت وهوذا حسامك .

فلم يظهر ماريلياك لا سروراً ولا دهشة بل أخذ حسامه فوضعه في غمده والتفت الى مورفر فقال :

- أرجو ان نلتقي في حال لا تشبه هذه الحال ، اي نلتقي في مكان لا يخفرك فيه عشرون رجلاً من اعوانك .

- اننا نلتقي ، يا سيدي الكونت ، في أية ساعـة اردتها ، وفي اي مكان تختاره .

- إذاً نلتقي صباحاً بعد غد .

- اين ؟

- في مروج الرعاة .

- ليكن ما تريد ... ولكن ارجوك ، يا سيدي الكونت ، أن تأذن لي بإظهـار انذهالي مما اراه من عداوتـك لي ، بعد ان انقذتـك من الموت .

فأجاب ماريلياك بلهجة المحتقر :

- انت انقذتني ؟

فاصفر وجه مورفر وقال :

— نعم فاني اتيت من ورائك ، حين رأيت الناس ينقضون عليك فحملتك مع رفاقي وادخلتك الى الدير ، ولولاي لما كنت الآن في قيد الحياة ، يا سيدي الكونت .

— إذا كان ذلك كما تقول فلا يسعني انا ايضاً غير الانذهال ، فاني لست من اصدقائك كما اظن .

— يجب ان تكون من اصدقائي لأنقذك من ايدي اولئك الناقين ... وفوق ذلك ، فلا بد لي من الاعتراف لك ، اني قد اندفعت الى نجدتك بسبب سري .

— ما هو هذا السبب يا سيدي .

— هو ان يروق عملي في عيني جلالة الملكة كاترين ، فإني اذا لم اكن من اصدقائك ، يا سيدي الكونت ، فذلك لا ينفي ان اكون من اصدقاء الملكة .

اتعلم ما قالته الملكة اخيراً لي ولسواي من الخاصين لجلالتها ؟. قالت انها تعتبرك من البواسل وتعطف عليك عطفاً خاصاً ، وانها ترجو جميع المخلصين لها ان يحموك من كل سوء قد يصيبك .

فأنت ترى يا سيدي اني اذا انقذتك فقد صدعت بأمر الملكة ، التي اسفك دمي في سبيل خدمتها وخدمة من تحبهم .

فقال له ماريلياك بصوت يتهدج :

— اهي قالت هذا القول ؟

— انه كلامها نقلته اليك بحرفه يا سيدي الكونت ، وانا على قبولي مبارزتك ارجوك ان تعتبرني من اخلص الأوفياء لك .

ثم انحنى امامه وحاول الانصراف فاستوقفه ماريلياك وقال له :

— ان لكلام جلالة الملكة الذي سمعته منك الآن تأثيراً عظيماً على حياتي يا سيدي ، فهل تقسم لي انك نقلت اقوالها كما سمعتها .

– نعم ، اقسم لك ، يا سيدي الكونت ، وازيــد على ذلك انه اذا كانت اقوالها تدل على الميل اليك ، فإن نـبرات صوتها كانت ادل عـلى عطفها عليك ...

ولم يعد ذلك بسر ، يا سيدي ، فقـد عرف الجميع ان جلالتها تريـد لك الخير ، وانها ستوليك أرقى منصب في جيش الأميرال كوليني الزاحف الى هولندا .

فتنهد ماريلياك وقال في نفسه :

– أماه ! أحق ما أسمع .

ثم نظر إلى مورفر ، وقال : إني آسف ، يا سيدي ، لأني أسـأت استقبالك .

فابتسم مورفر وقال : وأنا أغفر لك هذه الاساءة .

– أشكرك إذاً شكرين ورجائي الآن ان تذهب بي إلى الشفالييه بارداليان كي أعود وإياه .

– بارداليان !

– نعم هو ولماذا عجبت ؟

– أعيد عليك ما قلته يا سيدي الكونت ، وهو انك حر طليق ، وأما بارداليان فقد ارتكب جريمة العصيان ، وجريمة إهانة الملك فوجب أن أقبض عليه .

– تقبض عليه ؟

– وقد فعلت .

– بأي حق الملك من ضباط الحرس ؟

– كلا يا سيدي ولكني تلقيت الأمر للقبض عليه وكنت أبحث عنه حين تشرفت بلقائك .

– ومن الذي أصدر اليك هذا الأمر ؟

- جلالة الملكة كاترين .

وعند ذلك انحنى مورفر مسلماً وانصرف ، وقد ترك الباب مفتوحاً .

ولبث ماريلياك هنيهة ، وهو مطرق مفكر ، ثم ضرب جبينه بيده وقال :

- سأرى الآن جلياً إذا كان عطف الملكة علي أكيداً فإني سأسألها إطلاق سراح بارداليان .

ثم خرج من غرفته إلى رواق فلقيه راهب وقال له : لقد عهد إلي يا سيدي الكونت أن أخرجك من باب خلف الدير .

- لماذا لا أخرج من الباب الكبير .

- ذلك يا سيدي الكونت ان الشعب هائج ، والناس ينتظرون خروجك للانقضاض عليك .

ولكنا علمنا ان جلالة الملكة لا تريد أن تصاب بسوء، ولذا أردنا إخراجك من ذاك الباب .

فتبع ماريلياك الراهب دون اعتراض فخرج من ذلك الباب دون ان يراه أحد وسار في طريق اللوفر .

- ٥ -

سجن التامبل

وقد كان ماربلياك يسير مسرعاً إلى اللوفر ولكنه على سرعتــه لم يدرك مورفر لانه سبقه اليه .

ويظهر ان الملكة كانت تنتظر مورفر بفارغ الصبر لانه حين وصل إلى اللوفر أسرع اليه رئيس حراس الملكة وأدخله اليها .

وكانت الملكة تكتب ، وقـد القت على مائدتها كثيراً من الرسائـل المختومة .

فلما دخل مورفر أشارت اليه إشارة مفادها أن ينتظر إلى ان تتم الجملة التي تكتبها .

ثم عادت إلى الكتابة ، وجعل مورفر ينظر إلى تلك الرسائل ليعرف عنواناتها .

فباغتته الملكة وهو ينظر وقالت له : أرى انك تريد ان تعرف اسماء الذين أكتب اليهم هذه الرسائل .

- سيدتي . .

- لا بأس إني أحب أهل الفضول لان فضولهم يدل على الذكاء وسأشفي غلك فاذهب إلى النافذة .

- أتوسل إلى جلالتك ان تثق ...

– قلت لك إذهب إلى النافذة .

فامتثل وذهب إلى النافذة وهو يعتقد انه سيباغت بأمر هائل لكنه اطمأن حين خطر له ان الملكة محتاجة اليه .

فقالت له : ماذا ترى يا مورفر في ردهة البلاط .

– إني أرى ثلاثين رجلاً من سعاة بريد جلالة الملكة ، وهم فوق جيادهم متأهبون للسفر .

– حسناً إبق حيث أنت لترى كل شيء .

ثم قرعت جرساً أمامها .

فدخل إلى غرفتها رجل أشارت اليه ان يأخذ الرسائل .

فأخذها ونزل مسرعاً إلى تلك الردهة فجعل يوزعها على السعاة وكلما أعطى ساعياً رسالة انطلق بجواده وخرج بها من اللوفر .

حتى إذا سافر السعاة كلهم بالرسائل ، نادت الملكة مورفر ، وقالت له :

– أريد منك حين ترى صديقك الدوق دي كيز ان تقول له بأنك رأيت سعاة بريدي يحملون رسائلي إلى حكام الأقاليم . وأضف إلى ذلك ان كل رسالة تتضمن الأمر الى الحاكم بجمع من لديه من الجند ، والزحف بها إلى باريس لايقاف اولئك الجهال عند حدهم .. اولئك الأغرار الذين لم يخشوا أن يتآمروا على الملك .

قل يا مورفر لصديقك الدوق انه لا تمضي بضعة أيام حتى يزحف إلى باريس جيش مؤلف من ستين الفاً لحماية الملك أو لانقاذه اذا خطر لأولئك المجانين ان ينفذوا خطتهم .

وأما أنت ... فماذا أصنع بك .

فشعر مورفر ان الأرض تميد به لما خامر قلبه من الرعب ، كأنما سيف الجلاد قد أشهر على عنقه ، وقال في نفسه :

ـ ويلاه إني من الهالكين .

فنظرت اليه الملكة ، وقد رأت اضطرابه ، نظرات تختلف بين الريب والاحتقار والفوز .

على انها كانت كاذبة فيما قالته ، لان هذه الرسائل التي أرسلتها إلى الحكام لم تكن تتضمن الأمر بحشد الجنود والزحف بها الى باريس ، بل كانت تحتوي على إصدار الأمر لهم بالقبض على كل ساع من سعاة البريد لا يكون معه أمر بايصال الرسائل ، والقبض على كل هارب من باريس وكل هوكينوتي .

وكان مورفر قد ركع أمامها وهو يضطرب اضطراب الريشة في مهاب الريح فأمرته ان ينهض وقالت له :

ـ لا ينقذك غير الصدق ... فقل لي الآن ، إلى أين بلغت مؤامرة دي كيز ؟

فأجاب مورفر وقد بذل جهداً عنيفاً كي يضبط نفسه :

ـ أقسم بالله يا سيدتي انه لا شأن لي مع المتآمرين .

فقالت بلهجة احتقار هائلة : ومن قال لك انك تؤامر يا مورفر فان من يتآمر يجب ان يكون شيئاً مذكوراً ، لكن لا بد ان تكون سمعت شيئاً عن هذه المؤامرة فقل ما تعلم عنها .

ـ يقولون يا سيدتي ان جلالة الملك لا يريد ان يتخذ الوسائل اللازمة بشأن الهوكينوت .

ـ وبعد ذلك .

ـ ولما كان أهل باريس هائجين عليهم ، فسيستفيد الدوق دي كيز من هذه الفرصة ، ويتخذ النبلاء وعامة الشعب من حزبه ، ويكون قائد الكاثوليك العام .

ـ وبعد ذلك .

ـ هذا كل ما أعلمه يا سيدتي .

ـ كذبت .

ـ سيدتي ... إني لو نقلت إلى غرفة التعذيب ، لما قلت غير ما سمعته مني ، لأني لا أعلم سواه ... ولكني أظن ... وظني مبني على الافتراض ...

ـ قل .

ـ أظن انه حين يسود الدوق دي كيز على باريس ، ويصبح القائد العام لجميع الكاثوليك ، يغتنم هذه الفرصة إذا ساعدته الظروف ، للوصول إلى جلالة الملك .

فقالت الملكة في نفسها : أحق انه لا يعرف أكثر مما يقول ؟

ثم نظرت اليه وكان قد ثاب إلى رشده وضبط نفسه فقالت :

ـ إنك أحسنت خدمتي يا مورفر وستخدمني أيضاً .

ـ إن حياتي لجلالتك يا سيدتي فافعلي بها ما تشائين .

ـ إني أصفح عنك يا مورفر ، وأما الدوق دي كيز فإنه إذا أحب أن يكون قائد الكاثوليك رضينا به قائداً ، فقد يعجبني منه دفاعه عن الدين .

وأما ان يحضر الى اللوفر لعرض شروطه على الملك فسيجد حول عرشه جيشاً كثيفاً يسمم قبل الملك تلك الشروط .

ثم حدقت بمورفر تحديق الفاحص المرتاب .

فتحمل مورفر نظراتها بشهامة اليأس ، وقد أيقن انه إذا بدرت منه بادرة تدل على الضعف سيق في الحال الى غرفة التعذيب .

أما الملكة فإنها بعد هذه النظرات أخذت ورقة وكتبت عليها بضعة سطور وقالت له : أنظر ما أصنعه بك .

فقال مورفر في نفسه : لا ريب ، انها تكتب الأمر القاضي بإرسالي

إلى الباستيل .

لكنه حين دفعت له الملكة الورقة ورأى مكتوباً عليها حوالة باسمه على الخزينة بخمسين الف فرنك فرح فرحين أحدهما لخلاصه مما كان يتوقعه من العقاب والثاني فرحه بذلك المال .

أما الملكة فقد راقبت تأثير هذه الورقة فيه فقالت في نفسها : إنه دون ريب لا يعلم أكثر مما قال .

ثم قالت له لقد اقتربت الساعة يا مورفر ويجب ان تذهب الى ذاك الصديق الذي اتفقت معه على ان يكن للأميرال كوليني .

-- لكنه يا سيدتي مقيم في مكنه وقد دفعت له ما أعطيتني اياه من المال فما هذا الذي أعطيتني إياه الآن ؟

-- انه مقابل سوء ظني فيك ثم لأكافئك عن النبأ الذي جئتني به بشأن عجيبة الدير فقد بلغني انها حدثت اليس كذلك .

-- نعم يا سيدتي وان الشعب متجمهر الآن حول الدير وكلهم واثقون ان الماء تحول الى دم .

-- اذاً ان الشعب واثق من حدوث العجيبة .

-- كل الوثوق يا سيدتي وهو يعتقد ان هذه العجيبة جاءت إنذاراً من الله للدلالة على إبادة أهل البدع وقد بدأت بالقبض على اثنين منهم ولكني أطلقت سراح واحد منهما .

فظهرت عليها علائم الدهشة والقلق وقالت : من هما ؟

-- إن الذي أطلقت سراحه يا سيدتي بعد ان أنقذته بيدي من الشعب الثائر هو من أعاظم الهوكينوت ولكني لاحظت ان جلالة الملكة لا تريد ان يساء اليه وهو الذي يدعونه الكونت دي ماريلياك .

فارتعشت ارتعاشاً خفياً ، ولبثت باسمة ، متظاهرة بعدم الاكتراث ، وقالت له :

— لقد أحسنت يا مورفر في إطلاق سراحه ، لأنه من أصحابي . فمن هو الثاني ؟

— الثاني ... إني التمس من سيدتي أن أذكرها بوعدها ، الذي تفضلت ووعدتني به .

— ما هو ؟

— يوجد على وجهي يا سيدتي أثر ، لا يمحى عني عاره ، إلا إذا انتقمت انتقاماً هائلاً . وهذا الرجل الذي ظفرت به ، هو الذي رسم في وجهي هذا الأثر .

— الشفالييه بارداليان .

— هو بعينه يا سيدتي .

فظهرت علائم الفرح على وجه الملكة وقالت: أنت من خير الرجال يا مورفر فقل بماذا وعدتك ؟

— وعدتني يا سيدتي أن تأذني لي بالتصرف بهذا الرجل كيف أشاء ، إذا ظفرت به .

— أين هو الآن ؟

— مكبل مسجون في إحدى غرف الدير .

— أين تريد ان تسجنه ؟

— في الباستيل إذا كانت جلالتك تريد ان تصدر أمرها بذلك .

ففكرت الملكة هنيهة ثم قالت :

— ماذا تريد ان تصنع بهذين الرجلين ؟

فانذهل مورفر وقال :

— من هما هذان الرجلان يا سيدتي ؟

— الشفالييه بارداليان وأبوه ، لقد أخبرني المارشال دامفيل انه قبض على الأب وأرسله إلى سجن التامبل .

وقد طلب إلي هذا المارشال ، لسبب لا أعلمه ، أن آذن له بأن يتولى استنطاق هذا الرجل وهو لم يحاكم إلى الآن ، ولكني أعجب كيف ان المارشال يتولى بنفسه هذا الأمر . فهل يعرف بارداليان سراً عظيماً يريد المارشال أن يعرفه منه .

ــ لتتفضل سيدتي بإصدار أمرها إلي ، وأنا أتعهد بأن أنزع منه هذه الأسرار .

ــ أنت تعرف ، إني غير حاقدة على بارداليان ، الذي تنقم عليه هذه النقمة .

ــ لكن الشفاليه بارداليان أهان جلالتك في قلب اللوفر .

ــ ليس من المؤكد أنه خطرت له إهانتي ، وفوق ذلك فان الشفاليه بارداليان خدم الملك خدمة جليلة حين أنقذ إبنة عمه ملكة النافار . مسكينة هذه الملكة إن ذلك لم يمنع عنها الموت . .

إن مصاب موتها عظيم لقد كان الاتفاق معها سهلاً ميسوراً في كل أمر خلافاً للأميرال كوليني فلا سبيل معه الى الاتفاق .

ثم تنهدت إظهاراً لأسفها على ملكة النافار ، وعادت إلى حديثها الأول فقالت :

ــ إني وهبتك هذين الرجلين ، ولا أخلف بوعدي .. ولكني أحب أن يكونا في سجن واحد ، وما زال الأب مسجوناً في التامبل ، فاسجن الابن معه فيه .

ثم كتبت له الأمر بذلك .

فأخذه مورفر وقال :

ــ لا فرق عندي بين أن يكونا في التامبل او في الباستيل بشرط ان يكونا في قبضة يدي ولا سيا الشفاليه .

ــ ألم تقل انك ستتولى استنطاقهما .

- نعم يا سيدتي وذاك كاف لانتقامي .

- إذاً إذهب ، لكن قل لي متى عزمت على استنطاقهما .

- منذ الآن يا سيدتي بعد ان أنقل الشفاليبه الى سجن أبيه ، وأدعو الذي يتولى تعذيبهما ، لكنه لا يفعل إلا بحضور القضاة .

- إلا إذا كان لديه أمر خاص .

ثم كتبت أمراً بذلك وعينت وقت التعذيب والاستنطاق في الساعة العاشرة من صباح السبت الواقع في ٣ أغسطس .

فقال لها مورفر : أيجب ان أنتظر الى هذا الحد .

- إني صبرت أكثر منك ولم أضجر ، أفلا أقل من انتظار خمسة أيام .

- ليكن ما تريده جلالتك .

- واعلم اني لا أريد ان يكون أحد سواك في غرفة التعذيب ، ومأمور التعذيب .

- سأصدع بالأمر .

- ثم انك تعود إلي بما يقوله الرجلان دون زيادة او نقصان .

- هذا لا ريب فيه .

- واعلم أيضاً ، يا مورفر ، إني أعطيك حياة هذين الرجلين ، مقابل حياة كوليني ، الذي وعدتني بقتله ... ويجب أن ينفذ قتله من اليوم إلى السبت .

- سيكون ما تريدين يا سيدتي .

وأمرته عند ذلك بالانصراف وبقيت وحدها فقالت : لقد قضي على كوليني ولم يبق له مفر من الموت .

وأما بارداليان فسأعلم ذلك السر الذي يريد دامفيل ان ينتزعه منه ، إذ يوجد في غرفة التعذيب غرفة خفية ، أستطيع ان أسمع منها كل شيء دون ان يراني أحد

وعندها دخل نانسي قائد حرسها وقال :
– على الباب يا سيدتي الكونت ماريلياك .
فابتسمت الملكة وقالت :
– ماذا يريد هذا الكونت العزيز ؟
– إنه يلتمس مقابلة جلالتك .
– ليدخل .
فخرج قائد الحرس وقالت الملكة في نفسها :
– لماذا لا أقبض عليه أيضاً وأزجه في السجن ... كلا .. فإنه قد يبوح بسر مولده ...
واذا قتلته فإني أخاف اليس ... فلأصبر يوماً أيضاً فقد بات الاثنان في قبضة يدي .
وعندها دخل الكونت فاستقبلته باسمة مسرورة وقالت :
– لقد قيل لي انك تريد مقابلتي يا كونت فتفرغت لمقابلتك عن أشغال المملكة فقل يا بني ماذا تريد ؟
العلك جئت تسألني إذا كانت معدات الحفلة قد تهيأت ؟.. إطمئن اني لا أدخر وسيلة في سبيل هنائك .
فركع ماريلياك وقال :
– إن سيدتي غمرتني باحسانها ، لكني لم أحضر الآن لشؤوني بل أتيت التمس منها العفو .
– عمن تريد ان أعفو ؟
– بل التمس ان يجري العدل في مجراه فقد قبضوا اليوم على صديق بل على أخ لي وهو زين الشباب بذكائه وبسالته وحنانه .
– يكفي ان تحب هذا الرجل ، يا كونت ، فأريد له كل خير . قل ماذا يدعى ؟

. وأسفاه ، يا سيدتي ، إنه نكب بأن أتاحت له الأقدار أن تكوني غاضبة عليه ، وذلك مرتين . إحـــداهما في مقابلة في ذلك المنزل الذي تشرفت فيه أنا بمقابلتك فيه أول مرة ، والمرة الثانيــة في اللوفر ، في غرفة الملك .

– لقد أساء إلي كثيرون من الناس ، ولكني كنت أحاول نسيان إساءتهم ، لان كل من يعرفني حق العرفان يصبح من أعواني . فقل ماذا يدعى هذا الصديق .

– الشفالييه دي بارداليان .

فتظاهرت الملكة انها تبحث في ذاكرتها عن هذا الاسم ، ثم دقت يـداً بيد وقالت :

– نعم .. نعم لقد كدت أنسى هذا الرجل الذي عرضت عليه الدخول في خدمتي . أتقول انهم قبضوا عليه .

– نعم يا سيدتي ، واني أتوسل اليك أن تأمري بإطلاق سراحه وأنا الضامن انه لا يفعل ما يدعو الى استياء جلالتك وجلالة الملك ، فإذا كان التماسي غير كاف فان جلالة ملك النافار ينضم إلي فيه ، لكني أرجو ان يكون التماسي كافياً .

– لقد أصبت ايها الكونت العزيز ، لأن في طلبك فوق الكفاية .

ثم قرعت جرساً على مائدتها ، فدخلت الخادمة وأمرتها ان تنادي نانسي قائد حراسها .

وبعد هنيهة جاء نانسي فسألته :

– أعلمت بخبر القبض على رجل يدعى الشفالييه دي بارداليان .

– نعم يا سيدتي، وهو ذلك الشاب الذي سجن قبل هذه المرة في الباستيل وهرب منه .

فقطبت حاجبيها وقالت : من الذي أمر بالقبض عليه ؟

— جلالة الملك يا سيدتي ، وأظن ان الرجل متهم بالعصيان وفي كل حال فإنه قاوم جنود الملك مرتين .

فقال ماريلياك : هو ذاك يا سيدتي، ولكني سأخبر جلالتك عن السبب في هذه المقاومة .

فقالت الملكة : حسناً يا نانسي لقد علمنا ما نريد ان نعلمه .

ثم أشارت اليه بالانصراف ، فانصرف .. وبقيت هي مع ماريلياك فقالت له :

— اني سأبرهن لك يا بني برهاناً جديداً عن عطفي عليك كما أعطف على أولادي فابق هنا وانتظرني الى ان أعود .

فلبث ماريلياك وحده وهو مضطرب إذ لم يبق لديه شك ان هذه الملكة تعامله بحنو الأمهات وندم على ظنونه الماضية .

ولم يبق مرتاباً إلا بما سمعه من مورفر ، فقد قال له ان بارداليان قبض عليه بأمر الملكة

وقد سمع نانسي يقول انهم قبضوا عليه بأمر الملك ، فهل نسيت انها أصدرت هذا الأمر .

وأما الملكة فانها غابت نصف ساعة وعادت اليه فقالت :

— لقد فزت بما تريد يا كونت .

فقال بصوت يضطرب ان حياتي بعد الآن وقف على أمر جلالة سيدتي فهل صدر الأمر باطلاق سراح صديقي .

- لقد تلقيت وعد الملك بالافراج عنه ، وما بلغت هذه الغاية إلا بعد العناء الشديد ، اذ يظهر ان صديقك هذا يتآمر مع المارشال مونمورانسي .

- كلا ، كلا يا سيدتي ، فاسمحي لي بهذه المناسبة ان أخبرك أن المارشال مونمورانسي . .

- لا حاجة يا كونت الى معرفة ذلك ، فليس هو من شؤوني ... ومع ذلك ، فاذا أراد بارداليـان ان يقول شيئا بشـأن مونمورانسي ، فسيقوله لي بنفسه

- أنت عظيمة يا سيدتي بجلالك ونبلك وكرم أخلاقك .

- كلا يا بني بل أنا امرأة لقيت جميع أنواع الشقاء والشقاء يلين النفـوس ويطبعها على حب الرفق .

وإني لا أريد ان أعرف اذا كان صديقك يتآمر على الملك بل اريد أن أعرف فقط انه صديقك .

وقل له ان أصدقاءك هم أصـدقائي ، وانه اذا كان يريد أن يسأل شيئاً له ، أو للمارشال مونمورانسي ، ان يأتي الي صباحاً بعد غد ، اي بعد أن يتم الملك استنطاقه .

- أيريد جلالة الملك ان يستنطقه ؟

- نعم ، لقـد تمكنت من ان أجعـل الملك يتولى بنفسه هـذه المهمة ، بدلاً من القضاة .

واذا كانت جواباته صريحة ، عن السبب في ملازمته قصر مونمورانسي يصفح الملك عن كل ما صـدر منه في اللوفر ، وفي الخمـارة ، وفي شارع مونمـارتر .

- سيكون جوابه يا سيدتي بأتم الصراحة ، فان بارداليـان والمارشال لا يريدان إلا الخروج من باريس... واعلمي يا سيدتي انجميع أعمالها لا مرجع لها الا الحب .

- حسناً احضر به يا كونت في الساعة العاشرة من صباح بعد غد وقل له اني أريد ان أراه .

- سيدتي انه لا يبرح اللوفر قبل ان ينطرح على قدميك ويظهر امتنانه .. أما أنا فإن حياتي موقوفة على رضاك .

– الى اللقاء اذاً ، يا كونت ، فسنلتقي غداً في الكنيسة ، وبعد غد في اللوفر .

فتركها ماريلياك وخرج من عندها ، وهو يكاد يطير سروراً فذهب تواً الى الدير للعودة بصديقه بارداليان .

وقد رأى حين وصوله اليه ، فارساً خرج منه ، وسار في طريق اللوفر . .

فطلب ماريلياك مقابلة رئيس الدير فقال له : أتريد يا سيدي ان تخبرني اذا كان الشفاليه بارداليان لا يزال في الدير .

– نعم هو فيه وسينقل منه الى الباستيل ، ولكن صدر الي الأمر بأن أبقيه في الدير الى صباح الثلاثاء وأن أبالغ في اكرامه فخصصت له غرفتي ، وهذا كل ما أستطيع ان أفعله .

– وفي صباح الثلاثاء ماذا تصنع به .

– أطلق سراحه وأقول له ان جلالة الملك يدعوك الى مقابلته .

– انه سيذهب دون شك ولكن قل لي يا سيدي الرئيس ألا يؤذن لي بمقابلة الشفاليه ؟

فتمهن الرئيس هنيهة وقال :

– اني لا أمانع في ذلك فلم يردني أمر صريح بهذا الشان ، ولكني أرى ان ذلك غير ميسور .

انهم قبضوا عليكما معاً ، ثم أطلقوا سراحك ، وأبقوه سجيناً الى الثلاثاء ، وكل ذلك يدل على انهم يريدون التفريق بينكما ، الى ذاك اليوم .

– اني لا الح في ذاك يا سيدي ولكني أرجوك ان تخبر صديقي اني سأحضر اليه صباح الثلاثاء فأذهب به الى اللوفر .

– سأخبره دون ريب .

فودعه ماريلياك وانصرف مسروراً ولكنه كان يشعر برعب شديد يتولاه وهو لا يعرف سببه .

فكان اذا افتكر به يعلله بفرحه العظيم فيقول :

صباح غد يتزوج ملك النافار في كنيسة نوتردام فأصبح حراً وأطلب اجازة تمتد الى زمن الذهاب الى الحرب .

وغداً عند انتصاف الليل تقود أمي بيدها خطيبتي اليس الى الكنيسة فيعقد الكاهن فيها زواجنا ...

نعم اني أرضى ان يعقد زواجنا كاهن فقد رضي ملكي قبلي .

وبعد غد أذهب بصديقي بارداليان الى اللوفر وأنال الأذن له ولمونمورانسي بالخروج من باريس وأسافر معهم الى حيث يسافرون .

وكان يحدث نفسه بهذه الأحاديث ، وهو سائر في الشوارع ، فيرى الناس يجتازونها عصابات ، فيحسب انهم يتأهبون للحفلات الكبرى التي ستبدأ غداً .

***

لم يكن رئيس الدير صادقاً فيما رواه لماريلياك ، لأن مورفر قد جاء قبله الى ذلك الدير بمركبة وعشرين فارساً ، فحملوا بارداليان وهو موثق اليدين والرجلين ، ونقلوه الى المركبة ، ثم ساروا به الى سجن التامبل ، حيث كان أبوه .

وكان الدوق دامفيل قد سجن بارداليان الأكبر في سجن التامبل ، بدلاً من سجن الباستيل ، لأنه خشي ان يفر من ذلك السجن كما فر منه ابنه من قبله ، ولأنه يعلم ان حاكم سجن التامبل من أهل اليقظة والشدة فلا خوف من فرار بارداليان .

ثم ذهب الى الملكة ، وأخبرها بما فعل ، بشكل أظهر لها فيه انه خدمها أجل خدمة .

وكان في نيته ان يستنطق بنفسه بارداليان الأكبر .

غير انه حين علم ان مورفر قبض على بارداليان الأصغر ، وزجه مع أبيه ، خشي العاقبة ، ولا سيما حين علم ان مورفر سيتولى الاستنطاق بأمر الملكة .

وقد عرف القراء ان الملكة عازمة على ان تسمع سراً ما يقوله بارداليان وابنه وانها عينت موعد تعذيبهم في صباح السبت وانها أذنت لمورفر بتعذيبهما حتى الموت ، مكافأة له عن قتل كوليني بحيث لم يكن مورفر مغبوناً ، فإنه سيشتري بجثة جثتين .

وأما الشفاليه بارداليان ، فإنه حين كبلوه ونقلوه الى الدير ، استسلم للموت ، اذ لم يشك بأن مورفر يريد قتله .

فأغمض عينيه وهو ملقى في زاوية الغرفة وجعل يحدث نفسه فيقول :

— أود لو علمت السبب الذي يدفع مورفر هذا إلى اغتيالي ، إذ لا أظن انه ينقم علي هذه النقمة لضربة سيف أصبت بها وجهه . فمن هذا الذي يغريه بقتلي .

أهي الملكة كاترين ؟ ربما . . . ولماذا ؟ إني أبيت ان أقتل بأمرها صديقي ماريلياك . . .

مسكين هذا الصديق فإني أخشى ان يقتلوه معاً لان الملكة لم تعين موعد زفافه عند انتصاف الليل عبثاً .

ثم ان الدوق دانجو قد يكون له يد أيضاً في قتلي ، لأني لا أنسى ما كان منه حين عاملته معاملة الخدم .

بل ربما كان الدافع الى قتلي دي كيز ودامفيل لأني أعرف سر مؤامرتها .

إني أشعر بدنو الساعة ولكن ما هذا الاضطراب الذي يصيبني؟ العلي خفت

الموت ؟ ومتى كنت أخافه ؟

لكن واأسفاه ان لويزا ستتزوج الكونت مارجنسي

وقد بذل جهداً عنيفاً عندما خطر له هذا الخاطر كي يقطع قيوده فلم يستطع لأنهم أحكموا وثاقه .

وكان كلما خطر في باله اسم لويزا يبذل مثل هذا العنف ثم يئن أنيناً مزعجاً إذ يعجز عن قطع القيود .

ولبث على ذلك إلى ان أقبلت الجنود برئـــاسة مورفر ، فنقلوه إلى سجن التامبل .

وقد سلمه مورفر الى مدير السجن وقال له : ضع هذا الرجل مع أبيه واعلم انك المسؤل عنهما إلى يوم السبت .

– لماذا الى يوم السبت ؟

– لأن تعذيبهما واستنطاقهما سيكون في ذاك اليوم. فأخبر مأمور التعذيب كي يتأهب للساعة العاشرة من صباح السبت

– وسأخبر حفار القبور أيضاً كي يتأهب لظهر ذاك اليوم .

وقد أخذ مدير السجن بارداليان فحل قيوده وأدخله إلى غرفة وأقفل بابها. وكان الظلام سائداً في الغرفة فلم ير بارداليان أحداً فيها .

وفيما هو واقف لا يعلم أين يقيم شعر ان رجلاً يعانقه ويقول بلهجة الحزين. رباه !.. أهذا أنت يا بني ؟ . أنت في هذا الجحيم .

فصاح بارداليان صيحة فرح وقال أبي !

– نعم إنه أبوك الشقي لقد قضي علينا القضاء المبرم هذه المرة وما أسفي على نفسي فقد شبعت من الحياة ولكني أأسف على شبابك الغض .

– لا بأس يا أبي وحسبنا ان نموت معاً .

فأجابه صوت من الخارج عرف بارداليان أنه صوت مورفر قائلاً :

– سيكون لكما ما تريدان وستموتان معاً فاشكراني لانكما لم تسجنـا في

غرفة واحدة إلا بفضلي وستعذبان بفضلي ايضاً عذاباً واحداً. والآن استودعكما الله إلى الساعة العاشرة من صباح السبت .

فهجم بارداليان الأكبر كأنه نسي انه سجين وقال له ويح لك ، أيها الشقي السافل .

وأما بارداليان الأصغر فلبث في مكانه .

وبعد ان ذهب مورفر وفرغ بارداليان الأكبر من شتائمه عاد إلى ولده فأخذ بيده وقال له : تعال واجلس يا ابني .

ثم ذهب به إلى فراش من العشب اليابس وجلسا عليه .

وقد روى كل منهما حديثه للآخر وهما موقنان ان الموت لا بد منه لأن بارداليان الأكبر بحث بحثاً طويلاً خلال إقامته في السجن فوجد ان لا سبيل الى الفرار منه .

وأما بارداليان الأصغر فانه وضع رأسه بين يديه وقد اسودت الدنيا في عينيه فجعل يبكي بكاء الأطفال .

فقال له أبوه : ما بالك تبكي يا بني ، فهذه أول مرة أراك تبكي ، العلك ذكرت لويزا .

– كلا إن فراقها لا يبكيني بعد ان أيقنت من حبها ، لكني أبكي صديقاً ستقتله أمه شر قتل وهو يحسب انها تحبه حب الأمهات .

- ٦ -

الملكة مرغريت

في الساعة الثامنة ، من صباح الاثنين الواقع في ١٨ أغسطس سنة ١٥٧٢ ، كانت أجراس الكنائس تقرع في كل باريس ، ولا سيا كنيسة نوتردام .

وكانت شوارع باريس قد ازدحمت بالناس على اختلاف طبقاتهم ، بحيث غصت بهم وبات يتعذر المرور .

وكان معظمهم يحملون البنادق وقد لبسوا الدروع والخوذ كأنهم سائرون الى حرب او كأن عاصمتهم قد هاجمها الأعداء .

فجعلت هذه الجموع تسير إلى كنيسة نوتردام وهم يصيحون: لتحيى الكنيسة ليحيى دي كيز !

ثم دوت المدافع من اللوفر إشارة إلى خروج الموكب الملكي منه .

وذلك ان هذا اليوم كان يوم زفاف مرغريت أخت ملك فرنسا، الى هنري دي نافار .

وسار الموكب ، وكان في طليعته حرس الملك ، ثم المركبة الملكية وفيها ملك فرنسا وملك النافار ، ثم مركبة الملكة كاترين وابنتها مرغريت ، فمركبات امراء الأسرة الملكية ، يتلوها مركبات كبار النبلاء كدي كيز ودامفيل وغيرهما .

وفي مؤخرة الموكب نبلاء الهوكينوت فكانوا يسيرون مطرقي الرؤوس وقد أوجسوا شراً من مظاهرات الشعب .

وكان الشعب يهتف للملكة ويهتف للدوق دي كيز ، ولا سيما حينما مر الدوق فقد كانت أصوات الناس تطبق الفضاء وكلهم يصيحون بصوت واحد: ليحيى قائدنا العام .

وظل الموكب سائراً حتى وصل الى الكنيسة فوقف فيها الملك مع كوليني وهنري دي نافار مع مرغريت .

وكانت الملكة كاترين واقفة بالقرب منها ، وبيدها كتاب مفتوح كانت تتظاهر أنها تقرأ صلاتها فيه ، وهي مشرقة الوجه ، وقد ظهرت عليهـا علائم الفوز .

ولم يدخل الى الكنيسة من رجال الهوكينوت غير كوليني ، والبرنس دي كونديه ، وماريلياك .

أما كوليني فلأنه كان قد دخل بدعوة الملك .

وأما البرنس دي كونديه فلأن ملكة النافار أوصته قبل موتها ان لايفارق ولدها لحظة ما زال في باريس .

وأما ماريليـاك ، فلأنه كان يرجو ان يرى اليس ، فـان الملكة كاترين قد جعلتها من نساء بلاطها ، وقد صحبها الى هـذه الحفلة جميع نساء البلاط .

وأما بقية رجال الهوكينوت ، وعددهم سبعمائة رجل ، فقد لبثوا خارج الكنيسة عرضة لانذار الشعب الزاخر الناقم .

وكان واقفـاً ، بجـانب الملكة كاترين ، سـالفاتي مندوب قـداسة البابا . فأشارت اليه أن يدنو منها ، وقالت له ، وعيناها شاخصتان الى كتابها :

— أنت مسافر اليوم الى رومة ، اليس كذلك ؟

— هو ذاك . ولكن ماذا أقول للحبر الأقدس ؟ أأقول له انك عقدت الصلح مع الهوكينوت وان ملك الهوكينوت دخل الى كنيسة نوتردام دون أن يرسم علامة الصليب على وجهه ، وان ملك فرنسا عين عشرة آلاف جندي لحراسة الهوكينوت .

قولي يا سيدتي أهذا الذي تريدين ان أنقله الى قداسته أم أقول له أن الهوكينوت سيظفرون بفرنسا وأنت عاجزة عنهم .

— كلا بل تقول لقداسته ان الأميرال كوليني قد مات .

فارتعش سالفاتي وقال :

— ولكني أرى هذا الأميرال بجانب الملك ، وليس عليه شيء من دلائل الموت

— كم يوم يجب ان تقضي في الطريق لتصل الى رومة ؟

— عشرة أيام .

— إذاً اعلم ان الأميرال سيموت بعد خمسة أيام .

— وأي دليل على ذلك ؟

— رأس الأميرال الذي سأرسله اليك .

وكان هذا الراهب فظ القلب ولكنه لم يتمالك عن الارتعاش لسماعه مثل هذا القول الهائل في كنيسة .

وعادت الملكة الى الحديث فقالت :

— إذاً قل لقداسته ان الاميرال قد قضي عليه وانه لم يبق أحد من الهوكينوت في باريس .

— سيدتي !

— بل قل لم يبق هوكينوتي في فرنسا .

ثم تركته وركعت أمام تمثال المسيح .

ولا ندري إذا كان ركوعها استغفاراً عما ستجنيه من سفك الدماء أم

استنجاداً بالله على ذبح أعداء الدين

وأما الراهب ، فانـه رجع الى موقفـه ، وقد اصفر وجهه حتى بات كالأموات .

ولم ينتبه أحد لمحادثة كاترين مع مندوب البابا غير ابنتها مرغريت فكانت تنظر اليها نظرات تدل على الخوف والقلق .

ثم اغتنمت فرصة فركبت بجانب زوجها هنري ونبهته بكوعها وقالت له : أرأيت أمي تتحدث مع مندوب البابا ؟

فأجابها بصوت منخفض : كلا ، ولكنــك رأيت ، وستخبرينني بما رأيت .

- هو ذاك فاعلم اني لا أرى حوالينا ما تقر له العين فلا تفارقني لحظة مدة هذه الحفلة .

- الملك خائفة ؟

- كلا ، ولكن قل لي ألا تشم شيئاً ؟

- إني أشم رائحة البخور .

- أما أنا فأشم رائحة البارود .

فنظر هنري الى امرأته نظرة قلق ، وقد فهم كل شيء ، ثم أطرق برأسه كأنه يصلي وقال :

- أأستطيع ان أكلمك بجلاء .

إني أرى كل ما بك يدل على الاخلاص لي .. نعم إني بت حذراً مما أراه فهل أستطيع الاعتماد عليك .

- نعم ولهذا قلت لك وأقول لا تفارقني لحظة ما زلت في باريس ..

ثم ابتسمت وقالت : ومتى خرجنا من باريس أطلق لك الحرية في النهار .. وفي الليل أيضاً .

- أتعلمين أيتها الحبيبة إني لم أعد أخاف غير أمر واحد .

— ما هو ؟

— هو اندعي بحبك .

فابتسمت مرغريت وقالت : إذاً تقسم لي على الوفاء مـا زالت في اللوفر ..

— انك ، يا سيدتي من الطف النساء ، وما زلت قد تفضلت بحمايتي فلم أعد أخاف شيئاً ، وسأنام في اللوفر قرير العين ، فاني لم أنم فيه إلى الآن إلا نومة الذئب .

هذا ما كان يتحدث به العروسان ، بينما كان الكاهن يعقد لهما عقد الزفاف .

حتى إذا تم العقد وانتهت الصلاة عاد الجميع إلى اللوفر وهناك بدأت الحفلات الكبرى الباهرة ..

وقد تفرق الناس في القاعات .

فأخذت مرغريت بيد زوجها وذهبت به إلى بنايتها الخاصة في القصر ، فدخلت معه إلى غرفة وقالت له :

— هذه هي غرفتي وقد وضعت فيها سريرين كما ترى ، فهذا سريري وهذا سريرك ، وما زلت نائماً في هذا السرير فأنا المسؤولة عنك .

فاصفر وجه هنري وقال لها :

— بالله قولي ماذا تعلمين ؟ أتظنين انهم يجسرون ..

— لا أعلم غير أمر واحد وهو اني هنا في غرفتي ، ولا يجسر أحـــد على الدخول اليها حتى الملك .

فأطرق هنري برأسه وقال في نفسه : أحق إنها لا تعلم شيئاً ، وإذا كنت آمناً على نفسي بفضلها فكيف آمن على رجالي .

أما مرغريت فانها أخذت بيده وقالت له :

— هلم نعد إلى الحفلة كي لا يفطنوا لغيابنا ولا يكثروا الظنون .

– ومـاذا عساهم يقولون أيتها الحبيبة ، سوى اننا نتناجى بأحاديث الغرام ..

وعاد الاثنان إلى قاعات الحفلة فسمعا الناس يصيحون من الخارج قائلين لتحيى الكنيسة .

فالتفت هنري إلى زوجته وقال :

– وأنا أيضاً اهتف معهم هـذا الهتاف ، فاني دخلت المرة الأولى إلى الكنيسة فكان جزائي فيها امرأة فرنسا بجمالها وذكائها .

ثم نظر اليها محدقا وقال :

– ما عسى أن يكون جزائي حين أدخل اليها المرة الثانية .

فنظرت اليه مرغريت مثل نظرته وقالت :

– من يعلم ؟

ثم قالت في نفسها : من يعلم ، فاما ينال طعنة خنجر ، وإما ينـال عرش فرنسا .

- ٧ -

دهاء الملكة

وكان الشعب قد تجمهر حول أبواب اللوفر ، واشتد صياح المتجمهرين حتى رأى حراس أبواب اللوفر ان يرفعوا الجسور من قبيل الحكمة ، كأنهم خافوا هجوم هذا الشعب الهائج على القصر .

ولولا كثرة الأمطار في ذلك اليوم لما علم أحد إلى أين كان يصل الهياج بذلك الشعب ، ولكن الناس اضطروا إلى الرجوع إلى منازلهم اتقاء لتلك الأمطار .

ومع ذلك فقد بقي نحو ثلاثة آلاف من أشدهم تعصباً وتحمساً ، فظلوا واقفين أمام القصر غير مكترثين للزوابع والأمطار ، وهم يصيحون لتحيى الكنيسة وليمت الهوكينوت .

وكان الهوكينوت في اللوفر يسمعون هذا الصياح ويقلقون ، ولكن الذي كان يطمئن نفوسهم انهم كانوا في ضيافة ملك فرنسا .

ومثل هذا الملك العظيم ، وهو أعظم ملوك النصرانية يستحيل أن يخل بواجبات الضيافة .

حتى انهم كانوا مصممين على الدفاع عن الملك ، إذ كان كثيرون منهم يعتقدون ان دي كيز وحده المحرك لهذه الفتن ، فانه قد يدفعه الغرور بما رآه ، من تحمس الشعب وهتافه له ، فيهاجم الملك نفسه بغتة لانتزاع

عرشه ...

وعلى ذلك فقد كانوا يعتقدون ان الملك مثال السلم ، وكان لهم ثقة لا حد لها بضيافته ، فيخافون من هياج الشعب على الملك أكثر من خوفهم منه على نفوسهم .

وأما الملكة كاترين فانها دنت من ابنها الملك فأخذت بيده وخرجت بـه إلى شرفة تطل على الجماهير وقالت له :

– يجب يا بني ان تظهر لشعبك .

فلما برز الملك من المشرف للنـاس المتجمهرين ، صاحوا جميعهم بصوت واحد قائلين :

– ليحيى قائدنا العام .. ليحيى الدوق دي كيز . ليمت الهوكينوت .

فذعر الملك لهذه الأصوات وقال لأمه . ما هذا ؟

قالت : إنك تسمع ما يقولونه يا بني ، فاذا تأخرت عن العمل ، عمـل الدوق دي كيز .

فـــارتعش الملك من الغضب والذعر واتقدت عيناه بوميض نار وتراجع مضطرباً إلى القاعة التي كان فيها ، فرأى دي كيز وكوليني يسيران ويتحدثان بأحاديث الحملة على دوق البا .

فنظر اليهما الملك نظرة المجانين ، ثم هاج به ذلك الداء العصبي فجأة ، فجعل يضحك ضحكاً عالياً شأنه كلما بدأت النوبة العصبية .

وأما كاترين فانها تظاهرت انها لم تسمع ضحكه ، ولم تشعر ببدء نوبتـه فانصرفت ببطء ، وأخذت تسير في القاعات فتنحني لها الرؤوس احترامـاً وخوفاً وهي باسمة طلقة المحيا .

وكانت كلما مرت بامرأة من نساء بلاطهـا قالت لها كلمة واستمرت في مسيرها .

إلى أن لقيت جميع نسائها ، فعادت إلى غرفتهـــا ، تصحبها اليس

دي ليكس .

وهناك جلست في كرسيها وقالت لأليس .

ـ انك لا تبرحين اللوفر اليوم يا ابنتي بل لا تفارقينني .

ـ ولكني يا سيدتي ..

ـ نعم .. اني عارفة بما تريدين ان تقوليه فانك واعدت ماريلياك على الاجتماع به في الساعة الثامنة من هذا المساء .

فنظرت اليس إلى الملكة نظرة الانذهال .

فهزت الملكة كتفيها وقالت :

ـ أتحسبين اني لا أعلم كل شيء يا اليس ، ولكن إذا لم يكن بـد من فراقنا فسأخبرك الحقيقة بتمامها .. وهي أن لورا كانت تخبرني بكل مـا يحدث عندك ..

ان هذه المرأة العجوز التي تثقين بها كل الثقة كانت ترسل الي تقرير كل يوم عما تفعلين ، وعن كل ما يجري في منزلك .

فاحذري يا اليس في المستقبل واحسني اختيار خدمك .

فذعرت اليس ذعراً شديداً ولم تجب بحرف .

وعادت الملكة الى الحديث فقالت :

ـ إنها خائنة ، يا اليس ، فاطرديها منذ الغد ، ولنعد الآن إلى مـا كنا فيه .

فقد قلت لك اني عارفة بانك مواعدة ماريلياك على اللقاء في الساعـة الثامنة وانه سيبوح لك بسر لم يعد يطيق كتمانه .

أما هذا السر فسأخبرك به أنا وهو انه يريد أن يسير بك الى كنيسة سانت جرمين ، أتدرين لماذا يا اليس ؟

ـ كلا يا سيدتي ..

ـ اني كنت أحسبك أشد تبصراً فاعلمي إذاً اني أعددت كل المعدات

لزواجك بالكونت هذه الليلة .

وكانت الملكة تتكلم وهي تتكلف سلامة النيــة وحسن الطوية ، بحيث يتعذر معرفة ما وراء نياتها من مقاصد الشر .

وفوق ذلك فكيف يخطر لأليس انها كاذبة فيما تقول وهي قد وعدتهـا باتمام عقد هذا الزواج .

وقد احمر وجهها في البدء ، ثم اصفر وخفق قلبها خفوقاً شديداً فقالت والدمع يجول في عينيها .

– وذلك الكتاب يا سيدتي ؟

– الكتاب .. ماذا تعنين .

فاضطربت اليس اضطراب رجاء وقالت :

– لقد وعدتني يا سيدتي أن يرد الكتاب الي هذه الليلة .

– تريدين أن تقولي ان بانيكارولا يجب أن يرده اليك الليلة لأني أعطيته ذلك الكتاب ولأنه صفح عنك .

فاعلمي الآن انك في الساعة الحادية عشرة ترين المركيز بانيكارولا ، وعند انتصاف الليل يأتي ماريلياك وأنا أتولى إخباره .

فشعرت اليس كأنها أصيبت بدوار ، وخامر قلبها الشك في قصد الملكة من جمعها بالراهب وماريلياك في محل واحد ، وفي ساعة واحدة .

ثم قالت في نفسها :

ترى أعلم الراهب بهذا الزواج وبلغ من كرم أخلاقه انه يدعها تتزوج من تحبه وتعيش معه سعيدة .

أما الملكة فانها ابتسمت وقالت لها :

– كيف ذلك يا اليس ألا تشكرينني .

– وأسفاه .. يا سيدتي ، إنك ترين اضطرابي فـاني لا أعلم ، الأسر أم أخاف .

— ومما تخافين يا ابنتي .. نعم انك تخافين أن يجتمع العاشقان ، وأن تبدر بادرة من بانيكارولا أمام ماريلياك .. اطمئني يا اليس فقد اتخذت ما يجب من الاحتياط وهما لا يجتمعان .

— كيف ذلك يا سيدتي ، اتدانيت إلى ..

— اني أحب أن أراك سعيدة مع الكونت .

— سيدتي ان حياتي لا تكفي لاظهار امتناني .

— أبقي حياتك لك يا اليس فاني أريد أن تعيشي سعيدة ..

ولكن ليس هذا كل ما أبتغيه يا ابنتي ، فقد كلمتك بحرية ، وأريد أن تكلميني بمثلها ..

— تفضلي يا سيدتي بسؤالي عما تريدين ، فلا تخرج كلمة من فمي الا وهي صادرة من قلبي .

— ماذا عزمت أن تصنعي بعد الزواج .. أتقيمين مع زوجك في باريس أم تبرحانها ..

فحسبت اليس بعد هـــذا السؤال أنها عرفت سر الملكة وأدركت كل قصدها ، فانها كانت تعلم ان الكونت ماريلياك ابن الملكة ، وقد علمت هذا السر يوم طردتها ملكة النافار .

ولكنها بالغت بكتمان هذا السر الهائل حتى عن ماريليــاك نفسه ، وهي تعلم انه يعرفه أيضاً .

وذلك لأنها كانت واثقة أن الملكة إذا علمت إفشاء هذا السر قتلت إبنها لا محالة فكانت تقول في نفسها :

إن الملكة تعلم ان ماريلياك ولدهـــا ، وتعلم اني لا أستطيع أن أعيش في باريس ، كي لا يفتضح أمري ، فهي واثقة ، اني أريد ابعــاد ماريلياك عن باريس ، ولذلك أرادت تزويجي به وجعلت هذا الزواج سراً في منتصف الليل .

هذا ما جال في فكر الجاسوسة التي تعودت أن تقرأ افكار خصومها بسرعة التصور ..

وحسبت ان الملكة ستكون على ذلك حليفة لها في ابعاد ماريلياك من باريس ، فقالت لها :

– هو ذاك يا سيدتي فقد كنت أريد مخابرة ماريلياك في هذه الشؤون ولكنني كنت أنتظر اوامر جلالتك .

– لا حاجة إلى تلقي اوامري فاني احب ان تعملي من عند نفسك فقولي بماذا تشيرين على ماريلياك .

– اشير عليه بمبارحة باريس إلى الزواج .

– أحق ما تقولين ؟ اتريدين مفارقتي .

– اسأل جلالتك العفو فانها تعرف نياتي في هذا الشأن .

– إذاً لا بد من السفر ، ولكن متى تسافرين .

– اسافر الليلة إذا استطعت يا سيدتي .

فارتعشت كاترين إذ لم تكن تشك بصدق اليس ، ولبثت مطرقة تفكر ، وربما كانت تفتكر تلك الساعة في العفو عن ولدها ، إذ لم يعد فائدة من قتله .

ثم التفتت إلى اليس وقالت لها :

– في هذه الليلة ، عند انتصاف الليل تنتظركما مركبة ، عند باب الكنيسة وسأصدر الأوامر إلى حراس باب بيسي كي تستطيع مركبتكما اجتياز باريس .

وعندما تبرحانها ، تذهبان تواً إلى ليون ، فلا تتوقفان قبل الوصول اليها .

ثم تذهبان إلى إيطاليا ، فتقيمان في فلورنسا ، وتنتظران تعلياتي الأخيرة فيها .

أتعدينني ان تفعلي ما قلته لك ؟

فركعت اليس امامها وقالت لها : بل اقسم لك يا سيدتي .

– حسناً ، وإذا خطر لزوجك يوماً ان يعود إلى فرنسا ، اتعدينني ان تثنيه عن عزمه ، واذا أصر على الحضور اتعدينني ان تخبريني من قبل .

– اقسم لك يا سيدتي اننا لا نعود إلى فرنسا .

– إذاً انهضي يا ابنتي فانك ستجدين في المركبة هدية الزفاف وعندما تصلين إلى فلورنسا تصل اليك حجة قصر لي فيها .

لا تشكريني ، يا اليس ، فقد خدمتني بوفاء يستحق فوق هذه المكافأة .

فبكت اليس وقالت : اني لقيت كثيراً من العناء يا سيدتي في باريس ، حتى اني لو كنت فقيرة معدمة لفضلت مبارحتها ، أما الآن وقد قررت مبارحتها مع من أحب ، فلا أجد هناء بعد هذا الهناء ، حتى اني خفت هذه السعادة وخشيت أن أكون حالمة .

– اطمئني يا ابنتي واصغي الي ، فإني أريد أن أقول لك أموراً خطيرة أيضاً ، وهي خير دليل على ان ثقتي بك لا تقف عند حد .

– إن أسرار جلالتك مقدسة عندي .

– نعم فأنت من خير أهل الكتمان ، ولكن ما أقوله لك هذه المرة لا يختص باسرار السياسة والدين ولولا ثقتي بك المتناهية لما بحت لك بهذه الأسرار الخطيرة .

ثم نظرت اليها محدقة وقالت :

– إني ارتكبت هفوة في حياتي يا اليس ، أي هفوة بصفتي إمرأة ، وأما بصفتي ملكة فان حياتي فيها فوق الهفوات .

ولكي أزيدك وضوحا ودلالة على حسن ثقتي بك أخبرك يا اليس أن شارل وهنري وفرنسوا ومرغريت ليسوا وحدهم أولادي .

فلم تظهر اليس شيئاً من علائم الدهشة كأنها احتفظت بتلك الدهشة لما ستعلمه من تتمة الحديث ..

أما كاترين فانها حدقت بها كأنها تريد أن تخترق بنظراتها أعماق نفسها وقالت :

– لي أيضاً ولد خامس ، وهذا الولد بعيد عن درجات العرش .

فقالت اليس بانذهال شديد كيف ذلك يا سيدتي هل أبعد هذا الولد عن جلالتك .

– ليس هذا يا اليس ، فان هذا الولد ولدي ، ولكنه ليس ولد الملك ..

فاستجمعت اليس كل قواها حتى تمكنت من إظهار الانذهال العظيم وقالت :

– كيف هذا يا سيدتي ، اقتدانى جلالتك إلى الاباحة لمثلي بمثل هذا السر الهائل .

– نعم .. انه سر هائل كما قلت يا اليس فاذا اشتهر فضحت كاترين العظيمة أقبح افتضاح وجاءني هذا الولد يطالبني بحقوقه ، اليس هذا الذي تعنيه يا اليس ..

– كيف أجسر يا سيدتي على ان يخطر لي هذا الخاطر .

فوقفت كاترين وأخذت يد الجاسوسة بين يديها كأنها تريد أن تسبر غور أفكارها بالنظر واللمس فقالت :

– إن هذا الولد حي يا اليس وخطره يتهدد مملكتك .

وستعرفين الآن لماذا كنت أعتبر الكونت ماريلياك من أعدائي ..

ولماذا كنت أبالغ في مراقبته ، حتى اني جئت به إلى البلاط كي أراقبه بنفسي ..

فارتعدت اليس واصفر وجهها ، وكاترين تراقب اضطرابها واصفرارها .

فقالت لها يوجد يا اليس رجل يكون أعظم شاهد على هفوتي ،

وهو ولدي .

أما هذا الولد فإن ماريلياك يعرفه .

– لا صحة لذلك يا سيدتي .

– كيف تنكرين صحته .. الملك تعلمين شيئاً من هذا السر ؟

– كلا .. كلا يا سيدتي ، ولكني أقسم لك ان ماريلياك لا يعرف شيئاً ..

– كيف عرفت ذلك ..

– لو كان ماريلياك عالماً بشيء من هذا لعلمته أنا أيضاً ، فإنه لا يكتم عني أمراً من أموره وأمور سواه .

وكان جواب اليس مقنعاً مفحماً ، حتى ان كاترين بركت يدها وعادت إلى كرسيها فتممنت هنيهة وغيرت خطتها فقالت :

– نعم ... إني كنت أكره الكونت دي ماريلياك ، ولكني لا أكرهه الآن .

ولا تحسبي يا اليس اني عفوت عنه من أجلك ، بل لأني وثقت انه لم يقل كلمة عما يعلمه من ذلك السر الهائل ، ثم لأني اطمأنيت حين وثقت بأنك ستبرحين به باريس .

فاطمأنت اليس وقالت في نفسها :

لقد ظهرت الحقيقة الآن فان كاترين تحسب ان ديودات يعرف ولدها وتعهد إلي أن أذهب به خارج باريس ، ولكن ماذا يكون لو علمت أن ديودات نفسه ولدها .

ثم عادت كاترين إلى الحديث فقالت :

– واأسفاه يا ابنتي إن من يبحث في أعماق نفسي يعلم حقيقة شقائي فان هذا الولد الذي أخافه لأنه يهدد شرفي ولا أعرفه ، أبذل كل مرتخص وغال كي أراه ولو مرة ، وأنت لا تقدرين عواطف الأمهات قدرها يا اليس .

فاضطربت اليس وقالت في نفسها :
لقد أصابت فيا تقول فاني سأسافر واتخلى عن ولدي ..

وقالت كاترين : لقد كرت الشهور وتوالت الأعوام وانا حزينة قانطـة أبحث عن هذا الولد الذي أخافه فلا أجده .. اني أحبه يا اليس حب عبادة دون أن أعرفه ، وما تمنيت إلا أن أراه ولو مرة قبل موتي فأباركه وأجعله من أسعد البشر ، ولكني أبحث عنه واأسفاه فلا أجد له أثراً .

ثم بكت ولا ندري من أين اتت بهذه الدموع وقالت :
– أيوجد شقاء أشد من شقاء أم تبحث عن ولدها الذي تحبه بالسر دون أن تجد هذا الولد فتقول له كلمة حنو وتتعزى به عن هذا الفراق ..
إن هذا شديد لا يطاق ، ومع ذلك فلا يزال لي بقية رجاء لأني معتمدة عليك يا اليس .
– تعتمدين علي أنا يا سيدتي ..
– نعم . فاني واثقة من ان ماريلياك يعرف إسم ولدي .
– إذاً ..

– إذاً ، أريد منك حين تصلين مع زوجك إلى فلورنسا ان تنتزعي منه هذا السر ، وهذا آخر ما أسألك إياه يا اليس فان ملكتك تموت وهي تباركك لأنها ستجد ولدها بفضلك .

فاصفر وجه اليس وخدعت ببكاء كاترين ، فكان مثلها في تلك الساعة مثل المبارز فقد سلاحه .
أما كاترين فإنها تمكنت بدهائهـا ، وتكلف اليأس وذرف الدموع من إغواء الجاسوسة ، فأغمضت عينيها وقالت :
– رباه من يعلم إذا كنت أجد هذا الولد الذي أبحث عنه عبثاً .
فصاحت اليس قائلة :
– سيدتي اني واثقة من انك ستجدينه .

– الملك تريدين تمزيقي ، يا اليس ... ألم تقولي إنك لا تعلمين شيئاً .
– سيدتي ، أقسم لك انك سترين ولدك .
– واأسفاه ، أأنت واثقة مما تقولين ؟
– كل الثقة .

فأطبقت كاترين عينيها إخفاء لاضطرابها وغضبها وقالت في نفسها .
لقد اعترفت الآن أيتها الشقية .. نعم لقد كان اعدائي ثلاثة ، وهم ملكة النافار وماريلياك واليس ، وقد ماتت ملكة النافار وجاء دور اليس ... وولدي .

ثم فتحت عينيها ونهضت فعانقت اليس وقالت :
– إني واثقة بقولك يا ابنتي ولا ريب عندي انك ستجدين ولدي .. والآن الى اللقاء ، فسنجتمع في المساء ، وستبقين في اللوفر إلى أن ارسل من يأتي بك .
ثم خرجت وقد تركت اليس في الغرفة يكاد الفرح يقتلها ..
فبكت سروراً وقالت : ديودات ... لقد بسم لنا الدهر ومضت أيام الشقاء ..

- ٨ -

نساء الملكة

مضى اليوم الأول من حفلة زواج الملك هنري دي نافار ، وكان السرور عاماً شاملاً ، فلم يحدث في خلاله ما يكدر صفو المحتفلين .

وقد كان الهدوء سائداً في الشوارع ، فامتنع ذلك الزحام وبطل الوعيد .

وجعل أعيان الكاثوليك في اللوفر يظهرون كل تودد ومجاملة لأعدائهم الهوكينوت ، كأنما قد صدر اليهم امر سري يقضي عليهم بهذا التلطف .

ففي الساعة العاشرة من تلك الليلة كانت كنيسة سانت جرمين مظلمة لا يرى اليها من الخارج أثراً للنور .

ومع ذلك فقد كان ينبعث من هيكلها نور ضعيف .

ولو تيسر لأحد الدخول إلى الهيكل في تلك الساعة لرأى امراً غريباً .

ولكن الدخول كان متعذراً إلى تلك الكنيسة .. فقد كانت مقفلة الأبواب .

وفوق هذا فقد كان عند كل باب من أبوابها ثلاثة او أربعة من الحراس مختبئين لا تراهم العيون .

وذلك انهم كانوا واقفين وراء تلك الأبواب بأمر خاص ، فلا يفتحونها إلا لمن يطرقها طرقاً معيناً متفقاً عليه من قبل .

فمن طرق الباب بهذا الشكل الخاص فتح الحراس له فدخل دون ان

يعترضوه او يحاولوا ان يعرفوه .

وكان من واجبات هؤلاء الحراس ان يقبضوا على كل من يحـاول الدخول دون ان يقرع الباب بالطريقة السرية

وكان يقف بعيداً عنهم عند مدخل الكنيسة امرأتان تستقبلان كل داخل فتدخلان به إلى الهيكل .

اما هذا الهيكل الذي ذكرناه فقد كان فيه خمسون فتاة ..

وكن جالسات بشكل نصف دائرة على خمس درجـــات من درجات الهيكل ، وهن يتحدثن بأصوات منخفضة ، فيحدث من اصواتهن لغط يشبه لغط المصلين .

وكان يعترض هذه الأصوات من حين إلى حين ضحك وقهقهة .

وكان جميع هؤلاء الفتيات في مقتبل الشباب فإن أكبرهن لم تكن تتجاوز عشرين عاماً .

وكلهن جميلات .. فكان يزيدهن تأنقهن بالملابس جمالاً على جمال ..

بحيث كان يجتمع تحت قبة ذلك المذبح الجمال كله ، على اختلاف أنواعه ا.

ولكن .. لم يكن على وجوه أولئك الفتيـــات ، شيء من علائـم الطهر والحياء التي تزدان بها وجوه العذارى ، بل كانت عيونهن تدل على الجرأة والقحة .

وكن يتحدثن كأنهن في ملعب تمثيل ، غير انهن كن يحترمن ذلك المكان المقدس حين يندفعن بالضحك ، فينقطعن عنه فجأة ويرجعن إلى ما كن عليه من الكلام همساً .

وكانت كل فتاة متقلدة خنجراً في حزامها .

وكأن هذه الخناجر كلها كانت مصنوعة في مصنع واحد ، فقـد كانت أغمادها جميعها مغطاة بالمخمل الأسود .

ولم تكن من خناجر الزينة والتبهرج ، بل كانت سلاحاً قاتلاً يشبه بمضائه اسلحة اللصوص

وكانت قبضة كل خنجر مصنوعة على هيئة صليب ، وقد زينت بياقوتة لماعة ، فكانت هذه اليواقيت تبرق في تلك الكنيسة وتنفذ منها حين تنعكس عليها أنوار المصابيح أشعة حمراء .

فلما دقت الساعة العاشرة خفتت الأصوات فجأة وساد الصمت في ذلك الهيكل ، ثم التفتت الفتيات إذ سمعن صوت مرور وصحن بصوت واحد : هوذا الملكة !

أما الملكة كاترين ، فانها تقدمت ببطء ، حتى وصلت إلى موضع الفتيات .

وكانت كل ملابسها سوداء وقد وضعت على وجهها برقع الحداد ووضعت على رأسها تاجاً ملكياً من الذهب .

ثم سارت بملء الجلال إلى المذبح وركعت

فركع جميع الفتيات ركوعها .

وبعد ذلك نهضت وصعدت ثلاث درجات من درجات المذبح وأزاحت النقاب عن وجهها وجعلت تجيل نظراتها النافذة بين الحضور .

فكان الفتيات ينظرن اليها نظرات خوف واحترام ، وقد كبرت تلك الملكة في عيونهن .

في حين ان وجهها في تلك الساعة كان يشبه وجوه الأموات لاصفراره ، ولم تكن تبدو علائم الحياة إلا بين عينيها .

وكانت كاترين تشير الى الفتيات إشارات بطيئة سرية ، وقد وقفت موقف كاهن يصلي صلاة الأموات وسرت لما رأته من خوف الفتيات وعلمت ما لها عليهن من النفوذ والتأثير .

فقد كان نساء هذه الملكة يخضعن لها كل الخضوع ويحترمنها كما يحترم

المؤمن معبوده .

على انهن قد جمعن كل صفات الشر ، إذ لم يكن يدخل في خدمتها غير كل بارعة في التجسس والاحتيال .

وكانت كاترين تمتز بهن وتدعونهن جيشها ، إذ كانت تستخدم جمالهن ودهاءهن للفتك بمن تشاء من أعدائها .

والغريب في امرهن انهن كن شديدات التمسك بالدين على اتيانهن كل يوم ما يحرمه الشرف والدين من الفظائع ، وكان لهن كاهن واحد يعرفهن ، وهو كاهن الملكة ، فتعرف منه كاترين كل أسرار جيشها .

أما كاترين فانها نظرت اليهن تلك النظرات الثاقبة وقالت :

— ايتها الفتيات لقد دنت الساعة التي تنقذن فيها المملكة وتطردن شيطانها ، ويكون لكن الفخر المجيد .

اني أردت عقد الصلح مع الهوكينوت فعاقبني الله عن ذلك بأنه كاد يفجعني بكن وانتن كل من أحببته في هذا الوجود .

فذعرت الفتيات وجعلن ينظرن اليها نظرات الخوف والاضطراب ، وعادت كاترين إلى الحديث فقالت :

— نعم ، انه كاد يفجعني بكم ، لأنكم قوتي التي أقاتل بها أعداء الدين ، وقد علم أولئك الأعداء انكم سيف النقمة المسلول على رقابهم ، فكادوا لكم كيداً عظيماً ، وعولوا على خنقكم جميعاً في ليلة واحدة .

نعم . فإنهم اعدوا رسائل هذا القتل الذريع ، فعينوا خمسين جلاداً من الهوكينوت وقرروا أن يقتلوا في ليلة الأحد نسائي الأمينات الوفيات وهن خمسون .

فوضعت الفتيات أيديهن على خناجرهن وقد برقت أعينهن بأشعة غضب هائل أزال جمالهن الفضاح وأحاله إلى قبح الوحوش المفترسة وجعلن يشتمن شتائم لا يقولها غير من ساءت تربيته من الرجال .

ولكن كاترين أشارت إشارة فسكن الهياج وسادت السكينة وأصغين كلهن لما تريد أن تقوله الملكة .

وعادت كاترين إلى الحديث فقالت :

— نعم .. إن الله أراد معاقبتي لأني أردت مسالمة الهوكينوت ، وقد كان عقابه شديداً هائلاً ، فإن التي خانتني كانت إحدى نسائي التي طالما وثقت بها كما أثق بنفسي .

وقد كان بين الهوكينوت رجل أعطف عليه بعض العطف ، وكان بينكم فتاة اميل اليها كل الميل .

إن تلك الفتاة هي التي خانتني وأرادت قتلكم ..

وذلك الرجل هو الذي دبر تلك المكيدة وأعد رسائل المذبحة ولو نجحت لكنت الآن وحدي لا ناصر لي ولا معين .

وكانت الملكة تتكلم بصوت تدل نبراته على الحزن لا على الغضب ، وقد جمدت دماء الفتيات في عروقهن وجعلت كل منهن تسائل نفسها فتقول ترى من عسى أن تكون هذه الخائنة .

وقد صمتت كاترين هنيهة ثم قالت :

— إن هذه الفتاة التي وثقت بها ، وهذه الخائنة التي أرادت قتلكن جميعاً وهذه السافلة التي جازتني جزاء سنمار تدعى اليس دي ليكس .

فصاحت الفتيات بصوت واحد .. النافارية الحسناء .

ثم ثارت عواصف غضبهن فجردن الخنـــاجر وعدن إلى الانذار والشتم القبيح ، وجعلن يهززن تلك الخناجر المجردة كأنما اليس قد مثلت لهن .

وصبرت كاترين إلى ان هدأ ثائر هذا الهياج فقالت :

وأما الرجل الذي دبر هذه المؤامرة ، وأراد ذبحكن ذبح الأغنام فهـو ذلك الهوكينوتي المنافق المحتال المدعو الكونت ماريلياك .

صبراً يا بناتي ولا تضطربن فاني بمثابة امكن ، وأنا ساهرة عليكن واسمعن

ما عزمت عليه .

إنكن حين تخرجن من هنا تذهبن جميعكن إلى قصري الجديد وتلبثن فيه إلى الأحد .

وحذار ان يخطر لاحداكن مبارحة القصر ، فانها تقتل قتلاً ذريعــاً دون اشفاق .

على إنكن ستربن ماذا أصنع حين تكون ديانتنا مهددة بمثل هذه الأخطار وحين يجب إنقاذ بناتي الأمينات .

وليس هذا كل ما أريد قوله فان اليس دي ليكس والكونت ماريلياك سيكونان هنا بعد ساعة وسأسلمها لكن .

ولكن .. سيحضر ايضاً راهب من خير رجال الله عرف هذه الخيانة ، وهو سيتولى عقاب الخائنين ، فاذا عاقبهما هذا الكاهن الجليل فكأنمــا الله قد عاقبهما .

إن هذا الراهب هو بانيكارولا وهو سيضربها الضربة القاضية .

أمــا أنتن ، فتلبثن وراء الباب الكبير ، حين التنفيذ ، بحيث لا يراكن أحد .

ولكن إذا رجفت يد الراهب ، او دافع الموكينوتي واليس أشير لكن إشارة فتسرعن بالهجوم وتقتلن الخائنين شر قتل .

أما هذه العلامة فهي اني أرفع بيدي هذا الخنجر وأقول : « هذا مــا يريده الله » .

فرفعت الفتيات خناجرهن كما فعلت الملكة وصحن جميعهن بصوت واحد « هذا ما يريده الله » .

فرفعت كاترين عينيها إلى السماء وقالت :

— أيها الرب العلي القادر هوذا سلاحك بايدينا لمعاقبة أعداء الدين فبارك اللهم هذه الخناجر فقد جعلتها لهذا الغرض على هيئة الصليب المقدس .

فأطرقت الفتيات برؤوسهن ، ونزلت الملكة عن درجات الهيكـل ، فأطفأت المصابيح وتوارت في ظلمات تلك الكنيسة ، فصعـدت إلى لوج وأقامت فيه .

وأما الفتيات فإنهن ذهبن إلى المكان الذي أمرتهن كاترين ان يذهبن اليـه فجردن خناجرهن وأقمن ينتظرن فيه .

- ٩ -

الراهب

بينما كانت الملكة جالسة في لوجها وهي تائهة في مهامة التفكـير لا تعي شيئاً دخل رجل إلى ذلك اللوج فلم تنتبه لدخوله ولم تلتفت .

وقد دنا الرجل منها وقال : سيدتي ..

فلم تجب ولم تلتفت .

فلمس كتفها وقال : كاترين .

فالتفتت عند ذلك وقالت : اعددت كل شيء يا رينيه .

فضم رينيه الفلكي يديه شأن المتوسل وقال :

— انه حكم هائل يا سيدتي ، الا تعفين عنه ..

رحماك يا ملكتي واشفقي على ولدي ، بل اشفقي علي ، انا الذي احببتك إلى ان اسفك دمي في سبيلك .

وبعد فماذا تضرك حياته ما زال بعيداً عنك ، لا يعود إلى باريس .

فوقفت كاترين وقالت :

– اقسم بالله وهو يسمعنا يا رينيه اني كنت اريد انقـاذه اليوم ، ولكني استنطقت اليس وعلمت الحقيقة الهائلة .

إن ديودات لا يعلم فقط انه ولدي ، ولكنه يفتخر بذالك ، فان اليس تعلم انه ولدي وكيف عرفت هذا إلا منه ، بل من يعلم ما يصنع الاثنان بهذا السر الرهيب إذا تركتهما يهربان .

كلا يا رينيه ان الشفقة في غير موضعها ضعف ، ولم اجد سبيلاً للرحمة في هذا الموقف الخطير .

وبعد فأنت قضيت عليه قبلي ، ألم تره ميتاً وقد خرق صدره بخنجر ؟

الم يظهر لك خياله على هذا الشكل هناك في البرج ؟

الم يكن ذلك انذاراً له من الله ؟

وإذا كان الله قد قضى عليه يا رينيه ، فـأية حيلة بقيت لنـا في إنقاذه ؟

– لم يكن ذلك قضاء الله يا سيدتي ، ولكنه الخوف مثل لي هـذا الخيال ..

رحماك يا سيدتي ، إصفحي عنه وانا اسافر معهما واراقبهما .

– كفى يا رينيه واسكت ، فانهم يطرقون الباب بالعلامة المتفق عليها .

– كلا بل هو صوت الله يلعننا .

– قلت لك اذهب وافتح الباب .

فركع رينيه امام الملكة وقال :

– كاترين انه من لحمك ودمك اتسفكين دمك بيدك ، الم يبق اثر للرحمة في قلبك .

فدنت الملكة من رينيه وقبضت على ذراعه بيد من حديد ، كأنما اصابتها نوبة عصبية ثم انهضته وقالت :

ـ ويح لك ايها الشقي ، اتريد ان اضحي بشرفي ومجدي ومملكتي وسلطاني إجابة لصوت قلبك الضعيف .

إحذر لنفسك فانك متهم بالسحر والقتل وانك لم تبق حياً إلا من فضلي ، فاذا تخليت لحظة عنك وردت عليك الشكايات من كل صوب فقبض عليك وحوكمت وعذبت وقتلت .

فلم يجبها رينيه بشيء ، بل رفع عينيه إلى السماء وقد اغرورقت عيناه بالدمع .

فأمرته قائلة : إذهب وافتح الباب .

فامتثل مكرهاً وذهب إلى الباب الذي دلته عليه الملكة وفتحه .

فظهر له راهب .

وكان هذا الراهب قد ستر عينيه بقبعته .

فأزاح الستر ونظر إلى رينيه فذعر لمنظره المضطرب وسأله قائلاً : إلى اين يجب ان اذهب .

فأشار رينيه بيده إلى حيث كانت الملكة وقال له :

ـ اذهب اليها ايها الجلاد فانها تنتظرك .

فارتعش الراهب إرتعاشاً شديداً لما سمع .

وخرج رينيه من تلك الغرفة وهو يشبه المجانين لما تولاه من اليأس .

ولم يكن يوجد نور في الغرفة فلم يستطع الراهب ان يتبين وجهه .

ولكنه سمع منه تنهداً عميقاً اخفاه ذلك الرعد القاصف .

ثم ابرقت السماء اثر ذلك الرعد ، فرأى الراهب ذلك المنكود خارجاً من الغرفة وقد قبض بيده على شعره كأنه يريد ان ينتزعه من اليأس .

فأقفل الراهب عندئذ الباب ومشى الى الملكة .

وكانت الملكة قد رأته فلم تتقدم للقائه . .

حتى إذا دنا منها قالت له :

- يسرني أيها المركيز ان أراك أميناً على المواعيد فأهلاً بك .

فالتفت الراهب إلى جهة الباب الذي خرج منه رينيه وقال في نفسه : لماذا دعاني هذا الرجل جلاداً .

أما الملكة فقد قالت له :

- لقد وفيت بوعدك يا مركيز فإن باريس ثائرة هائجة بفضلك بعد ان كشفت الرماد عن نارها المخبوءة .

وأنا قد وفيت بوعدي أيضاً ، أيها الأب المحترم ، فسترى بعد هنيهة من تحبها .

فارتعدت فرائص الراهب وقال : اليس !

- نعم فهي لك فخذها أيها المركيز إني منحتك إياها . وأما خصمك فيها فقد أذنت لك بقتله وهذا هو السلاح .

ثم دفعت للراهب ورقة مطوية .

فأخذها الراهب بيد ترتجف وقال : « مكتوب اليس » ...

لقد فهمت الآن كل قصدك فأنت عظيمة هائلة ... نعم فلم يخطر لي هذا الانتقام الذريع في بال ... نعم إنه يحبها بل هو يعبدها وهذا الكتاب ينفذ كالسهم إلى قلبه ويكون أسرع في قتله من رصاص البنادق .

أشكرك يا سيدتي كل الشكر فقد مهدت لي خير سبيل للانتقام .

- إذاً نحن متفقان وستطلع ماريلياك على الكتاب .

- نعم ..

- وستحمله على قراءته .

- دون شك .

- وعندها تذهب باليس فتعزيها إذ تكون في حاجة إلى العزاء ... وهي ستصدق كل ما تقوله لها فقد سبرت غور نفسها فأيقنت أنها لا تكرهك ، ويوجد

على الباب مركبة تنتظرك ، أرأيتها يا مركيز ؟

— نعم ولكن هو ... ماريلياك أيحضر إلى هنا .

— دون شك .

— أيحضر في وقت حضورها ... ولماذا يا سيدتي ؟

— إنه سيحضر وهذا كل ما تفيد معرفته ، فإذا رأيت انه يريد ان يحتفظ باليس بعد ان يقرأ كتاب جريمتها وبعد ان يعلم انها كانت أماً وهو يعتقد انها نقية عذراء وإذا رضي ان يتزوجها وهي ملوثة بعار الخيانة ، وإذا تغلب الحب على شرفه فنسي فجورها كما تغلب الحب على قلبك فنسيت خيانتها .

— سيدتي ، سيدتي !

— يجب على العاقل أن يتوقع كل أمر ،فقل لي ماذا تصنع إذا أراد ماريلياك بعد كل ذلك ان يحتفظ باليس ويزاحمك فيها .

فلم يجب الراهب ولكنه أزاح وشاحه العريض فظهرت من تحته تلك الملابس البديعة التي كان يلبسها وهو مركيز .

وظهر في حزامه خنجر هائل ، فاستله الراهب وقال : هذا هو الحكم بيني وبينه .

- ١٠ -

الخطيبان

ثم أعاد الراهب وشاحه كما كان وركع فجعلت الملكة تتفرس في وجهه هنيهة ثم مشت إلى الباب الذي دخل منه .

وكان الليل قد انتصف في تلك الساعة ، فسمعت الملكة صوت مركبة قادمة .

وقد وقفت هذه المركبة عند باب الكنيسة ونزل منها ثلاث نساء .

وكانت إحدى هذه النساء اليس دي ليكس وهي مصفرة الوجه ، مرتدية بملابس الزفاف البيضاء .

فتوقفت هنيهة عن الدخول كأنها تتردد ثم دخلت .

وأما المرأتان اللتان كانتا معها فقد عادتا الى المركبة فسارت بهما .

ودخلت الجاسوسة الى الكنيسة فوقفت حائرة مضطربة ، إذ لم يكن يوجد فيها غير أربعة مصابيح ، تبعث نوراً ضعيفاً من آخر الكنيسة في الهيكل .

ولكنها شعرت أن يداً أمسكت يدها ، وسمعت صوتاً يهمس في أذنها قائلاً :

- أأتيت يا ابنتي ؟

فعرفت اليس صوت الملكة وزالت أسباب اضطرابها .

فقالت لها الملكة . أنت تبحثين عنه ، أليس كذلك ؟ صبراً يا ابنتي إنه سيحضر .

– لا أعلم يا سيدتي كيف أعرب لجلالتك عن امتناني

– أرأيت المركبة التي ستسافران فيها ؟

– لم أنتبه لذلك يا سيدتي . ولكني لا أرى الكاهن . ماذا ، ألا يوجد في هذه الكنيسة ؟

– قلت لك اصبري يا ابنتي ، ولكن ما لي أراك مضطربة ؟

– لهذه الأصوات التي أسمعها من داخل الكنيسة .

– إنها صوت الرياح تعبث بالأبواب يا اليس .

– سيدتي هوذا الليل قد انتصف .

– نعم وهوذا خطيبك قد حضر .

وإنما قالت الملكة ذلك لأنها سمعت طرق الباب الخارجي بالطريقة المصطلح عليها فأيقنت انه ماريلياك .

ومدت اليس يدها لتفتح الباب فاعترضتها كاترين قائلة : بل أنا أفتح

فلبثت اليس ساهية وقد عاودها الرعب إذ رأتها تتولى بنفسها فتح الباب وذلك منوط بالخدم .

ثم ذكرت انها حين دخلت إلى الكنيسة أقفلت الباب بيدها أيضاً وأحكمت إقفاله ، فقالت في نفسها . ليس القادم ماريلياك .

غير انها كانت مخطئة لان الطارق كان ديودات نفسه .

فلما فتحت كاترين الباب ودخل قالت له :

– كيف ذلك ، ألم تصحب معك أحداً من أصحابك ؟

فعرف ماريلياك صوتها وانحنى أمامها بملء الاحترام ، وقد عجب كيف أنها فتحت له الباب بيدها وقال في نفسه : من يفعل ذلك غير الأمهات ؟

ثم نظر اليها وقال :

- العل جلالة الملكة نسيت أمرها إلي ان أحضر وحدي

ومع ذلك فقد خطر لي ان أحضر معي رجلا له في قلبي منزلة فوق منزلة الصديق ولكن الشفاليه لا يطلق سراحه قبل صباح غد .

— نعم نعم لقد نسيت ذلك .

ثم عادت فأقفلت الباب وتنهدت تنهد فرح هائل .

وعندها أدنت الخطيبين من بعضهما فوضع كل منهما يده بيد الآخر ، وقد نسيا الوجود .

وسارا الى الهيكل حيث كانت تضيء المصابيح الأربعة .

وكانت كاترين تسير وراءهما حتى وصلا إلى الهيكل .

فركعا عند درجاته وعندها استفاقا من سكرة غرامهما فقالت اليس :

— إني لا أرى الكاهن الذي سيعقد زواجنا .

أما كاترين فانها ذهبت الىالراهب الواقف في زاوية قرب الهيكل فوضعت يدها على كتفه وقالت له :

— هوذا الرجل الذي يريد ان يتزوج اليس .

فاضطرب الراهب وكشف عن وجهه وسار إلى الخطيبين .

- ١١ -

بنات الهوى

في الساعة التاسعة من تلك الليلة نفسها كانت لورا تلك العجوز التي عينتها الملكة جاسوسة على اليس مقيمة وحدها في ذلك المنزل ذي البـــاب الأخضر الذي كانت تقيم فيه اليس في شارع لا هاش .

وقد دخلنا بأذهان القراء مراراً ، إلى هذا المنزل ، فلندخـل اليه هذه المرة الأخيرة .

كان ماريلياك قد واعد اليس على زيارتها في الساعة الثامنة .

وقد جاء في الساعة المعينة فلم يجدها في المنزل .

فسأل عنها لورا فقالت : إن الملكة ستبقيها عندها إلى نصف الليل ولكنها أمرتني ان أنتظرك .. ولا أعلم ماذا حدث لأني ما رأيت اليس مرة على مثل ما رأيتها اليوم من مظاهر السرور .

فابتسم ماريلياك ولم يجب .

فقالت العجوز : لقد عهدت إلي ان أقول لك . أصبر إلى أن أتذكر كلامها فانه أسرار لم أفهم شيئاً منها .. رباه ! ماذا حدث وما هذه السعـــادة التي كانت مرتسمة على وجهها .

فقال لها ماريلياك بلطف : تذكري جيداً .

— لقد ذكرت فاعلم انها تنتظرك عند انتصاف الليل بالضبط .

-- حسناً .

فضمت لورا يديها وقالت : إذاً أنت عالم بما حدث ... ألا يمكن أن أعلم أنا أيضاً .

— ستعلمين صباح غد والآن إلى اللقاء فادعي لنا بالتوفيق .

— بارك الله مقاصدك يا سيدي الكونت ولكن لا تنس .. عند انتصاف الليل بالضبط .

فودعها ماريلياك وانصرف .

وقد شيعته تلك العجوز الماكرة ، إلى باب الحديقة ، وهي تدعو له خير دعاء . ثم أحكمت إقفال البـاب ، وعادت الى المنزل ، وأقامت تنتظر . .

ولبثت على ذلك إلى الساعة العاشرة ، فقالت في نفسها : إنه لا يعود بعد الآن وأما اليس فيستحيل ان تعود .

وقامت عند ذلك فتنهدت تنهد ارتياح ثم ابتسمت وقالت :

— لقد انتهت هذه الرواية المضحكة ، وقضي الأمر بعد أن كاد يقتلني الملل . .

أما وقد أصبحت حرة الآن فلننظر ما يجب أن أصنع .

ولكن الأمر بسيط وهو أن أبحث في باريس عن فنـدق أقيم فيه ثلاثة أو أربعة أيام دون أن يراني أحد .

ثم أسافر إلى إيطاليا ، وهناك أتمتع بثروتي الجديدة ، فلأحسب الآن هذه الثروة .

وعند ذلك صعدت الى غرفة اليس .

وكانت اليس قـد أقفلت بابها ، وكسرتـه ودخلت إلى تلك الغرفـة دخول المنتصر .

وكانت اليس قد جمعت في الصباح كل ما كانت تريـد أخذه معها ،

وكانت عازمة على الرجوع إلى منزلها ، غير ان الملكة أمرتها أن تبقى في اللوفر كما تقدم .

ولم يكن ما تريد أخذه معها غير مجوهراتها ، فوضعتها كلها في صندوق صغير .

أما لورا فانها بدأت بفتح هذا الصندوق ، فرأت فيه مجموعة رسائل كان ماربلياك قد راسل بها اليس .

فأخذت الرسائل والقتها في النار .

ثم عادت إلى الصندوق ، فدهشت لما رأته من تلك الجوهرات ، التي تبهر الأبصار .

فقد كان في ذلك الصندوق عقد من اللؤلؤ ، ومشط من الماس ، واثنا عشر خاتماً من أفخر أنواع الزمرد واليواقيت ، وعقدان أيضاً من الماس ونحو ثلاثين سواراً من الذهب مرصعة بالحجارة الكريمة .

فكان مجموع قيمة هذه الحلى يبلغ نصف مليون فرنك .

وفيما كانت لورا تقلب هذه الحلى وقد اصفر وجهها لهذه الثروة العظيمة ، سمعت صوتاً .

فأجفلت وأسرعت إلى المصباح فأطفأته .

ثم اتقدت عيناها ببارق من نار ، فجردت خنجرها ووقفت وراء الباب وهي تقول :

— الويل لها إذا كانت هي القادمة فسأقتلها لأن الملكة قالت لي ان الأمر سيقضى في هذه الليلة .

ولبثت هنيهة تصغي والخنجر مجرد بيدها الى ان تتابع هذا الصوت مراراً فتنهدت تنهد ارتياح وقالت :

— إنه الهواء ، يعصف في الخارج ... وقد مثله لي الخوف خطوات إنسان .

ثم عادت فأنارت المصباح ووضعت الجوهرات في موضعها من الصندوق الصغير وأسرعت الى غرفتها فعادت بكيس محشو بالدنانير فوضعته في صندوق الحلى وقالت بلهجة احتقار :

— إن هذا الكيس يحتوي على الفي دينار ، وهو كل ما أعطتني إياه الملكة كاترين جزاء خدماتي الجليلة ، غير اني سأستعيض عما حرمته من المكافأة بهذه الحلى .

ثم أحكمت إقفال ذلك الصندوق الصغير ووضعت وشاحاً على كتفيها وأخذت الصندوق تحت إبطها فخرجت من ذلك المنزل بعد ان أقفلت بابه والقت بمفتاحه الى الحديقة من فوق السور .

وكانت الشوارع مقفرة ، والظلام حالكا ، والغيوم متلبدة ، وقد أقفلت جميع الفنادق والحانات ، لأنها في ذلك العهد كانت تقفل في الساعة الثامنة .

فسارت لورا في تلك الشوارع وهي لا ترى رجلاً يقفو أثرها .

وكانت قد وضعت الصندوق تحت وشاحها ، وكانت تضغط عليه من حين الى حين كأنها تريد أن تثبت من انه لا يزال معها ، وانها غير حاملة وهي سائرة دون أن تعلم الى أين تسير فانها منذ قدمت الى باريس لم تبرح شارع لاهاش .

وما زالت تسير حتى رأت انها تائهة ، ولم تجد ماراً في تلك الشوارع لتسأله عن فندق تبيت فيه .

ثم شعرت كأنها ترى خيالاً ، وسمعت صوتاً يشبه الهمس ، فكادت تجن رعباً .

وأسرعت الخطى وقد خطر لها في تلك الساعة كل ما سمعته في حياتها من حكايات قطاع الطرق فقالت في نفسها :

— لقد أخطأت خطأ لا يغتفر بخروجي من المنزل وماذا كان علي لو بقيت

فيه ما زالت اليس لا تعود اليه

ولكن كلا فان الملكة قد تكون كاذبة فيما قالته لي ، وقد تعود اليس ، فأنا أحسنت ولم أخطيء .

وكانت تسير خائفة مذعورة ، فتلتفت كل حين الى ورائها فلا تجد أحداً لشدة الظلام .

حتى انتهت الى زقاق ضيق طويل ، رأت في آخره مصباحاً يضيء ، فأسرعت المسير ، وهي ترجو ان يكون ذلك النور منبعثاً من فندق .

ثم تقدمت وعيناها محدقتان بذلك المصباح ، فرأت خشبة معلقة فوق باب ذلك المنزل يرجحها الهواء ، فأيقنت أن المنزل فندق ، وأسرعت الخطى اليه .

غير انها لم تكد تندفع ، حتى شعرت بيد قوية جذبتها ، والقتها الى الأرض .

ثم رأت رجلاً قد ركع فوق صدرها ، ووضع يده فوق فمها منعاً اصياحها .

غير ان لورا كانت من أهل العناد والقوة فدافعت عن نفسها وصاحت تستغيث بملء صوتها .

فخرج الصوت من فمها متقطعاً مختنقاً ، لأن ذلك اللص رفع يده عن فمها ، وضغط على عنقها بيديه .

وما زال يضغط وهي تستغيث حتى انقطع ذلك الصوت ، وأيقن اللص أن روحها الخبيثة قد فارقت جسدها .

فأخذ عند ذلك يفتشها حتى عثر بالصندوق ، فأخذه وترك العجوز حيث قتلها وهو يقول :

— ما أعجب هذه الحياة ، فقد كنت في صباح اليوم لا أملك دانقاً ، فما

أمسى المساء حتى وبت من الأغنياء .

بل ما أسعدني بقتل هذه المرأة فقد قتلت قبلها خمسة عشر رجلا فلم أكن أجازى عن قتل الواحد بأكثر من دينارين .

أما هذه العجوز فقد جوزيت عن قتلها بالفين .

فهي ، اذا عددت القتلى ، كانت واحداً بمقام الف ، فرحم الله روحها الطاهرة .

وجعل يسير وهو يحدث نفسه فيقول :

ــ لقد كنت في هذا الصباح ، حسب عادتي ، مقيماً في الحانة . فجاءني رجل ملثم الوجه .

ولكنني أعرف الوجوه ، خصوصاً وجوه اولئك الذين يستأجروننا لقتل الناس .

وقد عرفت ذلك الرجل ، فهو ريذيه الفلكي ، فقد جاءني في الصباح وقال لي :

ــ كم تريد أجرة عن قتل امرأة عجوز ؟

فأجبت : دينارين ، حسب العادة ، إذ لا فرق عندي بين العجوز والفتاة .

ــ هوذا الديناران فاذهب في الساعة الثامنة مساء الى شارع لاهاش فيزاوية شارع ترافرسين تجد هناك منزلاً له باب أخضر .

فاكمن هناك إلى ان تخرج منه إمرأة عجوز فاتبعها ، ولكن لا تقتلها إلا متى بعدت عن المنزل

ثم قال لي انك إذا رجفت يدك ولم تضربها ضربة قاضية أي إذا لم تمت تلك المرأة قتلتك بدلاً منها .

فقلت له وقد عرفته : كفى يا مولاي وعيداً ، فان العجوز ستموت .

ــ إذاً إعلم ان جزاءك لا يكون دينارين فقط بل ستجد مع هذه العجوز

الفي دينار فتغنمها ولا يطالبك بها أحد .

وعندما قال في نفسه هذه الأقوال ، خشي ان لا يكون أتم خنق لورا ، فرجع اليها وفحصها فحصاً دقيقاً ، ووجدها جثة باردة لا حراك فيها .

ولا نصف ما كان من فرح اللص بهذه الثروة الجديدة ، بل اننا لم نتعرض لوصف مقتل هذه العجوز إلا لبيان دهاء الملكة كاترين وشدة حذرها وعدم مبالاتها بسفك الدماء .

أما هذا اللص فانه ذهب إلى خمارة (ميت يتكلم) وهي خمارة كاتي ، صديقة بارداليان الأكبر .

فأقام فيها إلى ان شرب زجاجة من الخمر ووجد مكاناً صالحاً لتخبئة الصندوق وانصرف .

وكانت هذه الخمارة يزورها اللصوص وبنات الهوى ، فكانت غاصة تلك الليلة بهن دون اللصوص .

لأن الليلة كثيرة العواصف والصواعق والأمطار وهي خير فرصة يغتنمها قطاع الطرق لسلب الناس .

فبينما كانت كاتي جالسة في موضعها ، تحاسب الشاربين والشاربات ، دخلت إمرأتان فاستقبلتهما كاتي بحفاوة ، وقالت لهما : لقد مضى شهر لم أركما فيه فأين كنتما .

فقالت إحداهما ضاحكة : لقد كنا في سجن التامبل .

— ومتى كان سجن التامبل خاصاً بالنساء .

— من يوم تولى إدارته المسيو دي مرليك فهو يأسرنا في الليل ويطلق سراحنا في النهار .

— وكيف أطلق سراحكما الليلة ؟ العله مل عشرتكما ؟

— كلا ولكنه لم يسكر الليلة غير انه دعانا إلى حفلة لا بد لنا فيها من التأنق

في اللباس وليس لنا من الملابس غير ما تعلمين .

— متى ؟

- يوم الأحد وأنت ترين أن الوقت لا يزال فسيحاً لدينا للتأهب ، بشرط أن تساعدينا .

— وكيف تريدان أن أساعدكما ؟.. أتطمعان أن البسكما عقود اللؤلؤ ؟

— كلا ، بل كل ما نريده أن نقتدي بالعقائل الموسرات ، ونلبس ملابسهن ...

فذهلت كاتي وقالت :

— ولكن أي شأن لكما في تقليد العقائل ؟

— لأنه سيحضر هذه الحفلة قضاة وكهنة ، ولا يريد مرليك أن نظهر في سجنه بملابس بنات الهوى .

ولا سيما أمام القضاة والكهنة ، لأن سجننا عنده سري ، كما تعلمين ، ولكن عيون القضاة النافذة قد ترانا ، فيعتذر عن ذلك بأننا من أهله .

وقد قضينا كل النهار في فحص ما لدينا من الملابس فلم نجدها تصلح إلا لمهنتنا بحيث يستحيل علينا ان نحضر بها هذه الحفلة .

ولكن لا بد لنا من الذهاب اليها ، فقد حتم علينا مدير السجن الحضور .

ولا بد لك يا كاتي من ان تحضري لنا ما يلزم من الثياب .

— ولكن ما هذه الحفلة التي يحضرها القضاة والكهنة ؟.. العلها حفلة زواج ؟..

— كلا بل هي حفلة تعذيب .

فدهشت كاتي وقالت : العلكما تسران بمظاهر التعذيب وسماع صياح ذلك

التعس الذي يعذبونه .

– كلا ، غير ان حاكم السجن يريد أن نحضر ، وإذا لم نمتثل له خسرناه .

– إذاً هو الذي دعاكما إلى حضور التعذيب ؟

– هو بعينه ، حاكم سجن التامبل ، وأنت ترين إنه من كبار الرجال .

– دون شك فقد ظهر كبره من هذه الدعوة ، ولكن من أين تريان هذا التعذيب .

– من السجن نفسه لأن حاكمه سيخبئنا في غرفة تشرف نوافذها على غرفة التعذيب ، إذ لا يجب أن يرانا أحد ، وإذا رأونا ورأوا ملابسنا حسبوا أننا من أقرباء الحاكم أو من أقرباء المعذبين .

– إني لو كنت مكانكما لما حضرت هذه الحفلة الهمجية .

– أتريدين ، يا كاتي ، أن نخسر مثل هذا الحاكم .. وهو قوام حياتنا الآن ؟

– إذاً سأعطيكما ما تطلبان .

– يوم الأحد ؟

– بل مساء السبت

فرقصت المرأتان من الفرح ، وطلبتا زجاجة من أفخر خمر الحانة ، إرضاء لكاتي .

فقالت لهما كاتي : ولكن من هذا المنكود الذي سيعذبونه .

– إنهما اثنان لا واحد .

– وماذا يدعيان ؟

– بارداليان الأكبر وبارداليان الأصغر فهما أب وابنه .

فاصفر وجه كاتي واضطربت أعضاؤها وبذلت جهداً عنيفاً كي لا تبكي ،

فانها كانت تحب بارداليان الأكبر من عهد بعيد .

ثم توالت الأيام فنسيت ذلك الغرام الى أن تجدد عطفها عليه وعلى ابنه في حادثة الخمارة .

فأعجبت بشجاعة الابن ومروءة الأب .

فلما علمت من المرأتين أن هذين الرجلين الباسلين سيموتان معذبين ، كبرت عليها نكبتهما وشعرت بحزن عظيم .

وكانت كاتي سليمة النية ميالة إلى المعروف على انغماسها بالرذائل واختلاطها مع اللصوص وبنات الهوى .

ولكنها كانت تنفر من الهموم وتحتال على طرد الحزن فما حزنت في حياتها غير مرة حين شوه الجدري وجهها الجميل .

وقد كانت أعجبت ببارداليان الأصغر إعجاباً شديداً حين رأته في حادثة الخمارة ، ورأت منه ذلك الاستخفاف بالموت ، وتلك الرحمة النادرة في قلوب الأبطال .

فجعلت بعد ذلك تتنهد كلما نظرت إلى مرآتها ، قنوطاً من حب ذلك البطل النبيل .

ولكنها كانت تتعزى عن ذلك بأنها باتت صديقة له ، وانها تود ان تفديه بنفسها في مواقف الأخطار .

ولذلك كان اضطرابها عظيماً حين علمت ان هذا البطل العظيم سيموت مع أبيه بعد التعذيب .

وشعرت ان نور الرجاء قد انطفأ من قلبها .

ولكنها لم تذكر كلمة من ذلك أمام المرأتين ، بل ان حزنها الشديد ظهر لهما من اضطرابها ، فقالت لها احداهما :

- يظهر أننا أسأنا اليك ، بهذا الخبر ... العلك تعرفين هذين الرجلين ؟.

- أنا ؟. كلا .

- إذاً نعتمد عليك بشأن الثوبين ؟

- كل الاعتماد وقد قلتما ان هذا التعذيب سيكون يوم الأحد .

- الساعة العاشرة من الصباح ولكننا سنذهب إلى سجن التامبل مساء السبت لأن حاكمه ينتظرنا للعشاء في الساعة الثامنة .

- حسناً فاذهبا عني الآن وسيكون لكما ما تريدان

فانصرفت المرأتان ، ولبثت كاتي وحدها ، ووضعت رأسها بين يديها وقالت :

- الأحد ... صباح الأحد .

ثم جعلت تبكي بكاء الأطفال .

وقد عرف القراء ، مما تقدم من فصول هذه الرواية ، ان تعذيب باردليان وابنه ، لم يكن موعده صباح الأحد ، كما توهمت المرأتان ، بل كان صباح السبت .

غير أن حاكم السجن وعد هاتين المرأتين ، بحضور الحفلة ، وهو في حالة سكر .

ثم ثاب الى رشده فجأة بعد ذلك الوعد ، فقال لهما . ان موعد التعذيب يوم الأحد ، فاذا حضرتا قال لهما لقد دعت الضرورة الى جعل التعذيب يوم السبت بدلاً من يوم الأحد ، ووردتنا الأوامر بعد انصرافكما .

فيكون ، بذلك الكذب ، لم يخل بواجباته بالسماح لهما بحضور التعذيب ، ولم يكذب عليهما في عرفهما ، لأنه كان يعتقد ان التعذيب يوم الأحد .

* * *

ولنعد الآن إلى كاتي ..

فقد عرف القراء من هذه المرأة يوم إحراق الخماره أنها من أهل الشهامة والشدة .

فلما استنزفت دموعها ضربت المائدة بيدها وقالت : لا بد أن أدخل إلى السجن ليلة السبت .

وقد قالت هذا القول وهي لا تعلم ماذا تصنع ، ولكن كان لديها خمسة أيام للبحث ، فكان كل ما خطر لها في تلك الساعة أن تدخل إلى سجن التامبل ليلة السبت ، أي قبل التعذيب الذي سيكون يوم الأحد في عرفها .

وفيما هي تمسح دموعها ، وقد عزمت عزماً أكيداً على الدخول إلى السجن رأت رجلا وإمرأة من زبائن خمارتها قد دخلا إلى الخمارة وهما يجران تينك المرأتين خليلتي حاكم السجن .

وكانت المرأة تصيح قائلة : إنهما قتلتا إمرأة عجوزاً عند باب الخمارة ، ولا بد لي من إخبار البوليس .

وكانت المرأتان تبكيان وتنكران هذه التهمة كل الانكار .

أما تلك المرأة البغي فإنها كانت تكره المرأتين كرهاً شديداً لجمالهما وفوزهما عليها في مهنتها الشائنة .

فلما رأت العجوز لورا قتيلة عند باب الخمارة ، ورأت الفتاتين خارجتين منها قالت في نفسها ، إنها خير فرصة للكيد لهما والانتقام منهما .

فاتفقت مع خليلها على الوشاية بهما فجراهما جراً إلى الخمارة كما تقدم .

وقد كثر اللغط في الخمارة اثر هذه الحادثة ، فوقفت كاتي وقالت لهما بلهجة الآمر :

— اسكتوا جميعكم إلى أن أعلم الحقيقة .

فسكت الجميع ممتثلين ونادت كاتي المرأة التي تتهمها فقالت لها : مـاذا تعلمين ؟

ـ اني كنت قادمة إلى خمارتك مع جان فرأيت هاتين المرأتين تخنقان تلك العجوز فلم أدركها إلا ميتة ، اليس كذلك يا جان ؟

فأجاب جان : هو ذاك ويسوءني اني لم استطع انقاذها من قبضتهما .

فبكت الصبيتان وأقسمتا الايمان المغلظة انهما لم تقتلا العجوز ، وان كل ما تقوله البغي وخليلها أفك وزور .

فقالت البغي : لست من أهل الزور والافك ، وساخبر البوليس بأمركما فيتضح له بعد التحقيق من منا الكاذب .

ثم همت بالخروج فقبضت عليها كاتي وقالت لها : أتعلمين ماذا يكون إذا جاء البوليس.. انك تكونين أنت القاتلة ، وأكون أنا وكثيرون معي شهوداً عليك في هذا القتل ، وفي جرائمك الكثيرة التي أعرفها .. ويحك أيتها الخائنة أهي أول مرة قتل فيها الناس في هذا الزقاق ، ومتى تداخل البوليس في شؤون خمارتي ، أتريدين أن يكون ذلك عن يدك .

فخشيت البغي أن تقع في الشرك الذي نصبته المرأتين وضحكت ضحكا عالياً وقالت : والله إني ما أردت غير المزاح وكفاني انني نجحت بازعاجهما .

فسرت كاتي لانقضاء الأمر بالممازحة وذهبت البغي مع خليلها .

أما كاتي فإنها أدنت الفتاتين منها وقالت لهما : أبقيا هنا فاني أريد محادثتكن .

ثم صرفت زبائنها واطفأت الأنوار ، وأقفلت الباب وعادت إلى المرأتين وقالت لهما : الستما انتما القاتلتين ؟

وعادت المرأتان إلى البكاء والانكار .

فقالت لهما كاتي : قد يكون انكما بريئتان ، ولكن كل الظواهر تؤيد تهمتكما ، بل أظن إنكما القاتلتان .

.. لا تبكيا فلا فائدة من البكاء ، إذ يوجد شهود عليكما ولنتفق إذا أردتما السلامة .

على ماذا تريدين الاتفاق ؟

- على أن تطيعاني فاذا فعلتما أنقذتكما ، وإذا أبيتما اتفقت مع تلك البغي على اخبار البوليس بأمركما .

- وماذا تريدين منا .

- أريد طاعة خمسة أيام وذلك سهل عليكما .

- ماذا يجب أن نعمل .

- سأقول لكما عند الاقتضاء ، أما الآن فيجب أن تناما هنا وان لا تبرحا هذه الخمارة مدة خمسة ايام .

- سنمتثل .

- وهذا كل ما أريده منكما الآن ، ولكن يجب أن تعلما انه إذا برحت إحداكما الخمارة قبل يوم السبت ، أذهب تواً إلى مركز البوليس وأشي بكما .

- ويوم السبت ، ماذا يكون ؟

- أطلق سراحكما واعطيكما ما تحتاجان اليه من الملابس فتذهبان إلى سجن التامبل .

- ١٢ -

آخر العهد بجيل وجيلوت

بينما كانت هذه الحوادث تجري في خمارة « ميت يتكلم » كانت حادثة أفظع منها تجري في قصر مسيم .

فلندع الآن هنري دي نافار يهتم في وقاية نفسه ، ولندع فرنسوا دي مونمورانسي يجن قلقاً لاختفاء بارداليان وابنه ، ولننظر في أمرين يهم القراء الوقوف عليهما .

أحدهما ما كان يجري في قصر مسيم .

والثاني ما كان يجري في كنيسة سانت جرمين التي كانت تنتظر فيها اليس عقد زواجها بماريلياك .

كان هنري دي مونمورانسي أخلى قصر مسيم من جميع الجنود والحامية والخدم ، ونقلهم إلى قصر له قرب باب مونمارتر وذلك لسببين .

أولهما انه كان يخشى أن يحمل اليأس أخاه فرنسوا فيحضر برجاله ويهاجمه في قصره ، فتحدث بينهما معركة هائلة لا يعلم لمن يستتب النصر فيها .

ولذلك رأى أن يحصر قوته في محل واحد ، لأن ذلك القصر الذي نقل الحامية اليه كان أمنع من قصر مسيم .

والسبب الثاني ان الملك قد عهد اليه بحراسة أبواب باريس فعين لهذه المهمة فريقاً من رجاله الأمناء .

ثم انه كان يخشى ان تعلم الملكة كاترين انه من المتآمرين مع الدوق دي كيز .

فقد عرف من مورفر أن الشك قد داخل نفسها بهذه المؤامرة .

وفي هذه الحالة يستطيع أن يهرب من باب موغارتو بسرعة لمجاورة قصره لهذا الباب .

وعلى ذلك كان قصر مسيم خالياً خاوياً لا يقيم فيه أحد .

على انه كان فيه تلك الليلة رجلان يتمشيان ، وقد برقت أعينهما بأشعة السرور وهما جيل وجيلوت

فكان جيل وكيل الدوق دامفيل ينظر إلى ابن اخته نظرات الرفق ويقول له : إشرب أيضاً هذه الكأس يا بني فلا يظهر المستقبل بلون الورد إلا إذا نظرت اليه من خلال أقداح الخمر .

فيشرب جيلوت ويقول : اني لم أذق مثل هذه الخمرة في حياتي فلماذا لم يخلقني الله من الأمراء فأروي غلي من هذه الخمور .

- إني أجعلك الليلة من أصحاب التيجان إذا شئت

- كيف ذلك ؟

- ذلك أن تأخذ زجاجة من هذه الخزانة ، وتشرب ما فيها فتصبح فوق الملوك .

فلم يدعه جيلوت يتم حديثه وقام إلى الخزانة فأخذ تلك الزجاجة وشرب منها جرعة كبيرة

وكان جيل يراقبه ويقول في نفسه : إنه لم يسكر بعد .

وما زال يسقيه الكاس بعد الكاس حتى رأى أن الخمرة قد بلغت منه ما أراد فبدأ محادثته فقال :

- إذاً ألا تريد أن تعود إلى قصر مونمورانسي .

فظهر الخوف على ملامح جيلوت وقال : كيف أعود إلى هذا القصر ؟

ألا تعلم أن أهله لا يهدأ لهم روع بعد احتجاب قاطع الألسنة

- ويحك من هو قاطع الألسنة ؟

- هو بارداليان الأكبر فقد أنذرني بقطع لساني إذا خنته ، وأنت تعلم كيف وفيت بعهده .

ثم ضحك ضحكا شديداً وقال ·

- إن جميع سكان هذا القصر لا يثقون بي بعد احتجاب بارداليان وهم يعتقدون أن لي يداً في اختفائه ، فهل تريد أن يقطعوا رأسي بعد قطع أذني.

وقد وضع يده على رأسه ، ولا نعلم أكان يريد افتقاده ، أم كان يريد أن يودع أذنيه .

فلم يجبه جيل ولكنه ملأ له كأسه .

فشربه جيلوت جرعة واحدة وقال ·

- نعم لقد كان هذا الأبله بارداليان يثق بي ثقة شديدة ، فاني حين أكدت له انه سيجد الدوق دامفيل وحده في القصر ، فرح فرحاً عظيماً حتى انه كاد يعانقني ، والله اني أشفق عليه ، فإنه نبيل كريم .

- كيف تشفق عليه أيها الأحمق ، أنسيت انه كان يريد قطع أذنيك .

- لقد أصبت فقبح له من خائن ذميم .

- وأنه يريد أيضاً قطع لسانك .

- أين هو هذا الوغد ليحضر الان .

وقد قال هذا القول بلهجة المتوعد وقبض على سكين أخذها عن المائدة وقال . ليحضر هذا الجبان وسأريه كيف يكون قطع الألسنة .

ولكنه سقط على الكرسي لسكره وجعل يضرب على منطقته فيسمع رنين الذهب ويضحك .

فقال له جيل : يظهر انك سعيد يا جيلوت .

- نعم . ولكني غير مصدق لهذه السعادة ، فاني أحسب نفسي حالماً

حين أجد منطقتي ملآنة من الذهب بفضل سيدي الدوق

وقد عزمت عزماً أكيداً على أن لا تذهب إلى قصر مونمورانسي

ـ العلك جننت ، أم انك تريد لي قطع اللسان .

ـ من يقطع لسانك أيها الأبله ما زال بارداليان في السجن .

ـ ولكني خنته فهو يقطع لساني لا محالة .. كلا دعني أتمتع بهذه الثروة فاني أحب الشراب ، وكيف أشرب اذا لم يكن لي لسان .

ـ أين المال الذي قبضته أهو معك ارني إياه .

فحل جيلوت منطقته وأفرغ ما فيها على المائدة .

فاتقدت عينا جيل ، وجعل يعبث بالدنانير ويقول :

ـ ولكني أنا الذي أعطيتك هذا المال وهو في الحقيقة ثروة .

ـ ذلك فصلاً عما سأقبضه أيضاً ؟

ـ ما الذي تطمع في قبضه أيضاً ؟

ـ إنك أعطيتني هذه الدنانير دفعة على الحساب .

ـ أي حساب هذا وأية بقية تعني .

ـ أعني إنك أعطيتني الف ريال ، ولكن الدوق أمرك أن تعطيني ثلاثة آلاف ، وقد سمعته ، فاصعد يا خالي الى صندوقك وهات البقية .

ـ لا شك انك سكرت ايها الأبله ، امثلك يقبض ثلاثة آلاف ريال ..

فعلم جيلوت أن خاله قد طمع بالبقية ، وكان شديد البخل والطمع كخاله فوجف قلبه لما سمعه وقال له :

ـ قلت لك اني سمعت الدوق يأمرك ان تعطيني ثلاثة آلاف فما أعطيتني غير الف فهات البقية أو شكوتك للدوق .

وإذا لم أعطك اياها أحقاً تشكوني أيها الشقي ؟ اتريد خرابي أيها المجنون . الا يكفي ما سرقه مني بارداليان .. جيلوت يكفيك ما قبضته فلا تطمع .

وحاول جيلوت أن يقف وهو يقول :

- حسناً فسنرى ما يقوله الدوق

فضحك جيل ضحكا هائلاً وقد طمع بالثلاثة آلاف ريال لا بالألفين .

ولكنه عزم على أن لا يتخلى عن المال وحاول أن يأخذه بالمسالمة قبل العنف فقال :

- انك يا جيلوت لا تعلم ما تصنع بهذا المال ، فإنك تبدده من دون حساب ، فهل تتخلى لي عنه بطيبة خاطر ؟

- لم يبق لدي شك في انك من المجانين ، أتريد ان اموت في الحياة لأرثك بعد الموت ..

ما هذا الجنون ..

ولكن جيل لم يدعه يتم حديثه فإنه انقض عليه ، وأخذ حبلاً كان قد اعده من قبل فشده به الى الكرسي الجالس عليه .

وقد قيده بسرعة عظيمة حتى ان جيلوت لم ينتبه من ذعره الا وقد رأى نفسه مقيداً لا يستطيع حراكاً ، فجعل ينظر الى خاله نظرات ملؤها الرعب كما كان ينظر اليه حين قطع اذنيه في القبو .

واما جيل فانه اخذ تلك الدنانير التي كانت في منطقة جيلوت فوضعها في صندوق ، حتى اذا احكم اقفاله عاد الى جيلوت فحل وثاقه وقال له :

- لقد تركت لك خمسين ريالاً واخذت الباقي ، فإنك لا تستحق أكثر مما اعطيتك ايها المجنون الأبله ، ارأيت اني ورثتك قبل ان ترثني .

نعم ، ان هذا المبلغ يكفيك لأن تبحث عن الثروة في غير هذا المكان ، واحذر ان اجدك في طريقي بعد الآن .

فرأى جيلوت انه لا ينفع معه غير الحيلة فقال له :

- ما زلت تريد يا خالي ان اقنع بالخمسين ريالاً ، فأنا راض بما ترضاه وسأسافر ..

- الى اين تسافر ..

ـ لا اعلم ولكني ابرح باريس .

ـ نعم اني واثق من انك تبرح باريس لأنك تخاف ان تقيم فيها معي ، ولكن قبل ان تبرحها ترى الدوق .

نعم انني اعرفك فأنت اشد مني بخلا وطمعاً ، حتى انك تخاطر بالحياة في سبيل الثلاثة آلاف ريال .

ويحك ايها الأحمق امثلك ينال هذا المبلغ ثم يناله من يدي ..

كلا لا تطمع بنيله ولا تطمع ان تتمكن من اخبار الدوق .

ـ اقسم لك انني لا افوه بحرف .

ـ اما انا فلا يكفيني يمينك ، واريد ان اكون واثقاً من سكوتك ، ولا يتيسر لي ذلك الا بقطع لسانك .

ثم ضحك ضحكا عالياً وقال :

انت الذي اوحيت الي بهذا الخاطر ، فلم يخطر لي قطع لسانك ببال ، كما اني لم يخطر لي قطع اذنيك لو لم ترشدني الى قطعهما .

اما جيلوت فقد ذعر ذعراً شديداً لوثوقه من ان خاله سيقطع لسانه كما قطع اذنيه ، وكان السكر قد اضعف اعصابه فأغمي عليه من هول ما سمع .

واما جيل فانه اسرع الى المطبخ وجاء بسكين .

ثم اخذ كلابة من درج ودنا من ذلك المنكود .

وقد لاحظ عندها ان قطع اللسان اصعب من قطع الأذنين فوقف هنيهة يتدبر وهو يمسك السكين بيد والكلابة بالاخرى .

وجعل ينظر اليه ضاحكا وهو يقول : اني سأنتهي بتقطيع كل اعضائه اذا بقي معي .

وفيما هو يتمعن في اختيار الطريقة المثلى لقطع لسانه ، صحا جيلوت من اغمائه .

فبطل تردد جيل وانقض على المنكود انقضاض الصاعقة ، فأدخل الكلابة

في فمه قبل ان يصيح ، او كاد يدخلها .

فاتقدت عينا جيلوت حتى باتت كاللهب وانتفخت اوداجه واطبق اسنانه فكان بين الاثنين عراك اليأس .

ثم صاح جيلوت صيحة دوى لها القصر فان الكلابة دخلت الى فمه وقطعت قطعة من اللسان .

ولكن جيل ايضاً لم يلبث ان صاح صيحة المختنق ، فان الألم واليأس اذهبا سكرة جيلوت وزاداه قوة ، فانقض على خاله المفترس وقبض على عنقه بيد من حديد .

وكان بين الاثنين قتال عنيف والسكين لا تزال بيد جيل ، فكان يطعن بها جيلوت ، وجيلوت غير مبال بالطعن والجراح حتى بلغ من خنق خاله ما اراد ، وبلغ خاله من قتلة بذلك الخنجر ما تمناه .

فلما أصبح الصباح ونفذت أشعة الشمس الى تلك الغرفة التي جرت فيها المعركة ، كان الاثنان جثتين من غير روح ، وكانت يد جيلوت لا تزال ناشبة في عنق جيل .

وخنجر جيل لا يزال داخلاً في صدر جيلوت .

- ١٣ -

هذا ما يريده الله

كان المركيز أو الراهب بانيكارولا راكعاً عند درجات الهيكل في كنيسة سانت جرمين .

وكان يصلي أي انه كان يناجي نفسه بما سوف يصنعه فلا يناجي خالقاً ولا يلتمس شفاعة ولا يرجو عفو الله وكرمه ، بل كان يبحث في نفسه المعذبة عن وميض تتضح له منه الحقيقة .

فبينما كانت الملكة كاترين واقفة على الباب ، تراقب قدوم الكونت دي ماريلياك لتضربه الضربة القاضية مع خطيبته اليس، وبينما كانت الفتيات الحسان ينتظرن إشارة الملكة ليمزقن بخناجرهن العاشقين ، كان الراهب بانيكارولا راكعاً يصلي .

وهذه هي صلاته وهذا ما كان يقول :

« إن المسيح قد تعذب وسقراط كذلك ، ولكن الاثنين كان لهما غاية نبيله سامية ومبدأ شريف جليل .

« أما أنا فقد تعذبت مثلهما ولي نفس مثل نفسيهما ، ولكن غايتي تختلف عن غايتهما .

« فغايتي منحطة سافلة لا يلجأ اليها غير صغار النفوس والأحلام ، إذ أن غايتي هي الانتقام .

« إن المسيح وسقراط كانا رجلين ، وقـــد أثبتت التواريخ والأدلة وشهادات المعـاصرين ، أنهما ماتا مطمئنين لتلك الغـاية النبيلة ، التي ماتا من أجلها .

« وأما أنا فقد كنت أريد تعميم الإخاء والمساواة ، كما كان يريد المسيح . وأرجو انطباع الحب والسلام في كل القلوب ، ولكني لا أجـــد في قلبي غير الكره والانتقام .

« ولماذا اختلفت غايتي وتبدل قصدي ؟ أكل ذلك من أجل امرأة تصدت لي في حياتي فأحببتها .

« ولأبحث الآن في حالتي علي أسترشد ، فماذا أتيت لأعمل هنـــا ؟ وماذا عملت ؟

« إني عملت عملاً هائلاً ، فقد أردت الانتقام من جمع في سبيل الانتقام من واحد . فغرست الأحقاد في قلوب الذين يسممون عظاتي ، وكنت أكلمهم باسم ربهم وهو عندهم مرجع الرفق والرحمة والعدل ، فحثثتهم باسم العدل على ارتكاب أقبح ظلم وقتل الأبرياء من الهوكينوت وحضضتهم باسم الرحمة على إبادة كل من لا يدين بدينهم .

« وكل ذلك لأني أردت الانتقام من ماريلياك .

« نعم إني لم أفعل ما فعلت إرضاء لكاترين وتنفيذاً لمآرب دي كيز بل كان كل ما أريده قتل ماريلياك والاستئثار بتلك المرأة .

« وقد أمسيت اليوم وإذا برسول الملكة يقول إذهب إلى كنيسة سانت جرمين قبل انتصاف الليل بساعة تجد فيها اليس .

« فأتيت . .

« أتيت لأرى الحب وقد نسيت ماريلياك ، فما وجدت غير البغض . . وجدت الملكة كاترين تقول لي ان ماريلياك سيحضر قريباً وإنما قالت لي هذا القول لتثير مني مكامن البغض

« وماذا تريدين مني أيتها الملكة الماتية الظالمة المحتالة ؟

« إنك تريدين ان أظلم هذا الرجل ، وأحمله من الشقاء ما لم أحمل بعضه . . إنك تريدين أن أطلعه على هذا الكتاب ، الذي يقطع أحشاءه . .

« وأنا ماذا أكون قد فعلت ؟

« أكون وصلت إلى هذا الانتقام السافل ، الذي لا تقدم عليه نفس كريمة .

« ويح لنفسي ان قومي يضربون المثل بولائي وإخلاصي فهل أكون في هذه المنزلة لدى قومي ، ولا أرجو إلا ان تعم الشفقة كي يسود الرفق وتعم المساواة ثم أقدم على هذا العمل المنكر الفظيع .

« ولو أردت قتل الكونت بالسيف وجهاً لوجه كما يقتل الشريف الشريف لهان الأمر ، ولكني أريد قتله بورقة . وأية ورقة هي ، إنها تشبه ان تكون مزورة فقد أكرهتها على كتابتها .

« أأفعل كل ذلك لنيل امرأة لا تحبني ؟ أأفعل كل ذلك لأفرق بين عاشقين بلغ بهما الحب حد العبادة ؟

« كلا ان غير بانيكارولا يفعل هذا. والآن قف ايها القلب الخفوق ويا أماني الغرام انقشعي ويا . . . »

وهنا شعر ان يداً وضعت على كتفه فاضطرب وقال :

ـ لقد دنت الساعة الرهيبة .

هذه هي صلاة الراهب حين كان جاثياً قرب الهيكل وحين كان ماريلياك يسير بخطيبته إلى ذلك الهيكل .

وكان الذي وضع يده على كتفه الملكة ، فأشارت بيدها إلى ماريلياك وقالت له : هذا هو العاشق .

ثم دنت من الخطيبين وقالت لها : هذا هو الكاهن ، الذي سيعقد

زواجكما .

فنظر العاشقان الى ذلك الراهب وأصيبت اليس بذعر لا يوصف حين رأت المركيز يسير اليهما وهو مصفر الوجه مضطرب الأعضاء .

وقد أدركت بلحظة انها وقعت مع خطيبها في كمين

وكانت تنظر نظرات الجنـون إلى الراهب والملكة ، وقد بدت عليهـا علائم الذعر الشديد ، حتى ان الملكة نفسهـــا ذعرت ليأسها ، وتراجعت عنها خطوتين .

أما ماريلياك فقد رأى ما كان من ذعر اليس حين رأت الراهب فقال : ماذا حدث ؟

وهو لم يعلم شيئاً ، ولكنه توقع حدوث أمر هائل ، من مجموع مـــا كان يراه .

أما الراهب فلم يكن ينظر إلا إلى اليس .

ودام ذلك خمس ثوان مرت بالراهب مرور الأجيال فقد كانت عينا اليس تكلمه بلغة فصحى فتقول :

– أقتلني وافعل بي ما تشاء وعذبني بما أردت من أنواع العذاب ، ولكن إصفح عن خطيبي فانه لم يسيء اليك بشيء .

فنفذ هذا الرجاء من عيني اليس إلى قلب الراهب نفاذ السهم .

وكان الراهب يضطرب اضطراباً شديداً ، فقد ازدحمت في قلبه عواطف الحب والبغض والانتقام .

ثم فرت بجملتها من ذلك القلب كما يفر الطائر وقد أحس بخطوات الصياد فلم يبق في قلبه غير عاطفة الإشفاق .

وعند ذلك رفع يديه إلى السماء كأنه يستشهد الله على تضحية نفسه في سبيل هناء سواه .

وبينما كانت اليس تنظر اليه ، وقد اتقدت عيناها بشعاع الأمل ، سقط

ذلك الراهب على درجات الهيكل مغمياً عليه ، فان هذه التضحية قــد هدت قواه .

أما ماريلياك فإنه جذب يده من يد اليس ، ومشى إلى الملكة كاترين ، فقال لها :

— ما هذا الذي حدث يا سيدتي ؟.. ومن هذا الرجل ؟.. إنه ليس براهب فاني أراه لابساً ملابس الفرسان تحت ملابس الرهبان .

وذلك ان الراهب حين سقوطه انزاح الوشــاح فظهرت من تحته ملابس المركيز وكان كتاب اليس لا يزال في يده .

أما اليس فإنها دنت من خطيبها وقالت له :

— هلم نسافر ... هلم نهرب .

فلم يجبها ماريلياك وقال الملكة :

— من هو هذا الرجل ؟

فأجابته الملكة قائلة :

— لا أعلم ، ولكن هذه الورقة التي في يده قد تنبئنا عما كان يريد .

ثم قالت فجأة :

— نعم ، نعم لقد عرفته فهو المركيز بانيكارولا .. ماذا أتى يعمل هــذا المركيز بدلاً من الكاهن الذي كنت أنتظره .

فأسرع ماريلياك الى الراهب كي يأخذ الورقة من يده فأخذها منه وفتحها بيد ترتجف وهو يقول :

— المركيز بانيكارولا .. ماذا يريد مني .

ولكن اليس دنت منه ونظرت اليه نظرة تدل على الجنون ثم أمسكت يده وقالت له :

لا تقرأ !

— أتعرفين يا اليس ما يوجد في هذه الورقة ؟

ـ لا تقرأ .. ولنهرب ، إن الموت مخيم علينا .

ـ اليس ان الحقيقة مطوية في هذه الرسالة .. تلك الحقيقة التي كانت تعرفها ملكة النافار والتي كتمتها عني أمي ؟

ـ لا تقرأ أيها الحبيب ، إذا أردت ان تبرهن لي عن صدق حبك . لا تقرأ وانظر إلي فإني أحبك ... لا تقرأ رسالة هذا الرجل فإنك لا تعلم مقدار حبي إياك .

ـ أتعرفين هذا الرجل يا اليس ؟

وكانت اليس تتكلم بلهجة المتوسل المستعطف ، وماريلياك يتكلم بلهجة المرتاب .

وقد حمل اليأس ، تلك المنكودة ، على أن تحاول اختطاف تلك الورقة .

ولكن ماريلياك أبعدها عنه بلطف وصعد الى درجات الهيكل كي يدنو من النور وفتح تلك الورقة .

فركعت اليس وقالت :

ـ الوداع أيها الحبيب الذي لم أحب سواه ... إنك لن تعلم مقدار حبي إياك فالوداع إلى الأبد .

ثم أدنت خاتماً ، كان في إصبعها ، من فمها وهو مسموم ، ومصت ما فيه من السم . ونظرت الى ماريلياك ، نظرة المحب المفتون ، ينتظر الموت .

أما ماريلياك فإنه قرأ على ضوء المصباح ما يأتي :

« أنا اليس دي ليكس أعترف أنه إذا مات ولدي الذي ولدته من المركيز بانيكارولا عشيقي فأنا الذي قتلته .

« وإذا وجدوا جثة ولدي فلا يجب ان يتهموا سواي » .

فلم يتم ماريلياك قراءة الرسالة ونزل عن درجات الهيكل وقد تغيرت

سحنته حتى ان الملكة لم تعرفه .

فقبضت على خنجرها وجعلت تراقب هذا المنظر الهائل .

ومشى الى اليس ولكنه لم يرها فقد أعمى اليأس بصيرته ، ولم يسمع صوتها وهى جاثية تعالج سكرة الموت وتقول : (أحبك) .

ولكنه كان يمشي اليها دون ان يراها أو يسمع صوتها ، بل دون أن يفتكر بها .

فقد كان كل ما يفكر به تلك الساعة انه يعجب كيف انه لا يزال في قيد الحياة بعد تلك الضربة الهائلة ويقول في نفسه :

ـ لا بد من الموت ، ولكن كيف يجب أن أموت ؟

ثم رأى الملكة وهي تمشي ، فارتعش واتقدت عيناه ، مما يدل على رجوع الصواب اليه

ورأت الملكة انه قادم اليها فاضطربت ..

أما ماريلياك فانه ابتسم ابتساماً هائلا وقال لها :

ـ العلك مسرورة يا أماه ؟..

لماذا تريدين أن تقتليني على هذا الشكل ؟

فأيقنت كاترين ان ابنها قد علم الحقيقة بجملتها .

فرفعت قبضة خنجرها ، وهي بشكل صليب ، وأخفت نصله تحت ردائها وقالت :

ـ أيها الكونت ، لست أنا التي تريد قتلك ، بل هذا الصليب ، وهذه هي إرادة الله .

ثم رفعت صوتها قائلة :

ـ هذا ما يريده الله !

وعند ذلك حدث ضجيج هائل في تلك الكنيســة يشبه هزيم الرعود ، وصاحت الفتيات الخمسين كلهن بصوت واحد قائلات :

- هذا ما يريده الله !

. وقد هجمت الفتيات هجمة واحدة ، وبرقت الخناجر في أيديهن ، فطاش رأس ماريلياك لهول ما رأى ، ولم يعد يرى في تلك اللحظة غير اليس ولايسمع غير صوتها يقول : أحبك .

ثم لم يعد يسمع شيئاً ، ولا يشعر بشيء ، سوى ان رأسه قد اهتز ، وأن كل ما كان في ذلك الرأس من القوى العاقلة قد أفلت ، فبات المنكود من غير عقل ، فجعل يكرر قول اليس دون وعي فيقول : أحبك .. هلم بنا نهرب .

فصاحت اليس صيحة سرور وقالت : رباه ! ما أكثر مراحمك ، فإنـه يعفو عني .

وعندها سقط ماريلياك لضربات خناجر اولئك الفتيات .

فزحفت اليس اليه وغطت جسمه بجسمهـا كأنها تريد ان تحميه من تلك الخناجر وهي تقول :

- دعوه . اقتلوني .. اقتلوني أنا ، فهو لا يستحق الموت .

فأجابها صوت الملكة قائلاً :

- هذا ما يريده الله !

فانقضت الفتيات وقد تحمسن بقول الملكة وأجهزن عليه قائلات :

- هكذا يجب ان يموت أعداء الملكة وأعداء الدين .

غـير ان اليس تمكنت من رفع رأس ماريليـاك ، وتعريض وجهـه لنظرات الملكة .

وبينما كان الفتيات يضربنه بالخناجر ، وقد روى دمه بلاط الهيكل نظرت اليس الى الملكة وقالت :

- هذا هو ولدك الذي تبحثين عنه أيتها الأفعى، فانظري الى دمه وليطبع تاريخه على قلبك بأحرف من نار .

ثم سقطت فوق جسم ماريلياك وقد قتلها السم والخناجر ولكنها تمكنت قبل ان تموت من ضم حبيبها فقبلت فمه وقالت :

– أحبك !

– ١٤ –

مقبرة الأبرياء

ولما تمت تلك المذبحة ، وسكن هياج الفتيات ، قالت لهن الملكة ، بل تلك الأفعى الهائلة ، بضع كلمات فتفرقن وخرجن من الكنيسة ، وذهبن الى اللوفر .

ولم يتخلف في الطريق غير واحدة منهن ، فإنها مرت بأربعة رجال كانوا واقفين عند باب الكنيسة يتحدثون بأصوات منخفضـــة وهمست في آذانهم بعض الكلمات .

فدخل الأربعة الى الكنيسة ومشوا الى الهيكل فوجدوا امرأة جاثية عند درجاته وهي بملابس السواد .

فأشارت لهم تلك المرأة إلى جثة ماريلياك

فقال لها أحدهم : وهذه ؟

مشيراً الى جثة اليس .

فأطرقت الملكة برأسها دون ان تجيب

وأخذ الرجال الأربعة جثة ماريلياك وخرجوا بها .

وعندها أطفأت الملكة مصابيح الهيكل الأربعة بحيث لم يبق في الكنيسة غير مصباح ضعيف معلق بالقبة وذهبت إلى الراهب الذي كان ملقياً تحت الهيكل مغمياً عليه .

فوضعت يدها على قلبه ، فعلمت انه حي فأخرجت زجاجة صغيرة من صدرها وشممته من رائحتها ، ففتح عينيه ونظر إلى ما حواليه نظرة من يستفيق من حلم .

فقالت الملكة في نفسها : انه لم ير شيئاً .

ونهض الراهب فخيل له انه خارج من القبر ، فإن إغماءه كان شديداً ، حتى انه كاد يصرعه ، لو لم تعالجه الملكة بذلك الدواء

فـأخذت الملكة عند ذلك بيده ، وذهبت به إلى حيث كانت جثة اليس وقالت :

إنها ماتت يا مركيز كما ترى ، بل انه قتلها وكنت حاضرة ساعة هذا القتل الذريع دون أن أستطيع الدفاع .

لأنه رأى ، حين أغمي عليك الرسالة في يدك فأخذها وقرأها .

وإني لم أر في حياتي حدة تشبه حدته ، فإنه حين علم ما تضمنته الرسالة هاج هياج المجانين ، وهجم هجوم الضواري المفترسة على تلك المنكودة فمزق جسمها بخنجره شر تمزيق كما ترى .

ولكنه مات قتلا ، فمن أخذ بالسيف بالسيف يؤخذ .

فإنه حين قتلها وخرج هارباً من الكنيسة رآه حراسي ملوثاً بالدم والخنجر مشهر بيده فحسبوا انه قتلني ، فقتلوه والقوا جثته في النهر .

إلى اللقاء أيها المركيز فاني أدع جثة هذه المنكودة لعنايتك واسأل الله أن يتولاها برحمته ويفسح لها مجال الغفران .

وخرجت الملكة عند ذلك خروج الشبح يعود إلى الظلمات .

فسارت في الشوارع وهي مجردة خنجرها غير خائفة ولا وجلة ، وعادت

إلى قصرها .

وبقي الراهب وحده أمام جثة اليس ، فوضع يده على قلبها فوجد انه لا ينبض ، وأيقن انها ماتت .

فنظر في جراحها فوجد انها مصابة بسبع عشرة طعنة في الظهر وبين الكتفين والعنق .

فأخذ منديله وذهب إلى جرن الماء المقدس ، فغمسه فيه وعاد فغسل تلك الجراح ..

وكرر الغسل مراراً حتى استحال ماء الجرن إلى دم ونظفت الجراح .

وعاد إلى فحصها فوجد انه لا يوجد بينها جرح قاتل .

وحار في أمره إلى أن وجد في اصبعها خاتم له فص كبير تبين له انه مفتوح إذ رآه غير محكم الاقفال .

ففتحه ووجد تحته حفرة فيها بقية من رشاش أبيض ، فأيقن انه سم ، وان اليس قتلت نفسها بالسم قبل أن تفتك بها الخناجر .

فلم يفه بحرف ، ولم يظهر عليه شيء من علائم اليأس والكدر ... بل انه خلع وشاحه العريض ، ولفها به ، ثم حملها وخرج بها من ذلك الباب الذي دخل منه ، وسار بها في ظلام الليل ، إلى تربة قريبة تدعى تربة الأبرياء .

وهناك أيقظ الحفار من رقاده ، فذعر حين رأى ذلك الراهب الشهير بملابس الفرسان .

فقال له المركيز . أعرفتني ؟

— من لا يعرفك يا سيدي ومن لم يسمع عظاتك !

— إذاً أريد أن تطيعني .

كيف لا أطيعك يا سيدي ما زال أهل البلاط يرهبونك وما زلت وكيل الحبر الأعظم فينا .

ـ أريد أن تحفر حفرة تحت هذه الشجرة لأدفن فيها هذه الفتاة

فأسرع الحفار وجاء بمعدات الحفر ..

فلم تمر ساعة حتى حفر الحفرة .

وعند ذلك أنزل اليس في الحفرة وأخرج كيساً ملؤه الذهب ودفعه إلى الحفار وقال له :

ـ إذهب وعد بعد ساعة تجد في الحفرة جثتين ، أي جثتي وجثتها فتهيل التراب عليهما وتنصرف في شأنك .

فذعر الحفار وقال له : جثتك أنت يا سيدي ؟

ـ نعم ...

ـ ولماذا أعطيتني هذا المال ، الكي لا أبوح بما رأيت ؟

فهز بانيكارولا رأسه .

فقال الحفار : أم اعطيتني إياه مقابل أجرة الحفر ؟

فقال له المركيز : لا هذا ولا ذاك ، فانك إذا فهت بكلمة ، أو لم تمتثل لأمري قتلت شنقاً ، إذ يوجد واحد من رجالي يراقبك ، وأما أجرتك فلا أجرة لك ، لأنك حفار التربة .

ـ إذاً لماذا أعطيتني المال ؟

ـ لأنه سيجيئك غلام في السادسة من عمره ويسألك عن موضع قبر أمه فمتى جاءك تدله على هذه الحفرة وتقول له : هذا قبر أمك وأبيك ، فانصرف الآن وعد بعد ساعة كما قلت لك .

فامتثل الحفار وعاد بعد ساعة ، وكان الفجر قد انبثق فوجد الراهب بانيكارولا مضطجعاً في الحفرة بجانب اليس وهو ميت لا حراك به

فذعر ذعراً هائلاً ، ولكنه أسرع فأهال التراب على الجثتين قبل أن يأتي أحد من زوار القبور .

أما المركيز فانه انتحر بنفس السم الذي انتحرت به اليس ، وكان

وجهه بازاء وجهها فمات وبقيت علائم الاشفاق بادية على وجهه كأنها تحدث عنه فتقول :

اني لم أستطع رحمتها في الحياة فرحمتها بالموت .

- ١٥ -

غرام بيبو

ولنذكر الآن في هذا الفصل كلمة عن بيبو كلب بارداليان ، فقد كان له دور خطير في هذه الرواية بحيث لا يليق بنا إغفاله .

كان بيبو هذا ، على أتم حـالات الهناء في قصر مونمورانسي ، لا يبخلون عليه بشيء مما تتوق اليه نفسه ، حتى انه كاد ينسى السرقة لعـدم احتياجه اليها .

وكان مرجع الفضل في هذا إلى خبثه ودهائه ، فإنه صادق طباخ القصر ، فكان لا يفارقه لحظة في النهار ، ويظهر أحسن مـا يظهره الكلاب من التودد ، حتى خدع الطباخ بصدق وداده وبات لا يشغله غير إرضاء هـذا الكلب الأمين .

كان بيبو يقيم النهار كله في المطبخ حتى إذا أقبل الليل صعـد إلى غرفـة صاحبه بارداليان ونام عند قدميه .

وقد اتفق ليلة أن بارداليان لم يعد في الليل فجعل بيبو يطوف في الغرفـة حائراً قلقاً ، ولم يذق في تلك الليلة طعم الرقاد .

وعند الصباح بحث عنه في جميع القصر فلم يجده ، فخرج إلى الشوارع وعاد إلى غرفة بارداليان فلم يجده فكان تعساً حزيناً

وقد امتنع عن الطعام حتى ان الطباخ صاحبه القديم ناداه فلم يلتفت اليه ، واراد أن يقبض عليه فكشر له عن أنيابه بحيث أيقن الطباخ أن صداقة هذا الكلب كانت خبثاً ونفاقاً .

وصبر بيبو إلى اليوم التالي ، ولما رأى أن صاحبه لم يعد ، أيقن انه غير عائد .

فخرج من القصر ، وأقام طول تلك الليلة عند بابه ، وفي الصباح هب من رقاده وانطلق انطلاق السهم كأنه سائر في شأن خطير .

لأنه خطر له أن صاحبه قد فارقه مرة حين ذهب إلى الباستيل ، فلا بد أن يكون هذه المرة أيضاً في الباستيل .

وكان يسير راكضاً كالفرس الجامح لا يلوي على شيء ، فصدم ثلاثة أطفال ، وأوقع إمرأة عجوزاً ، وقلب ثلاث سلال من البيض ، فتكسر ما فيها .

وما زال يركض والغلمان يركضون في أثره ويرشقونه بالحجارة ، حتى وصل إلى الباستيل .

ووقف تحت تلك النافذة التي كان فيها بارداليان ، حين رمى اليه الورقة ، وجعل ينظر إلى موضعها ، فلا يجد أثراً لصاحبه ، ولا للنافذة نفسها ، لأن حاكم السجن كان قد أمر بسدها من قبيل الاحتياط بعد حادثة بارداليان .

فطاف نحو ساعة حول الباستيل وهو ينبح نباحاً مختلفاً .

حتى إذا قنط من لقاء صاحبه في الباستيل ، هرول بنفس تلك السرعة السابقة إلى فندق دفنير .

وهناك بدأ بالصعود إلى غرفة بارداليان ..

ثم تنقل في غرف الفندق ، فما زال يطوف بها ، حتى رآه صاحب الفندق ، فاستغاث بالخدم من هذا السارق ، وهرب بيبو مطروداً بالعصي والمكانس .

وقد علم أن صاحبه غير مقيم في الفندق ، إذ لو كان فيه لما تجاسروا على إهانته مثل هذه الاهانة .

وركض حتى ابتعد عن الخطر فوقف هنيهة يفكر إلى ان خطرت له خمارة كاتي فذهب عدواً اليها .

فبلغها وهو يكاد يموت جوعاً وعطشاً وقد اندلع لسانه وانبطح على الأرض من فرط التعب .

وقد عرفت كاتي أنه كلب بارداليان ، فأحسنت اليه وأطعمته وسقته فطاب له المبيت تلك الليلة في الخمارة فبات فيها .

وفي الصباح ودع كاتي شاكراً وعاد كئيباً حزيناً إلى قصر مونمورانسي فأقام كل النهار عند بابه لا يجسر أن يدنو احد منه لغضبه .

وفي الليل ذهب إلى زاوية قرب القصر فبات فيها .

وفيما هو على ذلك هب فجأة وجعل يحرك ذنبه تحريكاً لطيفاً إشارة إلى السرور ..

فهل شم رائحة صاحبه ففرح هذا الفرح ؟

هذا ما يتوقعه القارىء ..

ولكن لا بد لنا من الاعتراف بالحقيقة ، وهي أن بيبو شم رائحة كلبة فهاجت كوامن غرامه ، ونسي حزنه لبعد صاحبه وأسرع يبحث عن تلك العشيقة التي لم يعرفها بعد إلا بالرائحة .

وبعد حين ادركها وهي مع رجلين كانا يرودان حول قصر مونمورانسي ويتحدثان ..

ولم يحفل الكلب والكلبة وجعلا يتشاكيان الغرام .

وكان هذان الرجلان هنري دي موغورانسي وصفيه الفيكونت اسبرمونت وقد قدما لفحص قصر فرنسوا بغية مهاجمته .

وبعد أن علما ما ارادا معرفته ، رجعا إلى قصر هنري وتبعتهما الكلبة .

ولكن بيبو كان قد علق بغرام تلك المشيقة فأنساه الغرام كل ما كان يجده من الحزن على مولاه وتبع تلك العشيقة .

فلما دخل هنري والكونت إلى القصر واقفلا الباب كان بيبو وعشيقته قد سبقاهما الى الدخول ..

فبات بيبو ، العاشق المفتون ، ضيفاً لهنري دي موغورانسي عدو مولاه بارداليان .

- ١٦ -

الاميرال كوليني

لندع الآن بيبو منهمكاً بغرامه ، ولندع كاتي مع البغيتين يشتغلن في أمر سري ولنذكر شيئاً عن الأميرال كوليني قبل ان نعود إلى باردالیان وإبنه في سجن التامبل فندخل بالقراء إلى قصر اللوفر .

كانت الحفلات تتوالى في ذلك القصر ، منـذ يوم الاثنين الواقع في ١٨ أغسطس .

وكانت علائم الارتياح بل السرور ظاهرة على وجوه الهوكينوت .. فان الملكة كاترين عرفت كيف تطمئنهم ، وتمحو من نفوسهم آثار المظنة والريب .

ولم يكن بين سكان اللوفر ممن يبدو عليهم الاضطراب غير الملك شارل التاسع ، فكان منقبض النفس يجول في قاعات المحتفلين وعليه علائم السويداء .

ففي صباح يوم الجمعة برح الأميرال كوليني قصر بيتهيسي وذهب منه إلى اللوفر .

وكان يخفره حسب العادة ستة من الهوكينوت ، وهو متأبط ملفاً من الأوراق تتضمن خطة الحملة النهائية ، على الدوق البا ، إذ قد عهد اليه بالقيادة العليا .

وكان سائراً بها إلى الملك كي يقرأها ويوافق نهائياً على تلك الخطة .

وكان الملك قد صحا من رقاده ودخل كبار رجال البلاط إلى غرفته ، فكان يستقبلهم باشاً طلق الوجه ، لأنه صحا مرتاح النفس ، ولم يحلم أحلاماً مزعجة في تلك الليلة .

فلما رأى الملك الأميرال داخلا حياه بملء الانعطاف وقال له :

- لقد حلمت الليلة يا أبي انك غلبتني .

- أنا يا مولاي ؟

- نعم ، أنت نفسك .

فقلق من سمع هذه الجملة من الهوكينوت ، وفرح لها الكاثوليكيون وتوقع الفريقان أموراً هائلة بعد هذه المازحة .

ولكن الملك ضحك بعدما رأى ما كان لكلمته من التأثير وقال :

- نعم ، حلمت يا أبي أنك غلبتني بلعب الكرة ، وأنا أعظم اللاعبين بها في فرنسا .

فابتسم هنري دي نافار وقال :

- وفي بلاد النافار أيضاً يا مولاي .

فشكره الملك بنظرة وعاد إلى مخاطبة الأميرال فقال :

- إني أريد أن اثأر منك فلا أطيق أن أكون مغلوباً ولو في الحلم فهلم بنا إلى الحديقة .

فأجابه الأميرال قائلا :

- ولكن جلالة مولاي يعلم اني لم العب هذه اللعبة في حياتي .

- ولكنك غلبتني في الحلم ، فما حيلتي بأخذ الثأر .

فتصدى له عند ذلك تاليني وقال :

- إذا أذن مولاي نبت عن الأميرال وأنا واثق اني مغلوب .

- ليكن ذلك ، فأنت والأميرال واحد ، وكل ما أرجوه أن أثار

من خصمي .

ثم التفت إلى الأميرال وقال له ،

– أرجوك أن تعذرني يا أبي فسننظر مساء في هذه الأوراق .. تعال يا تاليني وأنت أيضاً يا دي كيز .

ثم نزل الملك إلى الحديقة وهو يصفر نشيد صيد ، فتبعه بعض الحاضرين وبدأ اللعب .

وأما كوليني فقد بقي في الغرفة مع بعض الأعيان .

وكانت الملكة كاترين مع الحاضرين فنظرت إلى كوليني نظرة غيظ وغدر وذهبت إلى غرفتها .

وقد لقيت عند بابها مورفر ينتظرها .

فانحنى أمامها وقال لها : اني أنتظر أمر جلالتك ، وأن تقول الكلمة الأخيرة .

فقالت الملكة .. إفعل ، وهذه كلمتي الأخيرة .

فانحنى مورفر إشارة إلى الامتثال ، وقد خطر له في تلك اللحظة انه لا بد له من استئذان دي كيز ، وان دي كيز قال لا تقتل الأميرال بل اجرحه فقال للملكة :

– وإذا اتفق اني أخطأت المرمى ياسيدتي .

فأجابته بملء السكينة : تعيد الكرة فلا تخطئه .

– وعلى هذا فإن أسيري سجن التامبل يكونان لي سواء قتل الأميرال أو لم يقتل .

– هو ذاك بشرط أن أحضر تعذيبهما واستنطاقهما .

ثم تركته الملكة ودخلت إلى غرفتها .

وبعد هنيهة كان مورفر خارجاً من اللوفر .

وقد سار تواً إلى المنزل الذي ينوي إطلاق الرصاص من نافـذته على الأميرال ..

أما صاحب هذا المنزل فقد كان أقفل أبوابه ونوافذه ، وأخبر الجيران انه مسافر إلى بيكارديا لزيارة أهله ، فكان الجيران يحسبون أن البيت غير مأهول .

فدخل مورفر إلى المنزل من باب سري صغير ، فوجد فيه صاحب المنزل فقال له : لقد آن الأوان .

فأجابه فلمر صاحب المنزل : لقد عرفت فاتبعني .

فتبعه مورفر ، وسار به فلمر إلى باب ففتحه وأراه جواداً مربوطـاً فقال له . هذا الجواد معد لفرارك ، وهذه الصحراء التي تراها تؤدي إلى نهر السين .

فقال مورفر . من الذي اهتم بأمر فراري ؟

– الدوق دي كيز ، وهذا الجواد من اصطبله ، فإنك تمتطيه وتسير بـه إلى باب سانت أنطوان ، فيأذنون لك بالخروج منه وتذهب تواً إلى ريمس ، وهناك تنتظر .

فابتسم مورفر وقال : أتظن ان فراري واجب .

– بل أرى انه لا بد منه أو تعرض نفسك للقتل .

– إذاً سأهرب .

وقد قال هذا القول وهو مصمم على البقاء .

ثم دخل الاثنان إلى القاعة فأخذ فلمر بندقية محشوة وقدمها لمورفر .

ففحصها مورفر وقال : إنها صالحة فهلم بنا ،لقد تركت الأميرال على وشك الخروج من اللوفر .

وذهب الاثنان إلى غرفة مشرفة على الشارع ، ووضع مورفر البندقية على حديد النافذة ولبث ينتظر مرور الأميرال .

وبعد هنيهة رأى الأميرال مقبلاً ومعه ستة من حراسه يسيرون خلفه وأمامه وهو في وسطهم .

ولما اقتربوا من النافذة ، وبلغوا مرمى البندقية صوب مورفر البندقية وأطلق النار .

وصاح كوليني صيحة ألم وأشار بيده الدامية إلى النافذة ، لأن الرصاصة أصابت يده .

فذعر الحراس وأحاطوا بالأميرال .

وفي ذلك الحين ، أطلق مورفر طلقاً ثانيـــاً ، فأصاب الأميرال في كتفه الأيسر .

وعندها اسرع الناس مهرولين حتى إذا علموا أن الذي أصيب هو الأميرال كوليني الهيكونوتي تراجعوا غير مكترثين .

وقد كان الأميرال سقط على الأرض بعد الإصابة الثانية .

فقال فلمر : لقد قتلته .

وابتسم مورفر وقال · هو ذاك فيما أظن .

- اهرب إذاً وأسرع في الفرار .

- وأنت ؟

- لا تخف علي .

وأسرع مورفر وخرج من الباب الذي كان مربوطاً عنده الجواد فامتطاه وأمعن في الفرار .

وأما فلمر فانه نزل إلى قبو منزله ففتح كوة في أرض القبو ونزل منها في سلم طويل واختفى .

وأما كوليني فانه لم يقتل كما توهم مورفر ، بل انه جرح بجرحـاً بالغاً في كتفه ، وتهافت بعض حراسه ، وهجم الباقون على باب المنزل الذي أطلقت البندقية من نافذته ، وجرد الذين كانوا حول كوليني سيوفهم ، كأنهم

يتأهبون لمعركة .

أما كوليني فانه نظر اليهم نظرة سكينة وقال لهم : ليسرع أحدكم باخبار الملك .

وأسرع واحد من الحراس وانطلق عدواً إلى اللوفر .

وقد حاول كوليني أن يقف ، فلم يستطع ، وجعل حراسه يلتمسون من الناس المتجمهرين أن يأتوهم بكرسي ينقلون عليها الأميرال ، فلم يجب التماسهم أحد .

وعند ذلك ، شبك إثنان من الحراس أيديهما بأيدي بعض ، وأجلس الآخرون كوليني على تلك الأيدي ، بحيث باتت كالكراسي ، وساروا به إلى قصره .

ولما ابتعدوا قليلاً جعل الناس يصيحون قائلين :

ليمت الهوكينوت !

وكان الحراس كلما تقدموا بالأميرال التقوا بفريق من الهوكينوت .

وكان بعضهم يبكون إشفاقاً على الأميرال ، وبعضهم يهيجون ويطلبون الانتقام .

ولكن كوليني لم يفقد رشده ، وكان يسكن هياجهم ويسألهم أن يخلدوا إلى السكون .

ولما وصلوا إلى شارع بيتهيسي ، حيث كان يقيم الأميرال كان عددهم قد بلغ نحو المائتين .

وقد هاجوا هياج المجانين وشهروا سيوفهم ينذرون ويتوعدون .

وكان الكاثوليكيون يمرون بهم جماعات وهم ساكتون واجمون .

وقد انتشر خبر جرح الأميرال بسرعة عجيبة ،ولم تمض ساعة حتى عرف به جميع أهل باريس .

وخرج الرجال مسلحين وجعلوا يطوفون في الحانات فرحين راقصين .

وخرج الرهبان من أديرتهم وجعلوا يقولون للناس .. إن الله ضرب عدو الكنيسة وانتقم للمؤمنين وإنها خير علامة لإبادة الهوكينوت .

فيصيح الناس بعد هذه الأقوال : لتحيى الكنيسة !

وكذلك الهوكينوت فقد تألبوا حول قصر الأميرال حتى بلغوا نحو الف رجل وعولوا على الدفاع حول ذلك القصر حتى الموت .

ولكنهم لم يلبثوا أن علموا أن جرح الأميرال غير خطر، وان الذي أطلق عليه الرصاص رجل من العوام . فردوا السيوف إلى أغمادها وسكن ثائرهم ، ولكنهم لبثوا واقفين حول القصر .

وبعد هنيهة حدث لغط عظيم بين المحتشدين ، فانهم رأوا مركبة قادمة إلى قصر الأميرال تتقدمها فرقة من الفرسان .

فصاحوا جميعهم قائلين :

— هوذا الملك .

ورفعوا قبعاتهم إحتراماً .

ومع ذلك فان الحقد تغلب عند بعضهم على الاحترام فصاحوا عندما رأوا الملك قائلين :

— الانتقام .. الانتقام !

أما المركبة فانها وقفت هنيهة قبل أن تدخل إلى قصر الأميرال . فرأى الناس فيها الملك وأمه كاترين وأخاه الدوق دانجو .

وكان الملك مصفر الوجه مضطرب الأعضاء ، فأطل من المركبة وقال يخاطب الهوكينوت :

— اني أريد أن انتقم للاميرال ايها السادة فوق ما تريدون .. فان الأميرال ضيفي وهو عندي بمنزلة أبي فاطمئنوا فسيقبض على القاتل ويعاقب عقاباً هائلاً تذكره تواريخ الأحقاب .

وتناقلت الأفواه كلمات الملك ، وصاحوا جميعهم بصوت واحد

هاتفين :

ليحيى الملك !

* * *

وكان السبب في قدوم الملك ، انـــه بينما كان يلعب بالكرة وهو فرح مسرور ، جاءه البارون دي بونت ، أحد حراس الأميرال كوليني وعليـــه علائم الذعر والدموع تذرف من عينيه .

ولم يصبر إلى أن يسأله الملك حسب الأصول ، بل بدأ الحديث فقال :

ـ مولاي انهم قتلوا الأميرال .

فجمد الدم في عروق الملك .

وسمع ملك النافار وتاليني وكونديه هذا القول المفجع فأسرعوا بالذهاب إلى قصر الأميرال .

أما الملك فقد كان اضطرابه شديداً لهذا النبأ فأمر البارون أن يخـــبره بتفاصيل الحادثة .

وبعد ان أخبره البارون بما عرفه القراء عن اصابة الأميرال ، القى الملك عصاه على الأرض مغضباً ، واصفر وجهه وجعل يضحك ضحكاً هـائلاً ، أشفق منه المقربون على الملك ، إذ كانوا يعلمون أن هذا الضحك مقدمة النوبة العصبية التي تصيبه ، أو مقدمة غضب هائل يندفع فيه مع تيار الطبع دون تحسب للعواقب .

غير ان النوبة لم تصبه هذه المرة ، بل انه غضب غضباً شديداً وقال :

ـ لقد كفى ما يجري الى الآن ، ففي كل يوم لنـــا قتيل .. أيها الباريسيون انكم لا تعملون الا بما يخطر لكم ، وانا أريد أن اقتدي بكم ، فلا أعمل الا بما يخطر لي ..

واذا كنتم تتخذون الكنيسة حجة لقتل الهوكينوت ، وسأجعل الهوكينوت ينتقمون منكم ومن الكنيسة ومن دي كيز .

وهنا توقف فجأة كأنه ذكر وصايا أمه ، أو خشي أن يكون قد تطرف في القول ، وأسرع بالعودة الى غرفته ، ونادى مستشاره ، ورئيس البوليس وقال للثاني : اني أمهلك ثلاثة أيام للقبض على قاتل صديقي الأميرال كوليني .

- ولكن يا مولاي ..

- اذهب ولا تنس اني أمهلتك ثلاثة ايام فاذا لم تقبض في خلالها على القاتل كنت شريكاً في القتل وأمرت بمحاكمتك

فانصرف رئيس البوليس وقلبه يخفق رعباً .

والتفت عند ذلك الى المستشار وقال له · ماذا جعلنا عقاب من يحمل الأسلحة ؟

فأجابه المستشار هو الغرامة يا مولاي على نسبة ثروة الغارم ، والحبس ..

- اذاً أريد اليوم اصدار أمر جديد يتضمن غير هذا العقاب وهو ..

ان كل من يحمل اسلحة على اختلاف انواعها يقبض عليه ويحبس في الباستيل عشرة أعوام دون محاكمة ..

ومن يحمل اسلحة ويخبئها تحت ثيابه يشنق بعد القبض عليه بيوم واحد .

- مولاي ، اني سأنشر هذا الأمر الآن ، ولكني التمس من مولاي ابداء ملاحظة .

- قل .

- هل يشمل هذا الأمر جميع الباريسين على الاطلاق ؟

- دون شك ما خلا النبلاء .

- هو ذاك يا مولاي ، غير انه لا يوجد باريسي يخرج دون سلاح في هذه الأيام

— وماذا تريد بذلك ، أتعني ان نظام البوليس عندنا مختل ، ثم تقـول ذلك بملء السكينة . .

كلا ، يجب ان نضع حداً لهذا الخلل ، ولكل شيء نهاية . ام تقول انه يصعب أن نقبض على جميع الباريسيين لأنهم كلهم مسلحون . . نعم نقبض عليهم جميعهم .

ولكن اطمئن يا حضرة المستشار فاننا اذا شنقنا عشرين رجلاً فقط منهم كانوا خير عبرة للآخرين ، فانصرف الآن وانشر هذا الامر .

فانحنى المستشار وخرج .

ثم التفت الى من كان حوله من الاعيان وقال: أريد أن تجاملوا الهوكينوت فانهم ضيوفي ، ومن أراد منكم تجريد حسامه فليجرده في خدمتنا وخـدمـة المملكة ، لا في سبيل الحروب الدينية . ان الهوكينوت الآن من حلفائنـا وأريد ان تعلموا ذلك .

وعند ذلك اشار اشارة فانصرف الجميع وجلس في كرسيه يحدث نفسه فيقول :

اني اود لو خسفت الارض بقاتل الاميرال ، فقد تأخرت الحالة بذلك ولا راحة لي الا بهذه الحرب التي تبعـد جميع الهوكينوت عن المملكة في اثر زعيمهم ، فليبعدوا عني اعش آمناً مطمئناً .

وبعد ، فان امي تقول ان هذا الاميرال يخونني ويخدعني .

وهب انها كانت مصيبة في مزاعمها ، اليس من الحكمة ان أعطيه جيشـاً فيسافر به الى هولندا مع قومه واخلص من فتنه .

ومن يبقى بعد بعده غير هنري دي نافار و الدوق دي كيز ؟

اما هنري دي نافار فقد عهدت الى أختي مرغريت بمراقبته وهي تكفيني شره لانها تحبني .

ومتى امنت جميع أعدائي ولم يبق بينهم غير دي كيز فاني لا أعبأ به .

هذه هي سياستي ، وهي افضل من سياسة البابا وسياسة أمي ، فان السياستين واحدة كما ارى .

ثم اطرق هنيهة مفكراً وقال :

– نعم ، لا يبقى علي غير دي كيز .. واخي الدوق دانجـو حبيب امي !.

واقام الملك في غرفته نحو ساعتين وحده اظهاراً لحزنه على الاميرال .

ثم تغدى على عجل وابلغ امه واخاه الدوق دانجو انه يريد ان يصحباه الى قصر الاميرال .

وبعد هنيهة سار الثلاثة في مركبة ملكية يخفرهم قائد الحرس بحراسه .

* * *

وكانت الملكة وابنها الدوق دانجو يتحدثان خلال المسير بعجيبة جديدة حدثت في كنيسة سانت جرمين .

وهي انه منذ ثلاثة ايام دخل الكاهن الى الكنيسة فوجد جرن الماء المقدس قد تحولت فيه المياه الى دماء .

وهي دماء اليس حين كان الراهب يبل منديله بذلك الماء ويمسح به جراح تلك المنكودة .

وكانت الملكة تقول : لقد تحول الماء منذ بضعة ايام الى دم في الدير ، وامس قد تحول الى دم في الكنيسة ، فلا شك ان تكرار هذه العجائب يدل على ان الله يريد سفك الدماء .

فأجابها الدوق : ان الامر جلي واضح ، وكذلك الشعب ، فقد كاد يثور علينا لرأفتنا بأولئك الهوكينوت .

وكان الملك يسمع حديثهما مصغياً ويقول في نفسه :

قد يكون هذا حقيقة إرادة الله ، وإلا فما معنى تكرار هـذه العجائب بشكل واحد .

غير انه حين وقفت المركبة عند باب قصر الأميرال ورأى الملك جموع الهوكينوت ثائرين ناقين ، رجع عن الاعتقاد بتلك العجائب وخاطب الجموع بما تقدم لنا ذكره ..

وصاحوا جميعهم بصوت واحد :

ليحيى الملك !

ودخل الملك وأمه واخوه إلى غرفة كوليني . فبرقت أسرة كوليني سروراً حين رآه .

ودنا الملك منه فعانقه وقال :

— أرجو أن يشنق هذا المعتدي الأثيم قريبـاً ، وأن لا تكون في خطر ..

وكان طبيب الملك واقفاً عند سرير الجريح ، فانحنى أمام الملك وقال:

— إني أضمن يا مولاي شفاء الأميرال في أسبوعين .

وقال الدوق دانجو :

— لقد ساءني جداً ما أصابك يا حضرة الأميرال وأرجو أن يكون الشفاء قريباً باذن الله .

ومسحت الملكة كاترين دموعها وقالت :

— أسأل الله أن يحرس أشهر أبطالنا وقوادنا ، فإن اعتمادنا عليك وثقتنـا بك لا يقفان عند حد .

وظهرت علائم السرور على جميع من كان في الغرفة من الهوكينوت وهتفوا للملك وامه وأخيه .

وأقام الملك نحو ساعة عند الأميرال ، ثم انصرف على أن يعود ايضاً في الغد ليراه .

وقد تلقى الهوكينوت هذه الأقوال بمثل الهتاف السابق .

ونادى الملك عند ذلك كوسيني رئيس حراسه وقـال له بصوت مرتفع يسمعه الجميع :

– كم لديك من الفرسان ؟

– فرقة كاملة يا مولاي .

– إذاً ... فهي تكفيك للدفـاع عن هـذا القصر ، إذا أرادوا مهاجمته ..

– اني أقاول بفرقتي يا مولاي ثلاثة آلاف محارب ..

– حسناً فابق هنا برجالك ، فقد عهدت اليك حراسة هـذا القصر ، وأنت المسؤول عن الأميرال .

– ولكن ، من يخفر جلالتك إلى اللوفر يا مولاي ؟

– يخفرني أشراف الهوكينوت ، ويسرني أن يكون لي ولو ، مرة مثل هذا الحرس .

وارتفعت أصوات الهوكينوت بالهتاف حتى كادت تطبق القصر .

وغمزت الملكة كاترين ابنها الدوق دانجو وقد فرحت فرحاً عظيمـاً وقالت للملك :

– ما هذا الخاطر الجميل يا بني إنه يشبه أن يكون وحياً !

فقال لها : اليس كذلك يا أماه ، ألا يجمل بملك فرنسا أن يدع حراسه عند ضيفه الجريح .

– أحسنت غاية الاحسان ، يا بني ، فهـذا خير مـا يعمل في هذا المقـام ..

وعلى هذا خلا قصر الأميرال من الهوكينوت ..

وسار جميع رجال الهوكينوت في حراسة الملك إلى اللوفر .

وفي المساء أحيى الملك حفلة باهرة لسلامة الأميرال من الخطر .

وكان فرح الملك أكيداً ، فأعلن أن الحملة على الدوق البـــا تسير بعد أسبوعين ، أي في يوم شفاء الأميرال .

وقد قامر تلك الليلة مع هنري دي نافار ، فربح منه هنري مئتي دينار ، وسار بها إلى إمرأته مرغريت وقال :

– إذا دام الأمر على هذا المنوال ، أصبحنـــا بفضل أخيك من الأغنياء . .

ونظرت مرغريت إلى ما حواليها نظرة قلق وقالت :

– هنري . . يجب الحذر .

– وممن أحذر أيتها الحبيبة ، فإن أخاك طاهر القلب ، سليم النية .

– ربما ، ولكن أنظر إلى أمي ، فإني لم أرها سرت مثل هذا السرور قبل اليوم .

وفي الساعة العاشرة انصرفت الملكة كاترين إلى غرفتها بعد أن ودعت جماعة الهوكينوت وقالت لهم بصوت مرتفع :

– أسعد الله ليلتكم يا أهل الإصلاح وأنا ذاهبة لأصلي من أجلكم .

وعند انتصاف الليل أقفر اللوفر وساد فيه السكون .

- ١٧ -

الليلة الهائلة

كان الملك قد دخل إلى غرفة رقاده فساعده خادمه الخاص على تغيير ثيابه ، ثم البسه ملابس النوم ، وانصرف بعد أن أطفأ جميع الأنوار ، ولم يبق غير مصباح زيتي ضعيف النور .

وقد مضى على ذلك ساعة والملك مضطجع لا يستطيع الرقاد .

فقد كان يفتكر ، ولكنه لم يكن يفتكر بأمور السياسة وتدبير المملكة بل كان شأنه في تفكيره ، شأن معظم أهل المزاج العصبي في استرسالهم إلى التصورات الخيالية .

وبدأت تمر به خيالات الهوكينوت ووعيدهم وسيوفهم المشهرة في شارع بيتهيسي . .

فيضطرب لهذا التصور إلى أن يفتكر بما وعد به من الانتقام ، وبما سمعه من أصوات الهتاف والدعاء ، فيخفف ما عنده ، وينصرف بأفكاره إلى خليلته ماري توشيت .

وعند ذلك ، جعل يناجي تلك الخليلة وهو يبتسم ، حتى نام وهو يحلم بها .

وفيما هو في أعذب أحلامه سمع نقراً على باب غرفته فصحا وجلس في سريره وهو يصغي

وكان لغرفته المقسمة ثلاثة أبواب، احدها باب كبير ، وهو الذي يفتحونه حين رقاده ودخول المربين اليه في الصباح .

وباب كان يخرج منه إلى قاعة الطعام .

وباب ثالث يشرف على رواق ضيق ، فلم يكن يدخل منه غير الملك وأمه .

وقد سمع صوت الطرق على ذلك الباب ، فأيقن أن الطارق أمه فوثب من سريره اليه وقال : أهذا أنت يا أماه ؟

- نعم يا بني ، ويجب أن أحدثك في الحال .

ففتح الباب ، ودخلت أمه فبادأته بالحديث قائلة :

- لقد اجتمع عندي الآن يا بني مستشارك ، والمسيو كونديه ، والدوق دي نافرس ، والمارشال دي تافان ، وأخوك الدوق دانجو للمداولة واتخاذ الوسيلة الناجعة لانقاذك وانقاذ المملكة ، وهم ينتظرون الملك لإطلاعه على نتيجة قراراتهم بهذا الشأن .

وجمد هنيهة ثم قال :

- إني لو لم أكن واثقاً من ثبات جأشك ، وقوة عقلك ، لما شككت انك أصبت بمس من الجنون .. وكيف ذلك يا أماه أتيقظينني من رقادي ، وتأتين إلي بعد انتصاف الليل ، لتخبريني ان هؤلاء الأسياد يتداولون .

وبعد ، فبأي حق يتداولون في شؤون المملكة ومن الذي دعاهم إلى الاجتماع ، وأي خطر ينذرني وينذر المملكة ؟

هل عرف الاسبانيون أني جردت حملة على هولندا ، فاغتنموا هذه الفرصة لمهاجمتنا ؟

أم حل وباء الطاعون في باريس .

ثم ما شأن كوندي في المداولة وهو ابن طباخ أبي فلينصرف إلى إدارة

المطابخ وليدع لنا شؤون الملك .

وما شأن دي برياك في هذه المداولة وهو رجل طماع لا يروق له غير سفك الدماء كي يغنم منها بعض الألقاب ..

بل ما شأن جميع المتداولين ، وليتداولوا قدر ما يشاؤون وليدعوني أنام بسلام .

ثم أدار ظهره للملكة وحاول الصعود إلى سريره .

وقالت له أمه بلء البرود :

– شارل ... لا تصعد الى سريرك ، أو يكون ذلك آخر صعودك اليه .

وعاد الملك اليها وقد احمرت عيناه لذعره مما سمع واصفر وجهه فقال : ولكن ماذا حدث ؟

وعلمت الملكة ان الرعب قد تولاه وقالت :

– إن لك لحسن الطالع يا بني أصدقاء يسهرون عليك ، فقد حدث انه لولا يقظتهم لهوجم اللوفر بعد يوم على الأقل ، فقتل الملك ونفيت أمه .

ولكن هؤلاء المخلصين الذين ذكرت لك أسماءهم ، أخبروني فأتيت لأخبرك ..

والآن عد إلى الرقاد إذا أحببت وأنا أخبر اولئك المخلصين أنه لا فائدة من اجتماعهم ، فان الملك يريد أن ينام .

ووضع يده فوق جبينه وقال : يهجمون على اللوفر .. يقتلون الملك ما هذا الحلم ، بل ما هذا الجنون .

فأخذت الملكة ذراعه وضغطت عليه بعنف وقالت :

– شارل .. لست أنت الحالم ، بل أنا الحالمة حين أراك لا تثق بأمك وباخيك وبمن يحبونك ، اولئك الذين يضمن لك صدق ودادهم إتصالهم بخدمتك .

وأما الجنون ، فهو أن تسلم نفسك مكتوف اليدين والرجلين إلى اولئك

الهوكينوت الذين لا يفتأون يدسون الدسائس وأنت غافل عنهم، حتى يظفروا بما يريدون، ولا ينالوا ذلك إلا حين يقتلون ابن الكنيسة الأكبر، أي ملك فرنسا ..

وماذا عملت يا شارل ..

إنك غمرت أولئك الأعداء باحسانك، وأظهرت لهم من ضروب العطف والمجاملة ما حسبوه ضعفاً فطمعوا فيك وبعرشك.

إنك أرضيت أعداءك وأسخطت أصدقاءك، بل أرسلت اليأس إلى قلب الكثلكة، فقام الطامعون يحاولون الانتصار لها ..

وهب دي كيز، برئاسة ثلاثة آلاف سيد، يريد بالرغم عنك إنقاذ فرنسا والكنيسة.

ولقد أصبحت الآن بين قوتين هائلتين.

إحداهما الهوكينوت، اولئك المتكبرون الجريئون الذين لا تثنيهم الصعاب عن تأييد مذهبهم دون مذهبنا.

وقوة الكاثوليكيين القانطين الناقمين المتأهبين للثورة العامة.

إن ذلك خطير يا شارل، حتى اني بت أسائل نفسي إذا كان يجب إنقاذ حياتنا بالهرب، قبل إنقاذ عرشنا وشرفنا.

وإن خطتك التي نهجتها اليوم قد نفخت الرماد عن النار ..

بل القت النار في البارود، لأنك حين أقسمت أن تنتقم لذلك الأميرال العزيز عن ذلك الجرح الذي أصيب به، أثرت الشعب بجملته، وحدثت هاتان الأعجوبتان، فكان ذلك دليلا عندهم ان الله يريد الانتقام من أعداء دينه.

ثم إنك أصدرت أمرك بمنع حمل السلاح فجاءني رؤساء البوليس ينادون بالويل، ويقولون انهم لا يستطيعون مقاومة سخط الشعب.

وقد زدت طينة هذا السخط بلة بأن جعلت حراسك اليوم من الهوكينوت

كأنه لم يبق من اشراف الكاثوليك من يتولى حراسة الملك .

نعم إني اعلم حقيقة قصدك ، وهو إنك لا تريد غير السلم ، وانك تريد ان تتخلص من الهوكينوت بارسالهم مع قائدهم الأكبر إلى هولندا لمحاربة دوق البا ، فتبقى في بلادك دون منازع .

ولكن الأمر قد التوى علينا الآن ولم يبق لدينا غير ساعات معدودة إذا لم نعزم بها العزم الأكيد ، ونضرب الضربة القاضية ، دارت الدائرة علينا وانقلبنا شر منقلب .

ثم رفعت يديها إلى السماء وقالت :

– رباه أوح اليه ان امه صادقة وان الساعة قد دنت ، وانه لم يبق لديه إلا ان يقتل او يموت .

فاضطرب وقال :

– أنا اقتل .. الا تحدثوني إلا بالقتل . ومن تريدون ان اقتل ؟

– كوليني !.

– محال !

ثم شعر كأنه قد اصيب بدوار ، ورعب رعباً عظيماً ، ونظر إلى ما حواليه نظرات المجانين ، إذ كبر لديه ان يقتل هذا الأميرال وهو ضيفه في بلاده ، بل هو صديقه الحميم ، وهو الذي دعاه إلى باريس ، فكأنه لم يدعه إلا لاغتياله وهي خيانة يأنف منها اللصوص .

وكانت أمه قد حدثته مراراً بشأن هذا الأميرال وأكدت له انه ضده ، حتى اوشك ان يصدقها ولم يعد يعوزه إلا البراهين فقال لها :

- لقد قلت لي يا اماه انه لديك براهين تثبت خيانة كوليني والهوكينوت فأين هي هذه البراهين ؟

– اريد البراهين . إنك ستنالها .

- ومتى يكون ذلك .

- غداً صباحاً ..

واصغ إلي ، فإني تمكنت من القبض على رجلين يعرفان كثيراً من أسرار دي مونغورانسي وكوليني .

وأحد هذين الرجلين هو ذلك الشاب المدعو الشفاليبه بارداليان، وهو ذلك الرجل الجريء الذي جاء مرة إلى اللوفر مع المارشال فرنسوا مونغورانسي ، وكان من امره ما لا تزال تذكره .

واما الرجل الآخر فهو ابوه .

وقد قبضت على هذين الرجلين وسأحضر استنطاقهما غداً في سجن التامبل واحضر الك خلاصة اقوالهما فتعلم يقيناً ان كوليني لم يحضر إلى باريس ، إلا لقتلك .

وكانت الملكة تتكلم بلهجة تدل على الاقتناع التام مما تقول .

ومع ذلك فإن الملك لم يتظاهر بالتسليم والوثوق فقال لها :

- حسناً يا اماه فسأقرأ غداً اقوال السجينين وسنرى .

- ليس هذا كل ما جئت لأجله يا بني ، فقد قلت لك ان المارشال دي تافار مقيم عندي الآن ، فقلت لي انك غير واثق من هذا المارشال .

وانا كنت مرتابة ريبك غير اني لا اعتمد في اعمالي على الظنون ، بل ابحث عن الحقيقة إلى ان اجدها ، وقد وجدتها .

فسقط شارل على كرسيه وقد خارت قواه فقال :

- إذاً يوجد حقيقة عن هذا المارشال .

- بل حقيقة هائلة ؟

اتعلم لماذا اتى المارشال الى اللوفر ؟

ان هنري دي كيز قد ارسله .

وغير خاف عليك ان هذا المارشال يحكم على ثلاثة ارباع الحامية في باريس فإذا اشار اشارة واحدة زحف اربعة آلاف جندي الى اللوفر .

وهذا الرجل من أشياع دي كيز ، وإنما جاء إلى اللوفر كي يستوثق من ملك فرنسا ، فإذا وجد له قوة وحولاً رجع على عقبيه منكصاً .

وإذا الفاه ضعيف العزم فاتر الهمة خائر القوى منخلع القلب عاجزاً عن تأييد عرشه عاد إلى مولاه دي كيز وقال له : سر فقد خلا لك الجو وتمهدت سبل العرش .

وأما شرفك وحياتك فيكونان تحت رحمته .

فتشجع يا ابني وانهج منـــاهج السداد والحكمة وانظر إلى الهوكينوت يزأرون كالأسود حول عرشك ، وإلى دي كيز يراقب كالثعلب ضعفك وانحطاطك ، فيزحف اليك وينقض عليك ، ويعينه الشعب ، لأنك أصبحت بمسالمة الهوكينوت من أعداء الشعب .

فوقف شارل وقد تحمس لأقوال أمه وقال :

– نعم .. لقد عرفت كثيراً من خيانات دي كيز فلا يجب الـتردد في الحكم عليه .

نعم اني أريد أن يقبض على هذا الخـائن للفور ، وأريد أن يقبض على المارشال في غرفتك .

ثم حاول أن ينادي حراسه .

فأسرعت أمه ووضعت يدها على فمه كي تمنعه عن النداء .

فأفلت الملك منها بعنف وقال :

– العلك أنت أيضاً معهم .

– ماذا تفعل يا شارل ، وأين هم حراسك فيقبضوا على الدوق دي كيز ؟ ألا فاعلم أن أهل باريس بجملتهم يهبون للدفاع عنه .

ولست أنت الآن في حـاجة إلى الشدة والجرأة ، بل أنت أحوج إلى الحكمة .

دع دي كيز ينام مطمئناً فلا بد لنا من القبض عليه حين سنوح الفرصـة

وكل ما يجب فعله ، هو أن تغل يده فلا ، يستطيع الليلة ، أو غداً أن يفعل شيئاً ، ولذلك يجب أن يعلم المارشال تافان إنك عازم عزماً أكيداً على إنقاذ الكنيسة .

تعال معي يا ابني

تعال نعمل يداً واحدة ، لتعضيد تاجك الذي حامت عليه عيون الحساد .

وكانت الملكة ، تتكلم بلهجة القادر العزيز ، وقد مثلت لولدها الضعيف الهزيل ان تاجه يتزعزع ، وانها قادرة على توطيده ، فبات معها كالطفل لا إرادة له .

وعند ذلك أخذت أمه بيده وسارت به إلى حيث كانوا مجتمعين في غرفتها ، ففتحت الملكة باب الغرفة وتركت الملك يدخل قبلها .

ووقف الجميع إجلالاً وقد أطرقوا الرؤوس .

أما الملك فإنه تمكن من ضبط نفسه وعادت اليه سكينته فقال :

ـ أشكركم أيها السادة لاجابتكم دعوتي فاجلسوا ولنتحدث بما يجب أن نتداول به من الأمور ، وابدأ أنت يا حضرة المستشار .

فبدأ المستشار حديثه قائلا :

- لقد نشرت يا مولاي اليوم أمر جلالتكم بمنع جميع الباريسين عن حمل السلاح، ولم يكد ينتشر هذا الأمر بينهم حتى أقبلوا عصابات وجعلوا يطوفون في الشوارع وهم مدججون بالسلاح .

وقد جمع رجال حفظ الأمن جنودهم ، ولكني أرى انه يصعب علينا مقاومة هذه القوة بالقوة .

والتمس من مولاي أن يأذن لي بالتصريح فأقول .

انه إذا بقي كوليني يوماً واحداً في قيد الحياة جعل الشعب منازل باريس أنقاضاً والله يعلم ما يكون من ثورتهم .

فقال الملك : إذاً .. أنت ترتئي ، أن نقبض على الأميرال كوليني ومحاكمته .

– بل أرتئي يا سيدي ، أن يقبض على الأميرال ويقتل في الحال دون محاكمة .

ولم يظهر الملك دهشة لهذا الرأي ، ولكن وجهه اصفر قليلاً فقال : وأنت يا موسيو دي نيفرس ماذا ترتئي ؟

فقال الدوق دي نيفرس : إني رأيت الليلة ، يا مولاي ، عصابات من الهوكينوت يتهمون جلالتكم بالمواربة ، وانكم تتظاهرون تظاهراً بالعطف عليهم .

وقد رأيتهم ناقمين لما أصيب به الأميرال وقد عولوا على الفرار .

ثم لما علموا الحقيقة ، وهي أن الاميرال لم يقتل ، أظهروا النقمة على الكاثوليك وعولوا على إبادتهم .

والذي أراه إني أرتئي رأي المستشار ، وهو انه إذا بقي حياً إلى الغد ، فقد قضي علينا جميعنا القضاء المبرم .

وسأل الملك المارشال تافان فأجاب بما أجاب الاثنان .

وأكد الدوق دانجو ان المارشال فرنسوا مونمورانسي سينضم مع أحزابه السياسية إلى الهوكينوت لخلع الملك .

وضم كوندي قبضتيه وقال غاضباً : إني سأقتل الأميرال بيدي .

أما الملكة كاترين فلم تقل شيئاً ، ولكنها كانت تسمع ما يقال وهي تبتسم .

غير انها لما رأت الملك قد اصفر وجهه حتى بات كالأموات نظرت اليه وقالت :

– إننا جميعنا وجميع الكاثوليكيين ننتظر أن نسمع منك تلك الكلمة التي تنقذنا وتنقذ الكثلكة

فقال : ماذا تريدون مني ؟ أتريدون أن يموت الأميرال ؟

فصاحوا جميعهم بصوت واحد : نعم ، نعم .. ليمت !

فنهض عن كرسيه وجعل يسير في الغرفة بخطوات مضطربة وهو يمسح بيده الباردة العرق المنصب من جبينه .

وكانت كاترين تراقب حركاته وقد وضعت يدها على قبضة خنجرها واتقدت عيناها باللهب .

ولا ندري ما كان يجول تلك الساعة في نفسها الشريرة ، فقد يكون خطر لها قتل ولدها لأنه غير كفؤ لها بالشر .

أما الملك فكان يسير وهو يتمتم كلمات لا معنى لها :

حتى وقف أمام تمثال صليب وجعل ينظر إلى المسيح المصلوب .

فلما رأته أمه وقف هذه الوقفة أسرعت فدنت من التمثال وقالت :

ـ أيها الرب العلي العظيم ، لا ترحمني وصب علي لعناتك ، فاني حملت بين أحشائي ولداً يحتقر وصاياك ، ولا يحفل بأمرك ، ولا يريد إلا هدم هيكلك المقدس .

فجمد الدم في عروق الملك وقال :

ـ إنك تجدفين يا أماه ، فما هذا الكفر .

فمضت الملكة في حديثها تخاطب التمثال وقالت :

ـ أعني أيها الرب القادر ، اني لم أستطع إقناع ولدي ، على اني اود أن تفترسني الوحوش قبل أن ارى اعداء الدين ينتصرون علينا بسبب ضعف ملك فرنسا .

ـ كفى .. كفى يا أماه فماذا تريدون ؟

ـ قتل الكافر .

ـ قتل كوليني ؟

- نعم ، نعم هو بعينه . وقد عرفته كما عرفناه جميعنا فهو الكافر المنافق الخادع وهو الذي قتل إلى الآن ستة آلاف من أبطال الكاثوليك في معارك مختلفة ، وهو الذي جاء باريس كي يفتك بالملك ، ويضرب فرنسا في دينها الضربة القاضية .

- ولكنه ضيفي يا أماه ... وأنتم أيها السادة ألا تعلمون ما يجب على الشريف من احترام الضيوف . ألا أصم شرفي بوصمة عار لا تمحى إذا قتلت هذا الضيف .

فقالت الملكة : بل هو الشيطان الرجيم قذفته الينا جهنم .

وقال كوندي: إني إذا لم يقتل عدت إلى إيطاليا وأقمت بجوار الحبر الأقدس فلا أرى بعيني ما يمس ديني .

وقال المستشار ، وأنا التمس ، من مولاي ، أن يأذن لي بالعودة إلى أرضي .

وقال المارشال تافان : وأنا أقدم سيفي لدوق البا .

فصاحت بهم كاترين قائلة :

- سافروا جميعكم يا زهرة أبناء فرنسا وتخلوا عن الملك ... أما أنا فسأبقى مع ولدي وحدي ، وأموت أمام عينيه وأغطيه بجسمي حين ينقض عليه الهوكينوت فأموت قبل أن أراه يموت .

ثم دنت من الملك وهمست في أذنه قائلة :

« وقبل أن يغدو هنري دي كيز ملكاً لفرنسا ، مقابل إنقاذه المملكة من الهوكينوت » .

فنظر الملك عندها اليهم نظرة القانط وقال :

- إنكم تريدون جميعكم قتله فاقتلوا .. اقتلوا الأميرال .. اقتلوا ضيفي .. اقتلوا هذا الرجل الشيخ الذي كنت أدعوه أبي ، واقتلوا معه كل هوكينوتي في فرنسا ، كي لا يبقى بينهم من يقول ان ملك فرنسا من الخائنين ،

اقتلوا .. اقتلوا !

ثم جعل يضحك ذلك الضحك الذي يتقدم نوبته العصبية .

فأبرقت أسرة الملكة بأشعة الفرح وقالت :

– لقد نلنا أخيراً ما نريد .

ثم سارت بالجميع إلى غرفة مجاورة ، بينما كان الملك قد سقط صريع النوبة العصبية .

فنظرت الى المارشال تافان نظرة خاصة وقالت له :

– إني أعهد اليك يا مارشال ان تخبر الدوق دي كيز ان الملك قد عول على إنقاذ الكنيسة والمملكة وإننا معتمدون عليه .

فانحنى المارشال إشارة إلى الامتثال ، وعادت الملكة الى الحديث فقالت :

– إذهبوا الآن أيها السادة ، إن الساعة قد بلغت الثالثة بعد انتصاف الليل ، وعودوا إلي في الساعة الثامنة من الصباح ، ثم أحب أن تحضروا معكم دي كيز ودي مال ودي مونتبانسيه ودامفيل ، على أن تكونوا جميعكم هنا في الثامنة من الصباح .

لا تنسوا إذ ليس لدينا غير يوم واحد نتأهب فيه لتلك المعركة الكبرى التي نرجو ان ننقذ بعدها المملكة والكنيسة .

إذهبوا وليأخذ الله بيدكم فيما تفعلون .

فانصرفوا جميعهم وهم يدعون للملكة ، ما خلا الدوق دانجو ، فإنه بقي مع أمه .

فأخذت كاترين يده بين يديها ، ونظرت اليه نظرة حنو وقالت له :

– ستغدو ملكاً يا بني فاذهب الآن واسترح .

ثم تركها وانصرف ، بحيث بقيت الملكة وحدها في تلك الغرفة .

وبعد أن أقامت هنيهة وهي مطرقة تفكر قامت إلى الباب ففتحته ونادت

ريفيه الفلكي .

فلبى الفلكي نداءها ودخل إلى غرفتها وقد شاب رأسه ، وأنهك الحزن على ولده قواه فأصبح وله هيئة الشيوخ .

فقالت له الملكة : لقد آن الأوان يا رينيه فأبلغ كريسي وكرفيه وبزوكي ليكونوا متأهبين .

- سأفعل يا سيدتي .

- إن الحادثة تجري في ليلة غد ، وستتولى أنت الإشارة في الساعة الثالثة بعد انتصاف الليل ، وهي أجدر الساعات بمثل مشروعنا ، فان الناس يكونون نياماً ، فتمين رجلاً ليقف في قبة الجرس في كنيسة سانت جرمين .

فارتعش رينيه ، وبدت عليه علائم الذعر ، لأن ولده ماريلياك قتل في هذه الكنيسة .

فهزت الملكة كتفيها وقالت له :

- العلك جننت ؟

- كلا فسأذهب بنفسي إلى تلك القبة ، وأدق جرسها تلك الدقات الخاصة بالأموات لأن ولدي لم يدق له جرس .

فقالت الملكة في نفسها ولده .. وهو ولدي أيضاً .

ولكنها أرادت أن تنفي عنها هذه الأفكار ، فغيرت الحديث وقالت له :

- ماذا صنعت باورا يا رينيه ؟

- إنها ماتت .

- وبانيكارولا ؟

- لا أعلم ماذا جرى له ؟

- يجب أن تعلم ، لان هذا الرجل قد يكون شديد الخطر إذا عاش

بعد حبيبته .
واذهب عني الآن لاني أريد ان أشتغل .

فانصرف ربنيه ساكتاً واجماً وقد صبغ وجهه بصفرة الموت .

أما الملكة فانها قامت إلى مائدة فأخذت قلماً وبدأت تكتب دون أن يدب النعاس إلى جفنيها ، في حين ان الفجر كاد ينبثق .

ولكنها توقفت فجأة عن الكتابة ، وتنهدت تنهداً عميقاً ثم قالت : إنه ولدي .

* * *

أما الملك ، فإنه بعد أن زالت عنه أعراض تلك النوبة التي فاجأته ، ذهب إلى غرفته وهو مفكر مهموم ، فانطرح على سريره دون أن يجد الى الرقاد سبيلاً .

ثم وثب من سريره وقد كبرت عليه الجناية .

فجعل يمشي في الغرفة مشية المجانين ، وهو لا يستطيع ان يفتكر بعواقب تلك الأمور الهائلة ، التي أكرهوه على إصدارها ، ولا يستطيع طرد هذه الأفكار .

فجعل يقول وأسنانه تصطك : رباه ماذا أصنع ؟ وكيف السبيل إلى طرد هذه الأفكار الهائلة ؟

ثم خطر له خاطر ، فأنار جميع المصابيح الموجودة في غرفته ، وقال في نفسه :

– لأشتغل في كتابي عسى أرتاح بالشغل .

وذهب الى درج فأخذ منه دفتراً ضخماً مكتوباً على ظهره هذا العنوان

« صيد الملك »[1] .

وأخذ يقلب صفحاته بيد تضطرب ، حتى وصل الى آخر صفحة مكتوبة فقرأ الجملة الأخيرة منها وهي :

« لما أحدقنا بالحيوان وأشرفنا على ذبحه ... »

وهنـا اضطرب وقال : رباه ! .. أية مذبحـة أفظع من تلك المذبحة التي يعدونها الآن ؟ .

ثم القى الدفتر مغضباً ، وقد عاودته النوبة بشكل شديد .

وسقط على الأرض ، وغرست أظافره بسجـادة الغرفة ، وجحظت عيناه ، وخرج الزبد من فمـه ، وجعل يصيح قائلا ، دون أن يعلم ما يقول :

– أمي ، أمي .. هوذا كيز يريد قتلي .. الى القاتل .. ومن هـذا الذي يسير وراءه ؟

إنه كوليني .. هوذا الهوكينوت .. اقتلوهم .. اقتلوهم .. ضعوا باردليان في غرفة التعذيب .. أنت أيها الرجـل ، قل ماذا تعلم ؟ أيريد كيز وكوليني قتلي ؟ ..

قل .. هوذا الأعداء قد أتوا .. كوسيني ، إقبض على القتلة ، إقبض على أخي ..

ويح لنفسي . ما هذه الدماء التي أراها ؟ .. رباه من أين أتت هذه الدماء فهي تجري كالأنهار ؟

---

(١) هذا الكتاب الفه الملك شـارل التاسع عن الصيد ، فنقحه فيولوري وطبعه سنة ١٦٢٥ .

ماري ، هلم بنا نهرب من باريس ، فإنها جهنم .. هلم نهرب ، فلا أطيق النظر الى الدماء

ولبث ذلك الملك المنكود نحو ساعة على هـــذه الحال ، الى أن زالت النوبة فنام .

ولما صحا كانت الشمس قد تعالت ، فشعر بتعب عظيم وقال : أحمد الله ، ان ما رأيته لم يكن غير حلم .

- ١٨ -

غرفة التعذيب

بينما كانت هذه الحوادث التاريخية تجري في اللوفر ، وهي تلك الحوادث الهائلة ، التي قتلت ذلك الملك المنكود غماً وندماً ، ووطدت الملك لأخيه الدوق دانجو .

كان بارداليان وابنه نائمين في سجن التامبل ، على كيسين من القش ، جنباً الى جنب نوماً قلقاً مضطرباً ، ليقينهما أن هـــذه الليلة كانت آخر لياليهما في الوجود .

فإن صباح ذلك اليـــوم ، أي يوم السبت الواقع في ٢٣ أغسطس ، كان قد تعين موعداً لتعذيبهما ، ومــــا وراء ذلك التعذيب ، غـــير الموت الشنيع .

وأي موت أفظع من الموت في تلك السجون ، فإن من يقضي عليه نكد

الطالع بالتعذيب ، تسحق عظامه بضغط الآلات وتمزق جـــلده الكلاليب الحامية وتشد رجلاه بين آلتين من الحديد حتى تتقطع المفاصل وتنفجر العروق وتسيل الدماء .

هذا هو الموت الذي كان يتوقعه بارداليان وابنه في الساعة العاشرة من صباح السبت .

ومع ذلك فقد تمكنا من الرقاد في تلك الليلة .

وقد كان الاثنان منذ اجتمعا في ذلك السجن أي منذ ستة ايام لم يردهما شيء من الاخبار .

لان حاكم السجن لم يفتقــدهما ، فقد حمله إدمانه السكر ، على نسيانهما .

حتى أنهما لم يريا السجان نفسه لانهم كانوا يدخلون اليهما الطعام والشراب من شق تحت الباب .

ولم يكونا يسمعان ، غير وقع أقدام الخفـــير ، حين كان يتمشى قرب بابهما .

وكان بارداليان الاصغر ، في مـــدة الايام الثلاثة الاولى ، يبحث عن وسيلة للفرار ، مع ان أباه أخـبره أنه بحث قبله ، ووجد الفرار مستحيلاً .

وقد نقر على جدران الغرفة ليعلم مقدار ثخانتها ، فوجـد انها لا تقل عن خمسة أقدام بحيث يستحيل نقبها دون آلات .

ولو وجدت لديه تلك الآلات فانه اذا تمكن بها من نقب الجدار، فلا يخرج من سجنه الا الى سجن آخر .

وأما النافذة التي كان يدخل منها النور فقد كانت عالية جداً يستحيـل الوصول اليها .

وليس لديه شيء من معدات التسلق .

وكذلك الباب ، فقد كان من خشب السنديان الغليظ ، وهو مصفح بالحديد .

وقد أدرك بارداليان الاصغر ، أن القوة لا تفيد ، فرأى أن يستعمل الحيلة .

فانبطح على بطنه ، عند ذلك الشق الذي يدخلون اليه الطعام منه ، ونادى الحارس ، وعرض عليه الف ريال ، اذا ساعده على الخروج من السجن .

وهو لم يكن لديه ريال واحد ، ولكنه كان واثقاً ان المارشال فرنسوا يدفع عنه هذه القيمة .

فأجاب الحارس . إن حاكم السجن لا يثق بأحد حتى انه يضم عنده جميع مفاتيح السجون ، التي يسجن فيها من يوصي بالحرص عليهم ، وانه بصفته جندياً ، لا يرتكب خيانة ، ولو أعطي مال الارض بأسره .

وقد ختم كلامه بقوله : انك اذا عدت الى مباحثتي بهذه الشؤون ، تضطرني ان أبوح بأمرك الى حاكم السجن ، فينقلك الى أعمق السجون الكائنة تحت الارض .

ثم تركه وجعل يتمشى حسب عادته .

فنظر بارداليان الاكبر عند ذلك الى ولده وقال له :

- إحذر ان تعود بعد ذلك الى مثلها يا بني لان كل ما نغنمه من هذه المساعي هو انهم يفرقون بيننا .

وإذ لم يبق لنا في هذا الوجود غير ثلاثة أيام فلنصرفها معاً .

أواه ، يا بني ... انك لو أصغيت الى نصائحي ، لكنت الآن في أحسن حال .

ان المرء قد فطر على الشر وكان اول نصحي الك ان تحذر الرجال والنساء

فلماذا أردت ان تغير نظام الوجود منذ نشأ الانسان .

ان الرجل الشريف في الارض يشبه في عيون الناس حيوانآ هائلا بين تلك الذئاب التي لا عد لها والتي يدعونها « الناس » .

فاذا اتفق وجود شريف بين الناس ، فإن هؤلاء الذئـــاب لا يهدأ لهم روع ، ولا يرتاح لهم بال ، حتى يفتكوا بهـــذا الشريف ، بالقوة أو بالحيلة ، او بغير ذلـــك ، مما أعدته تلك الهيئة الجامعة ، من ضروب الفتك .

فعلى مَ الاسف يا بني ، وهذه حالة الناس ؟ ولماذا التنهد الملك جزعت من الموت ؟

فتنهد الشفاليبه أيضاً وقال :

- الحق يا أبي اني أحب الحياة ، وإذا كان حب الحياة ضعفاً ، فأنا معترف بهذا الضعف .

وفوق ذلك فقد خطر لي أن أمثل دوراً بدأت به وهو إني أحببت ان أحيي عهد البسالة في زمن شارلمان .

بل أردت أن أشبه أولئك الأبطال ، أبطال العهـــد القديم . فأسير والسيـف متصلت في يـدي ، لا يشغلني غـير نصرة الضعيف ، وغـل يد الظالم .

فإن شقاء الانسان أكثر من شره .

وهذا المجموع من النـاس الذي تشبهه بالذئاب ، لا يريد غير الهنـاء والسلام .

نعم ، انه يوجد بينهم ذئاب خاطفة ... ولكن أكثر هـذه الذئاب من الملوك والأمراء وأهل السلطة والجاه ، الذين يستبدون بالانسان لنيل مطامعهم .

ويكفي بضعـة من أولئك البواسـل ، لإيقاف اولئـك الظالمين ،

عند حدهم .

وقد كان كل مطمعي يا أبي ان أكون أحد هؤلاء الأبطال الذين يقاومون هذه الذئاب .

وكانا دائماً يتباحثان بهذه الأبحاث ، كي ينشغلا بها عن ذكر لويزا ، فان الأب كان يجادل ابنه هذه المجادلة كي ينسيه تلك الذكرى المؤلمة .

والابن يشاغل أباه ، بهذه المناقشات ، كي يمنعه عن البكاء ، إشفاقاً عليه .

ولبثا على ذلك الى ليلة الجمعة فناما دون ان يذكرا كلمة عما سيلقيانه غداً من عذاب الموت الهائل .

وفي الصباح ، صحا الأب قبل الابن ، وكان قد نفذ شعاع الصباح من النافذة .

فنظر الأب إلى ابنه ، وهو لا يزال نائماً ، فوجده يبتسم وقد كان يحلم دون شك بمن يحبها .

فوقف ينظر اليه نظرات ملؤها الحنو والأسف لان تلك الساعة الرهيبة ساعة التعذيب قد دنت وليس منها مفر .

وعندها صحا بارداليان وفتح عينيه فرأى أباه ينظر اليه .

فارتعش الاثنان ، وحاول كل منهما أن يضبط نفسه ، إشفاقاً على صاحبه .

وأقام كل منهما بجانب الآخر دون أن يتكلما . وماذا عسى ان يقولا في تلك الساعة الهائلة .

فكانا ينتظران ساعة التعذيب ، وقدوم الجلاد ، وهما ساكتان واجمان .

ثم وقف الاثنان فجأة ونظر كل منهما إلى الآخر نظرة وداع .

ذلك انهما سمعا وقع أقدام في الرواق المؤدي الى غرفتهما .

وكان كل منهما يكره نفسه على الصمت إكراهاً كي لا يفجر الحزن في قلب رفيقه .

وبعد بضع دقائق مرت بهما مرور الأجيال فتح باب سجنهما ودخـل منه مونتليك حاكم السجن يحيط به عشرون جندياً .

فأمسك الاسيران كل منهما بيد الآخر .

وأشار الحاكم إشارة فأحاط الجنود بهما وقد برقت أعينهما بأشعة الفرح لانهما لم يفصلوهما .

فكانا كلما مشيا بضع خطوات يريان الجنود واقفين في موقف الحرس، فقد جاءوا بجميع جنود السجن حذراً من فرار الاسيرين .

وما زالا يسيران والجنود محدقة بهما حتى نزلا سلماً في جوف الارض وانتهيا منه إلى غرفة متسعة .

وكانت هذه الغرفة غرفة التعذيب .

وكان الجلاد واقفاً فيها ينتظر الضحيتين وبالقرب منه رجل رأى باردالبان على نور المشاعل انه مورفر، لان نور النهار لم يكن ينفذ إلى هذه الغرفة فأناروا فيها المشاعل .

وكانت تبدو على مورفر علائم الكره الشديد ، فنظر إلى الاسيرين نظرة المنتقم الفائز .

فأجابه باردالبان الاصغر عن هذه النظرة بابتسام الاستخفاف .

وقد خصصوا لحراستهما ثلاثين جندياً قسموهم الى خمسة أقسام ولدى كل قسم مشعل ينير هذه الغرفة .

وقد رأى الاسيران في وسط تلك الغرفة آلات التعذيب على اختلافهـــا ورأيا ذلك الجلاد الهائل يلقي الاوامر الى رجلين من أعوانه .

ورأيا حاكم السجن يحدث مورفر .

ثم سمعا مونتليك يقول لمورفر : بأيهما يجب ان نبدأ ؟

فتقدم الشفاليه باردليان خطوة وقال : سيدي ...

وفي الحال هجم عشرة جنود عليه ، كأنهم خشوا أن يدفعه اليأس الى عمل منكر .

فقال له حاكم السجن : ماذا تريد ؟

— أريد ان التمس منك التماساً .

— قل .

— التمس ان تبدأوا بي أنا .

فتقدم أبوه واعترضه قائلاً :

— إن ما تطلبه يا بني لا ينطبق على العادات المألوفة ، فأنا شيخ ولي حق التقدم عليك .

فقال حاكم السجن : ذلك سيان عندي .

ثم نظر الى مورفر نظرة السائل المستفهم .

فأجاب مورفر بلهجة تبين منها الحقد الدفين وقال : لقد أصاب الاب فابدأوا به .

وإنما أراد ذلك للمبالغة في تعذيب الشفاليه فانه أدرك ما يعانيه من الشقاء حين يرى أباه يعذب أمام عينيه .

ثم ارتد الى باب غرفة وضعت فيها آلات مختلفة ، وهناك امرأة واقفة في زاوية الغرفة لا يراها أحد وقد لبست ثوباً أسود وعلى وجهها نقاباً أسود فكانت تشبه الشياطين المجسمة .

وكانت هذه المرأة الملكة كاترين .

فأشارت الى مورفر إشارة بيدها .

فعاد الى موقفه ونادى الجلاد فقال له : إبدأ بالعمل .

فقال له الجلاد بلهجة تدل على عدم الاكتراث : أنبدأ بالاب ؟

— نعم ، ويجب الاسراع .

فأشار الجلاد الى الجنود فقبضوا على بارداليان الاكبر .

فهاج بارداليان الاصغر عندها هياج العاصفـــة ، وزأر زئير الاسود حتى ارتجف حراسه ووجفت قلوبهم من الخوف .

فجرد حاكم السجن خنجره ، وصاح مورفر قائلاً :

— هاتوا السلاسل .

وعند ذلك ، فتح باب غرفة التعذيب فجأة ، ودخلت منه امرأة فقالت :

« باسم الملك أوقف التعذيب » .

فوجم الجميع عند ذكر اسم الملك ، وسقطت من يد الجلاد تلك السلاسل التي كان عازماً ان يقيد بها الشفاليبه بارداليان .

وعض مورفر شفته من الغيظ ، حتى كاترين نفسها فإنها لم تتمالك من الارتعاش .

وقد رأى الجميع إمرأة صبية رشيقة الحركات متأنقة الملابس، وقد نظرت الى الاسيرين نظرة شفت عن سرورها وقالت :

— ليتبارك اسم الله لقد أتيت حين الاوان .

فانحنى الشفاليبه وقال :

— ماري توشيت !

ودنا حاكم السجن منها وقال .

— من أنت يا سيدتي ؟

فأجابته ماري توشيت قائلة :

— إني رسولة ملك فرنسا ، وهذا كل ما يفيدك أن تعلمه .

— وكيف وصلت الى هنا ؟

فلم تجبه ماري ولكنها أعطته ورقة مطوية .

فأخذها الحاكم وقرأ فيها على نور المشعل ما يأتي :

« نأمر حاكم سجن التامبل ، ان يأذن بدخول حامل هذا الامر ، الى غرفة التعذيب » .

شارل — الملك

ولما أتم قراءتها قالت له :

— والآن خذ واقرأ هذه .

ثم ناولته ورقة أخرى فقرأ فيها ما يأتي :

« نأمر بإيقاف تعذيب بارداليان وابنـــه ، وعدم استنطاقهما ، إلا بأمر منا » .

شارل — الملك

فالتفت الحاكم عند ذلك الى قائد الجنود وقال له : أعـد الاسيرين الى سجنهما .

ثم قال للجلاد :

— وأنت عد الى شأنك ، وسترجع الينا متى أراد الملك .

فقال له مورفر : اصبر هنيهة فلم يقض الامر بعد .

— بل قضي ، فقد أمر الملك وأمره مقدس ... أيها الحراس إذهبـوا بالاسيرين !

وكان السجينان ، في خلال هذه اللحظة ، قد نظرا الى ماري توشيت نظرة ملؤها الشكر والامتنان ، فعادا الى سجنهما تخفرهما الجنود وهما فرحان فرحاً لا يحتمله سواهما .

وكذلك ماري توشيت فإنها توارت ايضاً عن الانظار ، كما كانت تتوارى الملائكة في الغمام في قصص الاقدمين .

ولم يبق في تلك القاعة الهائلة غير مورفر ومونتليك .

فقال مورفر : إن الملك سيسر دون شك لاسراعك في الخضوع لامره ، ولكن هذا الامر قد يكون من غير الملك .

فأجابه سيان عندي أن يكون من الملك أو سواه مـــا زال الختم الملكي موجوداً عليه ، ومع ذلك فسل هذه المرأة للتي جاءت باسم الملكة.

فابتسم مورفر ابتسام قهر حين سمع الحاكم يتكلم عن الملكة كاترين دون احترام وقال له : هات الأوراق .

ثم أخذ منه الأوراق وأخذ مصباحاً ودخل بها إلى الملكة .

فقالت له : لقد سمعت كل شيء وعرفت المرأة التي جاءت بهذا الأمر .

– إذاً هو الملك نفسه الذي أصدر هذا الأمر فماذا يجب أن أصنع .

– يجب أن تمتثل للأمر ، وأنا ذاهبة إلى اللوفر فأرى مـــا يكون ولا تخف ، لقد وهبتك هذين الأسيرين وهما لك.. واعلم انه يجب أن تعود إلي بعد ثمانية أيام في اللوفر ، وأبعد عن باريس خلال هذه المدة ، فـــإن أول خطأ إرتكبته ، إنك أخطأت الأميرال ، فإذا ارتكبت خطأ ثانياً قبضوا عليك لأنهم يبحثون الآن عن المعتدي على الأميرال ، فإذا قبضوا عليك فلا حيلة لي في انقاذك .

فارتعش مورفر إذ بات يعتقد ان بارداليـــان قد أفلت من يده وعول على أن يخاطر بحياته في سبيل انتقامه .

ثم انه كان واثقاً ان الملكة محتاجة اليه فالتفت اليها وقال :

– أظن يا سيدتي ، ان مصلحتي تقضي علي بالبقاء في باريس ، وفوق ذلك فانهم سيبحثون بعد ثمانية أيام أكثر ممـــا يبحثون الآن عن مطلق الرصاص على الأميرال .

فابتسمت وقالت : لا أظن .

ثم قبضت على ذراع مورفر وقالت :

– إني أحميك ، أسمعت ؟ وان خطاك لم يكن لأنك أطلقت الرصاص على الأميرال ، بل لأنك أخطأته .

ولكن ذلك قد أتى بفائدة ، ولذلك أغفر لك هذا الخطأ ولذلك اعددتك

لما هو أشد خطورة من هذه المهمة .

فامتثل لما أمرتك به وابرح باريس وعد إلي بعد ثمانية أيام تعلم عند ذلك حقيقة أفكاري .

وأما هذان الأسيران فلا تخف عليهما لأنهما في قبضتي .

فانحنى مورفر وقال : سأمتثل يا سيدتي .

ثم خرج وهو يقول في نفسه :

اني سأقيم في ضواحي التامبل فلا أظهر لأحد قبل ثمانية أيام لأني أحب أن أرى أنا أيضاً ما يكون .

وكذلك الملكة فإنها انصرفت يخفرها جندي واحد ، لأن جميع موظفي السجن حتى حاكمه كانوا يجهلون ان هذه المرأة المرتدية بالملابس السوداء كانت الملكة كاترين .

وانصرفت وهي تسأل نفسها فتقول :

ــ كيف اتفق ان خليلة الملك تهتم لهذين الرجلين ، وكيف نالت منه الأمر بتأجيل التعذيب .. ذلك أمر لا بد لي من معرفته .

أما باردليان وابنه فلا ينجوان مني فلأدع الآن الاهتمام بشأنهما ولأنظر في شأن المهمة الكبرى .

* * *

ولنظهر الآن كيف ان ماري توشيت تمكنت من نيل هذا الأمر من الملك فانقذت حياة باردليان وابنه .

ذلك ان خادم غرفة الملك دخل اليه في الساعة السابعة من الصباح فوجده يخلع ثيابه ويتأهب للنوم .

فقال له الملك :

- إني لم أنم بعد ، لقد أحييت الليل ساهراً أشتغل ، وأريد أن أنام إلى إلى الساعة الحادية عشرة ، أسمعت ؟ فقل لرجال البلاط اني أنتظرهم ساعة الظهر للعب الكرة ، واذهب الآن فاني أحب أن أكون وحدي .

فانصرف الخادم وبقي الملك وحده .

وعند ذلك عاد إلى لبس ثيابه بدلاً من أن يخلعها ، وخرج من باب سري في غرفته فمشى في رواق طويل انتهى منه إلى باب ففتحه ونزل في سلم ينتهي إلى سرداب طويل فاجتازه وبلغ منه إلى باب حديدي ضخم ففتحه بطريقة سرية وخرج منه فبات خارج اللوفر .

وكان يخرج دائماً من هذا السرداب حين كان يريد أن يعلم أهل البلاط ، أنه مقيم في اللوفر .

ولما بلغ ضفة السين تنهد بملء رئتيه تنهد الارتياح ، وانتعشت نفسه بهواء الصباح المنعش ، وابتسم لأشعة الشمس الذهبية ، بحيث لو رآه ناظر لما عرف انه ذلك الملك العظيم الذي بات ليلته عرضة للنوبات العصبية ، لأنه أصدر أمره بابادة الهوكينوت .

وذهب تواً إلى منزل عشيقته ماري توشيت .

وذلك انه لم يكن يجد راحة من عنائه إلا في ذلك المنزل ، وكان حين تشتد هواجسه ، ويخاف تسميم الطعام والشراب والهواء في اللوفر ، يذهب إلى منزل عشيقته ، فيأمن من خوفه ، ويشبع من جوعه ويبيت آمناً مطمئناً .

فلما دخل إلى غرفة ماري توشيت ، وقف عند بابها وقفة المغتبط المسرور .

فانه رأى عشيقته جالسة عند نافذة مفتوحة بملابس الصباح وهي محلولة الشعر ، مكشوفة الصدر ، وعلى صدرها طفل يرضع .

وكانت تتمعن مبتسمة بجمال ذلك الطفل .

ولبث الطفل يرضع حتى شبع فأطبق عينيه ونام وعلى فمه نقطة من لبن أمه ..

فقامت ماري عند ذلك وحملته بلء السكون إلى مهده ، ووقفت تتفرس في وجهه وهي معجبة به كل الاعجاب

وعند ذلك دخل الملك دون أن تشعر به فوقف وراءها ووضع يده على عينيها وهو يضحك .

وعرفته ماري للحال وقالت على سبيل الممازحة .

من هـــذا الشرير الذي يمنعني عن رؤية ولدي . ان ذلك شديد علي وساشكوه إلى الملك .

ورفع يديه عن عينيها وقال لها :

— تفضلي يا سيدتي بعرض شكواك على الملك فإنه بحضرتك .

فعانقته ماري وهي تقول : إن القبلة الأولى يجب أن تكون للأم .

ونظر إلى ولده النائم وخشي ان يقبله حذراً من إيقاظه .

ثم أخذ بيد ماري وذهب بها إلى غرفة الطعام فانطرح على كرسي طويل وقال : لقد أنهكني التعب والنعاس .

فجلست ماري على ركبتيه وقالت له وهي تعبث بشعره :

حدثني يا شارل بمتاعبك والق علي همومك ... رباه مـا هذا الاصفرار ، ومن الذي أتعبك هذا التعب ... على اني أرجو أن لا تكون قد عـاودتك النوبة ... قل كل شيء يا شارل .

— نعم لقد عاودتني النوبة الليلة الفائتة وكانت هائلة .

ومما يزيدني شقاء بها انها اختلفت عما كانت عليه ، فقد كنت قبلاً حـين تصيبني أصحو من إغمائي فأجد نفسي كما كنت .

أما الآن فاني أشعر قبل أن تصيبني ، إن الدنيا قد اسودت في عيني ، وأجد نفسي قد ملئت حقداً على الناس والانسانية ، فأحب في تلك الساعـة

تدمير كل ما يقع عليه نظري ، بل أحب أن أحرق باريس واتفرج عليهـا كما فعل الأمبراطور برومية ، بل أحب القتـل وسفك الدم ، ويتمثل لي ، أن الملوك لا يرهبهم الناس ، إلا حـين يظلمون ويستبدون ويهرقون الدماء

– لا بأس ايها الحبيب فكل ذلك يزول حين ترتاح .

– نعم إني محتاج إلى الراحة ولكن أين اجدها إلا عندك فـاني محاط في اللوفر بالمتآمرين .

– لا تفتكر الآن بهم يا شارل واخلد إلى السكينة والراحة وخذ حظك منها ما زلت عندي .

قل لي كل شيء واذكر جميع متاعبك ، ولكن لا تقل لي انك تخـاف المتآمرين ، فانك لا تضطرب إلا حين يعرض لك هذا الخاطر .

ولا تنس انك الملك ، وان زمام السلطة بيدك ، فلا يجسر احد أن يمد يديه اليك بأذى .

وكانت تعزيه بمثـل هذه الأقوال ، غير انه لم يكن يريد ان يتعزى في هذه الساعة .

وقد تجسمت الأخطار في مخيلته ، ولكنه لم يكن يجسر على إظهارهـا فجعل يخبرها ان دي كيز يؤامر على خلعه وقتله ، وان امـه قد ظفرت ببرهان المؤامرة الجلي ، وانها ستذهب بنفسها إلى السجن في هـذا الصباح وتحضر استنطاق وتعذيب رجلين من اشياع دي كيز .

نعم وهي ستعرف في الساعة العاشرة من هذين الشقيين باردالیان وابنه كل الحقيقة إذ لا بد لهما من الاقرار بعد التعذيب

فصاحت ماري صيحة دهش وقالت :

– تقول انهم سيعذبون شخصين يدعيان باسم باردالیان ؟

– دون شك فهما من خدام دي كيز ، ولا بد أن يكونا عارفين بكثير

من أسراره .

– مولاي ، اني التمس منك العفو عن هذين الشخصين .

– العفو عن هـذين الأثيمين ؟ كيف ذلك يا مـاري ، العلك فقدت الصواب .

– كلا ، كلا ... ألم أقل لك مرة ان حيـاتي كانت معرضة للخطر ، وان شخصين لا أعرفهما قد أنقذاني ، وقـالا لي انهما يدعيان بريسار وروشيت ؟ إذاً ، فاعلم انهما يدعوان بارداليان ، وهما اب وابنه ، لقد أكد لي راميس ذلك .

– وانت ترين انهما يؤامران ، وإذا لم يكن ذلك فأية فائدة لهما باخفـاء اسميهما عنك .. إصغي الي يا ماري .. أتريدين ان اموت قتيلاً ؟

– شارل ، إني اقسم لك على ان هذين الشخصين لا يمكن أن يكونا من المجرمين .. إنك بحثت عنهما بحثاً طويلاً كي تكافئهما على انقاذي ، وتغمرهمـا باحسانك . أتريد أن يكون جزاؤهما هذا التعذيب الهائل ..

شارل انهما انقذاني ، وإذا كنت لا أزال مع ولدك في قيد الحياة فذلك بفضلهما .

– ماري ؟

– كلا .. إني أكون أثيمة خائنة إذا تغاضيت عن هذين الشريفـين وتركتهما يتعذبان ويموتان بعد أن انقذاني من الموت .

وبعد ، ألا تستطيع ان تأتي بهما إلى اللوفر وتستنطقهما انت دون أن يكون للجلاد شأن بهما . .

انهما يعترفان لك بكل شيء ، وأنا اضمن ذلك .

– لقد اصبت ، فما الذي يمنعني عن ان اتولى استنطاقهما بنفسي .

فاضطربت ماري سروراً وأخذت بيده إلى مائدة عليها ادوات الكتابة فقالت له :

ـ اكتب ايها الحبيب . اكتب الأمر القاضي بتأجيل التعذيب .. واذا شئت ليبقيا في السجن الى ان ترى في امرهما رأيك .

فكتب الملك ذلك الأمر .

فأخذته ماري فرحة وقالت : اين هما الآن ؟

- في سجن التامبل ، وسأبعث رسولاً بهذا الأمر .

- كلا ، بل أنا اذهب بنفسي ، فان الساعة لم تتجاوز التاسعة .

ثم القت مسرعة وشاحاً على كتفيها ولبست قبعتها وقالت له :

- اكتب لي أمراً يؤذن لي بالدخول الى السجن .

فكتب ذلك الامر ايضاً وختم الاثنين بخاتمه الملكي ودفعهما لماري ، فأخذتهما شاكرة وخرجت مسرعة الى السجن .

وقد عرف القراء ما جرى لها فيه .

أما الملك فانه اقام هنيهة وهو مطرق مفكر مهموم ، ثم قام الى مهد ولده فنظر اليه نظرة حنو لا توصف .

وقد غلبه الحنو فقبله قبلة طويلة ، ثم خرج من ذلك المنزل عائداً الى اللوفر دون ان ينام أو يستريح .

- ١٩ -

الدوق دي كيز

عندما برحت الملكة كاترين سجن التامبل ، رجعت سراً إلى اللوفر حيث كان ينتظرها فيه بعض النبلاء ، الذين واعدتهم على اللقاء في الساعه الثامنة كما تقدم .

وقد ساءها جداً صدور أمر الملك بتأجيل استنطـاق باردالبان وأبيه ، ومنع تعذيبهما .

وذلك لأن هذا التأجيل أفسد خطتها ، إذ كانت ترجو ان تقف منهما على برهان يثبت خيانة الدوق دي كيز

وقد كانت اعتمدت على هذا البرهان ووضعت مقدماً خطة تستطيع بها أن تعبث بالدوق كما تشاء .

ولكنها اضطرت الى الرجوع عن هــــذه الخطة ، وعادت الى اللوفر ، وهي باسمة الثغر ، طلقة المحيا ، وليس على وجهها شيء مما يدل على ما لقيته من العراقيل .

وقد دخلت إلى غرفتها من رواق سري ، فوجدت خادمتها تنتظرها ، فقالت لها :

- من يوجد عندنا من الأسياد ؟

- الدوق دانجو والدوق دي كيز والدوق أومال والمستشــــار وكوندي

والمارشال تافان ودامفيل والدوقان نيفرس ومونتبانسيه .

- وأين رئيس الحرس ؟

- إنه في موقفه مع حراسه .

- وماذا يصنع الملك ؟

- إن جلالته برح اللوفر سراً في هذا الصباح ، وقد عرفت ذلك من لوريون ، مراقب الأبواب ، ولكن جميع الموجودين في اللوفر يعتقدون أن الملك نائم .

فأزاحت الملكة سجفاً ورأت من ورائه نانسي قائد حراسها واقفاً في موقف الحراسة وهو مجرد حسامه .

فظهرت عليها علائم الرضى وجلست حول مائدتها واستوثقت ان خنجرها لا يزال في مكانه ثم قالت للخادمة :

- أبلغي الدوق دي كيز إني أنتظره .

وبعد هنيهة أقبل الدوق دي كيز ، وهو لابس أجمل الملابس ، حسب عادته في التأنق ، فانحنى أمام الملكة ووقف بملء العظمة والجلال .

فابتسمت الملكة له الطف ابتسام ، واشارت اليه ان يجلس فجلس بجانبها وجعل ينظر اليها نظرات الاكفاء للاكفاء

وساد السكوت دقيقة بينهما ، كانت كاترين تحاول في خلالها ، أن تصرعه بنظراتها .

ولكنها بالرغم عن قوة سلطانها وقوة جنانها ، لم تتمالك عن الارتعاش ، لأن الدوق كان ينظر اليها نظرات من يحسب نفسه في منزلتها ، ولا جرم فقد كان يعتقد انه لا تمضي ليلة او ليلتان حتى ينادي به الباريسيون ملكاً لفرنسا بدلاً من شارل التاسع .

وقد ساء الملكة ما رأته من دلائل كبريائه ، ولكنها كظمت الغيظ وقالت :

– لقد أخبروك دون شك يا حضرة الدوق ان مولاك الملك عزم عزماً باتاً على إنقاذ المملكة من أعدائها الهوكينوت .

– لقد علمت بهذا العزم يا سيدتي وأحسب نفسي سعيداً به ، وإن كان قد تأخر إلى الآن .

– إن الملك هو الحاكم المطلق ، وله وحده ان يختار الزمن الموافق لتنفيذ أغراضه ، بل هو يعرف ان يختار ذلك الزمن أكثر من أولئك المراوغين المحتالين ويعرف أن يجد الساعة الصالحة لضرب أعداء الكنيسة ، وأعداء عرشه الضربة القاضية .

فابتسم الدوق ولم يجب .

فقالت كاترين :

– أيستطيع الملك ان يعتمد عليك في هذه المهمة .

– إنك تعلمين يقيناً يا سيدتي إني ورثت عن أبي مبدأ الدفاع عن الكنيسة فلا أتأخر لحظة عن قضاء مثل هذه المهام .

– حسناً فأية مهمة خاصة تريد ان تتولاها يا حضرة الدوق .

– مهمة القبض على كوليني ، لأني أريد إرســال رأسه إلى أخي الكاردينال .

فاصفر وجه كاترين ، لأنها هي أيضاً وعدت بارسال رأس هذا الأميرال إلى البابا .

لكنها لم تظهر شيئاً من مخاوفها وحقدها وقالت :

– ليكن،ولكن لا تعمل شيئاً قبل ان تسمع أجراس كنيسة سانت جرمين وهي العلامة المتفق عليها .

– أهذا كل ما تريده سيدتي .

– نعم ، ولكنك ما زلت من أنصار العرش والكنيسة فلا بد لي من أن أظهر لك ما اتخذته من أسباب الاحتياط للدفاع عن اللوفر ، إذا خطر لبعض

الجانين ان يهاجموه .

وعند ذلك نادت نانسي ، قائد حراسها ، فأسرع الى تلبية ندائها ، فقالت له :

— كم يوجد في اللوفر من حملة البنادق يا نانسي ؟

— الف وخمسمائة .

فابتسم الدوق .

وكانت كاترين تراقبه خلسة فقالت لنانسي :

— وكم لدينا غيرهم .

— الفا جندي والف فارس .

فقطب الدوق حاجبيه فقالت :

— وكم لدينا غير ذلك ؟ لا بأس ان تقول كل شيء أمام الدوق يا نانسي لانه من أوفى خدام جلالته .

فقال نانسي : ولدينا أيضاً اثنا عشر مدفعاً .

— أهي من مدافع حفلات الأعياد ؟

— كلا يا سيدتي بل هي من مدافع القتال ، وقد أدخلناها سراً إلى اللوفر ليلة أمس .

فاصفر وجه الدوق ، ولم يعد يبتسم ، بل زالت عن وجهه علائم المظمة وعاد الى المبالغة باحترام الملكة .

وأضافت : لا بأس من تطمين الدوق يا نانسي ، فقل ما جاءنا به البريد منذ ثلاثة أيام

فأجاب نانسي بلهجة المنذهل : لقد تضمن هذا البريد يا سيدتي ، أن أوامر الملك قد نفذت ، وان كل وال من ولاة الأقاليم أرسل من لديه من الجنود إلى باريس .

— ألم يرد منهم أحد بعد .

– كلا ، ولكن جاءتنا الأنباء مخبرة بقدوم الطلائع ، وان ستة آلاف فارس سيصلون إلى باريس الليلة ، أو صباح غد . وأنه بعد ثلاثة أيام ، سيكون تحت أسوار باريس عشرون الف جندي ، يخضعون لأمر الملك .

فصعقت هذه الأنباء الدوق دي كيز ، وقال في نفسه : لقد أحبط المشروع .

ثم انحنى أمام الملكة باحترام عظيم لم يتعوده من قبل .

وعاد نانسي الى الحديث فقال :

– الشيء بالشيء يذكر ، فهل تأذنين لي بهذه المناسبة ان أسألك عمن يتولى قيادة هذه الجنود في اللوفر .. العله المسيو دي كوسين ؟

فاتقدت عينا الدوق ببارق من الرجاء لان دي كوسين كان من أشياعه، كما عرف القراء في الأجزاء السابقة .

ولكن جذوة هذا الرجـــاء لم تلبث ان انطفأت ، لان كاترين أجابت نانسي فقالت :

– إن الملك عين دي كوسين لحراســة قصر الأميرال ، فليبق في مكانه ، وأما القيادة في اللوفر فستتولاهـا أنت يا نانسي ، لأني واثقة من حسن إخلاصك .

وركع نانسي وقال : إني أصدق ، في خدمـــة بيتـكم الكريم ، حتى الموت .

– وأنا واثقة مما تقول فابدأ منذ الليلة في هذه المهمة وضع الجنود في مواضعها عند الابواب وليكن الفرسان متأهبين في ردهة القصر الكبرى ، وضع حول الملك أربعمائة جندي .

وإذا رأيت بعضاً يحاولون الهجوم على اللوفر ، فأطلق عليهم النار دون استئذان مهما كانت طبقات اولئك الناس ، ولا فرق ان يكونوا من الكهنة

أو الهوكينوت او الكاثوليك .

— إني أقتل كل من يتعرض للهجوم دون إشفاق فمن تريدين أن أعين لحراسة جلالتك ؟

— لا حاجة بي الى الحراس لان الله يحميني .

فانصرف نانسي وبقيت الملكة مع الدوق فقال لها :

— إن سيدتي تعلم مقدار إخلاصي في خدمة الملك والكنيسة .

— لا ريب عندي في ذلك يا دوق ، ولو لم تكن قد اخترت لنفسك مهمة قتل الأميرال لعهدت اليك ان تتولى أنت حماية اللوفر .

فعض الدوق شفته حتى كاد يدميها فقال :

— لم يبق علي يا سيدتي إلا ان التمس منك استقبال رجل القيت اليه بعض أوامر بشأن الليلة القادمة فإن هذا الرجل مشكك ولا يقدم على ما عهدت به اليه إلا بأمر جلالتك .

— ليدخل .

فخرج الدوق ، وأشار إلى رجل هائل الخلقة ، كان واقفاً ينتظر في آخر الرواق .

فأسرع الرجل إلى تلبيته ودخل به إلى الملكة .

فنظرت اليه معجبة بهذا الجسم الضخم العظيم ، فسر الرجل لهذا الاعجاب وجعل يفتل شاربيه .

فقالت له : لقد عهد اليك قضاء أمر هذه الليلة .

— نعم وهو قتل الكافر ، فإذا أذنت جلالتك قطعت رأسه .

— نعم إني أأذن لك فاذهب وامتثل لمولاك .

فبقي الرجل واقفاً في مكانه ولم ينصرف .

فقال له الدوق : ألم تسمع ؟

— نعم ولكني أحب ان أخرج بعدها واثقاً مطمئناً من باريس وان يصحبني

ثلاثة من أصدقائي إلى رومة. وأنت تعلم يا مولاي ان أبواب باريس مقفلة لاتفتح لأحد إلا بأمر خاص .

فأخذت قلماً وكتبت مسرعة ما يأتي :

« نأمر جميع حراس الأبواب في باريس ان يدعوا حامل هذا الأمر يخرج من باريس مع من يصحبه من الرفاق » .

ثم دفعت الورقة اليه فأخذها وهم بالانصراف .

فأعطته الملكة كيساً ملآن من الذهب وقالت له : لقد نسيت هذا الكيس فهو جائزتك .

فأخذ الرجل الكيس وانصرف ، وهو يعتقد انـه أرهب الملكة بضخامة جسمه وكبر شاربيه .

فقالت الملكة عند ذلك للدوق : هلم بنا الآن إلى قاعة الاجتماع للمداولة مع الاسياد .

* * *

وطال اجتماع هذا المؤتمر الى الساعة السابعة مساء .

وكانت كاترين قد استدعت الملك مراراً ، ولكنه كان يلعب بالكرة مع الهوكينوت فأبى ان يجيب نداء أمه .

وكان عالماً بعقد المؤتمر ولكنه كان يرجو ان لا يجسروا على تقرير ذلك الامر الخطير في غيابه .

وفي الساعة الثامنة من المساء عقد اجتماع في قصر الدوق دي كيز حضره كل من كان يعتمد الدوق عليهم في مهماته وكل من كانوا يطمعون بالتقدم في مملكته الجديدة ويأتمرون معه على خلع الملك .

فوقف الدوق بينهم موقف الخطيب وقال :

— أيها السادة إننا سننقذ الكنيسة في هذه الليلة فقد عرف كل منكم مـــا

يجب ان يفعله

فساد السكوت بين الحاضرين وأتم الدوق حديثه فقال :

ــ أما مشروعاتنا التي تعلمونها فلا بد من تأخيرها إلى فرصة أخرى لان كاترين واقفة موقف الحذر ولنتظاهر بالاخلاص للملك وإننا من خير رعاياه... فاذهبوا أيها السادة واصبروا مثلي فلا بد من الصبر .

وكانت علائم الاضطراب والقلق بادية على وجه الجبل فلم يجسر أحد أن يسأله عن سبب هذا الانقلاب ونقض أوامره السابقة . فانصرفوا وهم آسفون لتأخير تحقيق مطامعهم .

وبقي الدوق في قصره من الساعة التاسعة الى الحادية عشرة وهو يستقبل رهبان الاديرة ويلقي الاوامر علىمشايخ الحارات ويقول لهم : لقد دنتالساعة فارووا ظمأكم من الكفار بأمر الملك فهو أراد .

فيصيحون جميعهم : ليمت الهوكينوت !

ويصيح الدوق في أثرهم وهو يكاد يتميز غيظاً : هذا ما يريده الملك !

وإنما كان يقول هذا القول لان أمانيه بنيل الملكية في تلك الليلة ، قد ذهبت أدراج الرياح ، فأراد أن يلقي مسؤولية المذبحة الهائلة على عاتق الملك .

وكانت تلك الليلة صافية الاديم وقد تألقت نجومها في السماء كأنها أرادت الإشراف على المذابح الدموية التي يرتكبها الانسان لجهله .

- ٢٠ -

ثلاث حوادث

كانت تجري في تلك الليلة ثلاث حوادث مختلفة وهائلة .

إحداها في سجن التامبل حيث سجن باردالبان وابنه .

والثانية في قصر الدوق دامفيل الكائن بقرب باب مونمارتر .

والثالثة في خمارة « ميت يتكلم » وهي خمارة كاتي .

ففي الساعة التاسعة ، من تلك الليلة ، دخلت إمرأتان سراً ، إلى سجن التامبل .

وسار بهما ، الذي أدخلهما ، إلى البناية الخاصة بمونتليك ، حاكم السجن .

وهاتان المرأتان هما البغيتان ، اللتان تقدم لنا وصفهما في الفصول السابقة .

وكان مونتليك ينتظرهما وهو جالس حول مائدة وضعت عليها صحون الطعام الشهي وقناني الخمر المعتقة .

وقد أطلق سراح خدمه ، تلك الليلة ، كي يبقى وحده مع عشيقتيه .

فلما جاءت البغيتان ، كان قد أشرف على السكر ، لانه شرب الزجاجة الرابعة .

وقد دهش لملابسهما ، ولما كان عليهما من الحلى بفضـــل كاتي ، ولقب إحداهما بالملكة مرغريت ، والثانية بملكة اسبانيا . وجلس بينهما وهما تملآن كأسه كلما فرغ .

وما زالوا على ذلك ، إلى أن بلغت الساعة الثانية بعد انتصـــاف الليل ، وبلغ السكر من الحاكم أقصى مبالغه ، وانطرح على الأرض نائمـاً وهو لا يعي .

وعنــد ذلك ، أخذت البغيتــان تصغيان ، وقد بــدت عليهما علائم الرعب .

* * *

ولنذهب الآن الى قصر الدوق دامفيل قرب مونمارتر .

فإن هنري عاد إلى قصره بعد انتصاف الليـــل بساعة ، وكان مقطب الجبين ، عابس الوجه ، لأن رئيس المؤامرة ، وهو الدوق دي كيز أمر أن لا يهاجموا اللوفر .

وفي ذاك ما يؤخره عن الوصول لأمانيه .

ولكنه كان قد تعزى عن ذلك بفرح وحشي ، لأن أخـــاه كان معدوداً من أنصار الهوكينوت ، وهو رئيس الأحزاب السياسية أيضاً ، فتقيد اسمه في جمـلة الذين حكم عليهم بالقتل ، وعهد إلى هـنري مهاجمة قصره وقتله .

فكان فرح هذا الأخ المفترس مزدوجاً ، لاعتقاده انه سيشفي غله بالانتقام من أخيه ويظفر بزوجته حنة بعد قتله .

وأما بقية أمانيه فسينالها بعد ان تسنح له فرصة تؤذن للدوق دي كيز بادراك مقاصده من الهجوم على اللوفر .

وعندما دخل هنري إلى قصره جعل يتفقد الحامية ، فكانت القاعات غاصة بالجنود وجميعهم مدججون بالسلاح متـــأهبون للقتال ، وفي مقدمتهم الفيكونت اسبرمونت عدو برداليان الأكبر .

***

وأما خمارة « ميت يتكلم » فقد كانت صاحبتها كاتي صرفت جميع زبائنها في الساعة التاسعة من المساء وأقفلت الباب .

وعند انتصاف الليل فتحت ذلك الباب ، فجعلت النساء تتوارد اليه ، فما مضى نصف ساعة حتى غصت الخمارة باولئك النســاء على اختلافهن ، من راقصة ومتسولة ومستكشفة الطوالع والمتشوهات من عرجاء وكتعاء وحدباء إلى آخر ضروب العاهات .

فكانت كاتي تحسن استقبالهن .

ثم لما انتظم عقدهن جاءت بكل ما كان عندها من الخمر والنقود فجعلت تسقيهن وتنفحهن بالنقود .

ثم نهضن فجأة بعد ان قالت لهن كاتي بضع كلمات وخرجن من تلك الخمارة بحيث لم يبق فيها أحد .

وبعد ذهابهن قامت كاتي إلى خزانة فأخرجت منها كيســاً يحتوي على ثلاثمائة ريال وتنهدت قائلة :

ـ هذا آخر ما بقي لي

ثم وضعت الكيس على مائدة ووقفت تصغي .

وفي الساعة الأولى بعد انتصاف الليل عادت الخمارة إلى الامتلاء بعد فراغها وكان كل زائراتها من النساء .

ولكنهن لم يكن هذه المرة من أهل العاهات ، بل كن من أهـــل الظرف

والكياسة أكثرهن جميلات وكلهن بغيات

فجلسن في الخمارة يشربن ويغنين ، حتى أفرغن كل ما كان عند كاتي من الخمور .

وبعد ذلك أخذت كاتي توزع عليهن ما كان في الكيس من النقود حتى لم يبق فيه شيء .

فأخذ البغيات بالانصراف وخرجن من الخمارة إلى تلك الشوارع الهادئة الساكنة .

وبعد انصرافهن أخذت كاتي مصباحاً ونزلت إلى القبو فافتقدته ، فلم تجد فيه زجاجة خمر . فصعدت إلى المطبخ فلم تجد فيه قطعة من اللحم القديد ، فدخلت الى غرفتها وفتحت خزائنها فلم تجد فيها قطعة حلي لأنها باعت منذ يومين كل ما كان لديها في سبيل الحصول على المال ، بحيث باتت فقيرة لا تملك شروى نقير .

ولكنها لم تحفل بما داهمها من الفقر ، وأخذت خنجراً ووضعته في حزامها وأقفلت باب خمارتها وخرجت فجعلت تسير متمهلة كأنها سائرة لغرض سري ، وقد دهشت لهذا السكوت المخيم على باريس .

- ٢١ -

ما وراء هذا السكوت

وجعلت كاتي تسير وهي معجبة لهذا السكوت ، تفتكر باسبابه فلا تهتدي اليها ، إذ لم تكن رأت قبل الآن شوارع باريس خالية مثل هذا الخلو حتى من اللصوص .

وفيما هي تسير رأت باب منزل جميل قد فتح وخرج منه نحو عشرين رجلاً عليهم ظواهر النعمة .

وكانوا جميعهم مسلحين باسلحة مختلفة .

وفي مقدمتهم رجل يحمل مصباحاً وآخر يحمل ورقة وجميعهم واضعون على صدورهم صلباناً ذات لون أبيض .

وسار اولئك الرجال يتقدمهم حامل الورقة بجانب حامل المصباح .

فهاج منظرهم فضول كاتي وأرادت ان تعلم إلى أين يذهبون .

فتبعتهم حتى وقف حامل الورقة عند باب منزل ووقف الجميع .

ففتح الرجل الورقة وقرأ فيها ، ثم دنا من ذلك المنزل ، ورسم علامة على بابه .

ثم استأنفوا فدنت كاتي من ذلك المنزل بعد انصرافهم ونظرت الى العلامة فرأت انها صليب أبيض رسم بالطباشير .

فسارت في أثرهم ورأت أنهم وقفوا أيضاً عند منزل آخر ورسموا على بابه

العلامة نفسها

ثم انصرفوا إلى شارع آخر ومضت كاتي في سبيلها .

ولكنها لم تسر بضع خطوات حتى لقيت عصابة أخرى كالعصابة السابقة يتقدمها رجل يحمل ورقة وهم يقفون عند بعض الأبواب ويرسمون عليها تلك العلامة .

ثم رأت عصابة ثالثة فرابعة وكانوا جميعهم يسيرون ساكتين فلا ينبسون بحرف كأنهم يخشون ان يوقظوا النيام .

وكانت كلما التقت عصابة بأخرى ، تقدم الرجلان اللذان يحملان الورقة فتبادلا بضع كلمات همساً ، وذهبت كل عصابة في شأنها ، كأنها كانت تتبادل كلمة السر .

وقد رأت كاتي أن هذه العصابات كثيرة ، فحاولت أن تعد الأبواب التي رسمت عليها العلامات ، ولكنها رجعت عن ذلك القصد ، لكثرتها .

ولبثت على ذلك إلى ان سمعت الساعة الكبرى تدق ، فارتعشت وقالت : ماذا أصنع هنا ، إن الساعة قد بلغت الثانية ، وقد تأخرت عن الميعاد

* * *

في تلك الساعة ، أي في الساعة الثانية بعد انتصاف الليل ، كان الدوق هنري دي كيز ممتطياً جواده ، في ردهة قصره الكبرى ، وهي غاصة بالجند

وكان الدوق دي اومال واقفاً بالقرب من قصر الأميرال كوليني يصحبه مائة رجل من حملة البنادق .

وكان مستشار الملك واقفاً قرب كنيسة سانت جرمين وهو يصدر الأوامر بصوت منخفض على شيخ حارة يصحبه خمسون رجلاً

وكان هنري دي مونمورانسي خارج قصره ينتفض من الجزع إذ ضاق صبره عن انتظار الساعة المعينة .

وكان ممتطياً جواده يحيط به ثلاثمائة فارس من أعوانه .

وكان كرسي شيخ الجزارين واقفاً قرب قصر أحد مشـــاهير الهوكينوت بجماعة من أبناء حرفته .

وهكذا جميع من تولى زعامة في تلك المذبحة التاريخية الهائلة فقد كان في تلك الساعة واقفاً مع أعوانه في موضع من المواضع التي يقيم فيها الهوكينوت وغيرهم من المتهمين التي رسمت العلامة على منازلهم

وكانت الرسل تسير كل حين ، من عصابة الى عصابة ، فتوصل أوامر الرؤساء .

وهذه العصابات التي كانت تنتظر بملء الجزع ان تسمع جرس كنيسة سانت جرمين لتفتك بعباد الله الفتك الذريع كانت مؤلفة من أعيان باريس وصفوة نبلائها ورهبانها .

وقد ساد بينهم ذلك السكون وحلت عليهم رهبة الموت .

- ٢٢ -

أعلم أم جنون ؟

فبين الساعة الثانية والثالثة من تلك الليـــلة ، حدث حادث هائل في سجن التامبل .

وكان بطلا هذا الحادث هما بطلا هـــذه الرواية ، بارداليان الاكبر وبارداليان الاصغر .

وهي حادثة تفوق حد التصور ، حتى أن قلم الكاتب قد يقف عند سردها من الرعب .

ولكننا لا نجد بداً من ذكرها ، لانها خاصة ببارداليان . وإنما نذكر الآن مقدمتها الخاصة برينيه الفلكي ، فقد كان هذا الرجل صاحب ذاك الفعل المنكر .

كان رينيه هذا من المشتغلين بالعلم ، وأخص ما كان يشتغل به رصـــد الكواكب والكيمياء .

فلم يفز من الكيمياء إلا باتقـــانه تركيب السموم ، واختراعه آلات الموت الرهيبة .

فهو قاتل ملكة النافار بذلك الصندوق المسموم ، كما تقدم .

ولم يستفد من علم الفلك غير الهوس والتطرف ، لاعتقاده بإمكان مخاطبة الارواح .

وكان مما يعتقده ان لكل إنسان جسمين ، واحداً في الارض وآخر في الكواكب ، كما انه كان يعتقد اعتقاداً راسخاً بالخلود ، وإمكان إحياء الموتى .

وله في ذلك آراء لا متسع لذكرها في هذا المقام الفكاهي .

فنكتفي بالقول انه كان يعتقد اعتقاداً مكيناً بمناجاة الارواح ، وإحياء الاموات وإمكان خلود النفوس .

فلا نعجب لاعتقاد مثله ، في مثل ذلك العهد ، عهد الخرافة والسحر والشعوذة والتدجيل ، فإننا نرى في هذا العصر عصر النور والحضارة والعلم والعرفان ، بعض كبار الاطباء يشتغلون بما كان يشتغل به ريتيه ويحاولون إحياء الموتى .

ولما اغتالت كاترين ابنها وولده ماريلياك ، كان واقفاً خارج الكنيسة . حتى إذا خرج الرجال الاربعة بجثة ذلك الرجل المنكود أمرهم ان يسيروا بها إلى قصر رصده الذي بنته له كاترين .

وبعد ساعة كانت جثة ماريلياك ممددة على مائدة رينيه ، ينظر اليها باكياً .

حتى اذا نضبت دموعه أقفل باب غرفته وفتح النافذة فأخذ نظارتيه إذ تبين له من الكواكب انه يستطيع إحياء ولده من الموت واستحضار نفسه الثانية من النجوم .

فبدأ يغسل جراح ولده ثم تفقدها جرحاً جرحاً فرأى ان أكثرها كان قاتلاً وقد أصاب بعض الخناجر القلب .

ولكنه لم يبال لاعتقاده ان القلب آلة الحياة وان دورة الدم تحرك الآلة وان النفس تحرك الدم .

أما النفس فيستحضرها من الكواكب وأما الدم فيستخرجه من الناس فتعود الحياة الى ولده ويهرب به فيبلغ من نكاية الملكة ما أراد .

هذا ما كان يعتقده ذلك الرجل على فشله في كل تجربة ، ولكن موت ولده هاج به ذلك الاعتقاد ، بل ذاك الجنون .

غير ان جنونه كان منحصراً بهذا المعتقد دون سواه .

وكان لا بد له في تلك الساعة من مناجاة الأرواح لأمرين .

أحدهما التفتيش عن نفس ولده ، الهائمة في تلك العوالم لتحريك الدم ..

والثاني سؤال تلك الأرواح عن الدم الصالح لإدخاله في جسم ولده لتحريك القلب

فترك ولده في موضعه وذهب إلى غرفة الرصد ، وأقام يرصدها إلى الصباح وهو تائه في مهامة الخيال .

وقد تجرد عن المادة وشخصت عيناه إلى اللانهاية حتى مثلت له كثرة التفكير ان روح ولده تناجيه .

ولعله كان في هذه الساعة من الحالمين .

غير انه وقف وقفة المجانين في الغرفة وجعل يقول :

ولدي ماذا تريد .. من أين أتيت ، اطمئني أيتها الروح فستلبسين جسمك الجميل في هذه الأرض ..

ديودات ان امك قد انتزعت كل دمائك .. ولم يبق في جسمك قطرة دم ..

ديودات قل . أي دم تريد أن أدخله إلى جسمك ..

ثم تمثل له كأنما هذه الروح تكلمه همساً فوضع يديه وراء أذنيه شأن المصغي وقال : من . دم من .. صديقك الحميم ؟. من هو هذا الصديق ؟ تقول انه في السجن ، لا أستطيع الوصول اليه ، وأي سجن لا أستطيع دخوله ؟ قل ما إسم هذا الصديق ؟ باردالیان ؟

نعم،نعم عرفته .. إطمئن يا بني وارجعي أيتها الروح الهائمة إلى مقرك ،

فسيكون لك هذا الدم

ولا نعلل كيف خطر لرينيه أن يذكر بارداليان ، فقد كان شأنه في تلك الساعة شأن الحالم ، بل ربما كان حالماً ، وقد تمثل له خيال ولده لكثرة التفكير به ولاعتقاده السابق بامكان المناجاة فخيل له انه يكلمه ، وكان يعتقد ان دم الأصدقاء أنجع لولده .

فمثلت له الذاكرة المضطربة بارداليان ، إذ كان يعلم انه من أصدقاء ولده ا.

ولما كان يناجي الروح في تلك الساعة إلا لسؤالها عن الدم الصالح لادخاله في جسم ولده ، خيل له ان الروح تطلب اليه دم بارداليان، أي دم ذلك الصديق .

وهو جنون غريب ، ولكنه غير مستغرب من أولئك المشتغلين بعلوم الخيال .

وقد روى عنهم الراوون ما لا تذكر معه هذه الحادثة في شيء .

ولما صحا رينيه من سكرة خياله ، عاد إلى جثة ولده ، وقد أشرق الصباح ، فوضع عليها بعض مواد تقيها من الفساد ، وذهب إلى غرفة أخرى وهناك فتح درجاً وأخرج منه ورقتين ختمتا بختم الملك ولا كتابة عليهما .

ولا ندري أنال الورقتين بواسطة الملكة كاترين أم سرقهما ، ام كان ذلك الختم مزوراً .

فان ذلك الرجل كان قادراً على نيل ما يريد في ذلك البلاط الذي لا تسود فيه غير الملكة كاترين وهي تلميذته وأم ولده .

ولما افتقد الورقتين أخذ أحداهما وافتكر هنيهة .

ثم كتب على تلك الورقة بضعة أسطر فوق الختم الملكي ، وذهب تواً إلى سجن التامبل .

وهناك قابل الحاكم مونتليك ، وأراه الورقة المكتوبة والمختومة

بختم الملك

ولما قرأها مونتليك نظر إلى رينيه ، وقد ظهرت على وجه ذلك الحاكم علائم الذعر الشديد ..

وكان رينيه يتوقع أن يرى منه هذا الرعب فقال له :

ماذا أصابك ؟

– لا شيء ، ولكني لا أعلم إذا كانت هذه الآلة الهائلة تصلح للعمل الآن ، لأنها هجرت منذ عهد بعيد ، وقد بطلت هذه الفظاعة ، فبطل استعمال هذه الآلة .

فأجابه رينيه قائلاً : لا تخف تعطيلها ، فأنا أتولى إصلاحها إنما أرجو ان تجمعني بالذي يتولى إدارتها .

– إذاً تعال معي

وسار مونتليك وإياه في رواق طويل انتهيا منه إلى غرفة ضيقة فقال له :

– إن الرجل في هذه الغرفة فادخل اليه ، أما أنا فاني ذاهب لإنزال الأسيرين إلى المكان المعين ، فهل يجب أن أكون حاضراً ساعة العمل .

– كلا . .

فانصرف الحاكم مسرعاً ، كأنه يريد الإسراع في الهرب من هذا الرجل أو انه يسرع كي يتأهب لاستقبال البغيتين اللتين واعدهما على اللقاء في هذه الليلة .

أما رينيه ، فإنه دخل إلى الغرفة ، ولقي فيها رجلاً كان يشتغل باصلاح نعله .

وكان هذا الرجل ضخم الجثة ، هائل الخلقة ، عريض المنكبين ، شديد العضل .

وقد كان من المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة فأطلقوا سراحه

مشترطين عليه أن يعمل في سجن التامبل أعمالاً خاصة .

فأراه رينيه ورقة مختومة بختم الملك .

فأشار الرجل دون أن يضطرب إشارة تدل على الامتثال .

فألقى اليه رينيه عند ذلك أوامره بصوت منخفض .

فأجابه الرجل قائلا :

– حسناً فها أنا ذاهب الآن .

– كلا ، ليس الآن .

– متى ؟

– في الليل ، فإني لا أستطيع أن أكون هنا قبل الساعة الثالثة والنصف بعد انتصاف الليل ، وأريد أن أشاهد العملية .

– حسناً وسأبدأ بادارة الآلة في الساعة الثالثة ، أي قبل حضورك بنصف ساعة .

فأشار رينيه برأسه إشارة المصادقة وانصرف .

ولكنه حين وصل إلى باب السجن الخارجي خطر له خاطر فقال :

ولكن يجب أن أراه ولا بد من أقرأ في يده .

- ٢٣ -

الآلة

بعد أن خرجت ماري توشيت من السجن وأنقذت بارداليان وابنه من ذلك العذاب الهائل الذي كانا ينتظرانه ويتوقعان بعده الموت ، أعاد السجان الأسيرين إلى سجنهما .

وقد تولد في نفسيهما رجاء عظيم ، ولكن كلا منهما كان يبالغ في إخفاء سروره عن الآخر كما كانا يبالغان في إخفاء خوفهما من العذاب .

غير إن بارداليان الأكبر نظر إلى ولده وقال :

– اني اغفر لك يا شفاليبه ذنب إنقاذك هذه المرأة الصالحة ، ولكن أغفره لك هذه المرة فقط ، فهذه أول مرة ، رأيت امرأة تعرف الامتنان .

– بل قد رأيت رجلا أيضاً ياأبي .

– ومن هو هذا الرجل ؟ الملك مارشالك مونمورانسي الذي يدعنا نموت في هذا السجن ، في حين انه كان يجب ان يحرق باريس وينسف التامبل لانقاذنا ، فاننا نموت من أجله وفي سبيله .

– ولكنه إذا نسف التامبل يا أبي يكون قد نسفنا أيضاً .

غير اني لا أريد بذلك الرجل مونمورانسي ، بل أريد به العالم راميس الذي أنقذنا مرة في شارع مونمارتر ، ألا تذكر ذلك يا أبي .

— نعم لقد أصبت وقد صاروا اثنين ، فهل غيرت عهدي بالإنسان والانسانية .

ثم عاد إلى الحديث عن مـــاري توشيت ، هذه المرأة التي ظهرت لهما في السجن كالملائكة ، فاعتقد إعتقاداً راسخاً ان حالتهما قد تحسنت ، وان المرأة لا بد أن تنقذهما من السجن .

وقد مضى بهما النهار وهما يتحدثان بهذه الشؤون .

ولما أقبل الليل فتح باب غرفتهما فجأة .

فاضطرب قلباهما سروراً وقد حسبا أن ساعة الانقاذ قد دنت .

ولكن الداخل لم يكن رسول النجاة والسلامة ، بل كان رسول العذاب والموت وهو رينيه الفلكي .

وقد دخل إلى الغرفة وحده وبيده مصباح ، وبقي الجنود الذين جـاءوا معه في الرواق خارج السجن ، وهم متأهبون للدخول عند أول إشارة تصدر من رينيه .

أما رينيه فإنه رفع مصباحه كي يرى الأسيرين وذهب تواً إلى الشفاليه وقال له : أتعرفني ؟

فقال بارداليان الأكبر في نفسه : ما هذا البوم الذي جاءنا في هذه الساعة فإني موجس منه شراً .

أما بارداليان الأصغر فانه تفرس في وجهه هنيهة وقد بدت على وجهـه علائم القحة وابتسم إبتسامة احتقار وقال :

— نعم لقد عرفتك وإن كنت قد تغيرت تغيراً عظيمـــاً ، فأنت الذي زرتني مرة في الفندق الذي كنت فيه .

وأنت هو ذلك الرجل الذي سألتني أسئلة غريبة عن تاريخ ولادتي وعما إذا كنت مطلق الحرية .

وأنت الذي أعطيتني ذلك الكيس المملوء بالدنانير .

وأنت الذي فتحت لي باب ذلك المنزل الكائن عند الجسر الخشبي حيث واعدتني فيه على اللقاء .

ثم التفت إلى أبيه وقال :

- انظر يا أبي إلى هذا الرجل فهو أسفل إنسان عرفته ، وانظر إلى وجهه تر كيف طبعت عليه الخيانة والآثام بحروف ظاهرة .

أتعلم لماذا أعطاني يا أبي ذلك الكيس المملوء بالدنانير ؟ أتعلم لماذا ذهب بي إلى كاترين الهائلة ؟

انه كان يريد ، وكانت تريد ، أن أقتل صديقي وضيفي الكونت دي ماريلياك .

فاهتز رينيه لذكر اسم ولده وسرت اليه عاطفة إنسانية ، حتى انه كاد يبكي .

ولكنه لم يبك بل ضحك ضحكاً هائلاً وقال :

- وأنا أريد قتل ديودات .. أواه إن ديودات لو لم يمت ، ولو لم أسجن نفسه في عالم الخيال ..

ولم يدعه بارداليان يتم حديثه ، فانه انقض عليه فهز ذراعه هزاً عنيفاً وقال له :

- ويحك ماذا تقول . أتقول ان الكونت مات .

فأجابه رينيه وقد ظهرت في عينيه علائم الجنون :

- نعم انه مات واسفاه ، ولكنني لحسن الحظ تمكنت من الاستيلاء على جسمه المادي والخيالي .. أيها الرجل إني أتيت اليك لهذا الشأن فأرجوك أن تبسط لي يدك فانظر فيها .

فوضع بارداليان يديه على صدره وقال والدمع يسيل من عينيه :

- لقد كنت زين الشباب يا ديودات ببسالتك وجراءتك واقدامك .. أسفي عليك ، لقد فاجأك القدر المحتوم بما كنت أتوقعه الك فلم يقتلك غير

هذه الأفعى ..

لقد أصبحت يا ابي فان الناس بجملتهم قطيع كبير من الذئاب ..

— ولكن بينهم من يسببه البوم بشؤمه كهذا الرجل .

فقال رينيه مخاطباً الشفاليه :

— أريد يا سيدي أن تبسط لي يدك .

وقد قال له هذا القول بلهجة المتأثر الحزين بحيث لم يسع بارداليان غير الامتثال فمد له يده وقال :

— لم تبق لي حيلة بمنعك عما تريد فاني أراك تجهش بالبكاء

فهز أبوه رأسه وقال :

— لا شيء يغير أخلاقه ، فلو طلب إلي أنا هذا الطلب لما مددت له يدي ، بل رفسته برجلي . وبعد ، فماذا يريد هـــذا الرجل العله ممن يستكشفون الطوالع .

فأخذ رينيه يده وبارداليان يحسب انه يريد مصافحته

ولكنه فتح يد بارداليان وأدناها من النور وجعل ينظر في عروق باطن الكف ، فنسي عواطفه الأبوية ، وزال حزنه على ولده ، ولم يعد يفتكر إلا بجنونه العلمي ، وقد ظهرت عليه علائم الفرح العظيم ، بعد أن تمعن في الكف وفحص العروق وقال :

— هوذا البرهان ، أنظر إلى خط الحياة في كفك فـانه سيمتزج بذلك الخط الذي رأيته في كف ديودات

وقد انتعشت آماله وابرقت أسرته بفرح لا يوصف وبات واثقاً أن دماء بارداليان تحيي ولده .

أما بارداليان الأكبر فانه سمع كلامه وفهم منه ما يدل على خطر محدق بولده فهجم عليه وحمله بين يديه ، ثم القاه بعيداً كما يلقي الكرة .

فنهض رينيه رنظر إلى الشفاليه نظرة غريبة ، ثم فتح الباب وخرج منه

دون أن يفوه بكلمة .

فقال أبوه بعد خروج رينيه وقد اصفر وجهه ، أرأيت هذه النظرات التي تشبه نظرات الأفعى .

فلم يجبه الشفاليه وقد هاجت مكامن أحزانه على صديقه ديودات وجعل يسير في الغرفة ذهاباً وإياباً بخطوات مضطربة .

وقد كان اضطرابه شديداً ، بحيث ان أباه لم يره مرة على هذه الحالة قبل الآن .

وعند ذلك فتح باب السجن ودخل منه ضابط فقال لهما : تفضلا يا سيدي واتبعاني .

فارتعش بارداليان الأكبر سروراً وأيقن أن ماري توشيت قد استصدرت الأمر باطلاق سراحهما ، وإذا لم يطلقوا سراحهما ، فانهم ينقلونهما على الأقل إلى غرفة ينفذ اليها النور .

فتأبط ذراع ولده وقال له : هلم بنا فسنثأر لصاحبك بعد خروجنا من هذا السجن .

— نعم ، وسيكون انتقامي شديداً فاني أعرف قاتله .

ومشى الاثنان وأمامهما الضابط ووراءهما الجنود .

فقال بارداليان الأكبر للضابط : العلك ذاهب بنا يا سيدي إلى سجن آخر؟

- هو ذلك وقد نظر اليه نظرة المنذهل .

وما زال سائراً بهما حتى انتهى من الرواق إلى سلم مستدير الدرجات يشبه ذلك السلم الذي نزلا منه حين أرسلا إلى غرفة التعذيب .

فقال بارداليان الأكبر لقد كنت احسب إننا سنصعد ولكن أرانا ننزل إلى جوف الأرض .

فابتسم الضابط ابتسام المشفق دون ان يجيب .

وانتهوا من ذلك السلم إلى رواق كثير التعاريج والمنعطفات ، وكانوا دائماً

ينزلون في جوف الأرض .

وكان بارداليان ينظر الى الجدران فيرى العشب قد نبت عليها والحشرات تعد بالآلاف لكثرة رطوبة المكان .

وما زالوا يسيرون حتى وصلوا الى سرداب يبلغ طوله عشرين قدماً .

فاضطرب بارداليان الاكبر في البدء ، ولكنه اطمأن حين رأى سلماً في آخر ذلك السرداب يصعدون فيه بدلاً من النزول .

فلما وصلوا إلى ذاك السلم أمر الضابط الاسيرين ان يصعدا فيه وصعد في أثرهما مع الجنود .

وكان بارداليان يصعد وهو يعد الدرجات فعد منها تسعاً .

وعندما بلغ الدرجة التاسعة وجد باباً قد فتح من نفسه فولجه بأمر الضابط وبعد ان دخل الجميع سمعوا صوت باب حديدي قد اقفل ، وكان الظلام حالكاً ، ولا أثر لصوت فقال بارداليان الاكبر مخاطباً ولده.

– أين أنت ؟

– هنا بجانبك .

– هات يدك .

فمد الشفاليه يده لأبيه وهو لا يراه .

وضغط الأب على يد ولده وسارا خطوة ، فشعر بارداليان انه لا يمشي على أرض عادية ، فانحنى وفحص الأرض فوجدها من صفائح الحديد .

فذعر وسأل : ما هذا ، إننا نسير على الحديد يا بني.

ثم واصل السير معه ، فلم يسر ثلاث خطوات حتى اصطدم بالجدار .

وفحص بارداليان الاكبر ذلك الجدار فوجده من الحديد ايضاً ، فقال لولده : لا أدري في أية هوة سقطنا ، فلا تبرح مكانك حتى افحص هذا السجن .

وعند ذلك جعل يسير وهو يسترشد بالجدار ويعد خطواته فطاف جدران

ذلك المكان ووصل إلى ولده بعد أن خطا أربعاً وعشرين خطوة .

فقال له إنه قفص من الحديد ولكنه عرين متسع .

ولم يجد باردالـيـان في طوافه مائدة أو كرسياً ، بل علم ان الجدران متصلة وكلها من الحديد .

فخطرت له تلك السجون الهائلة التي كانوا يستعملونها قبل ذلك العهـد وأيقن أنهم سجنوهما في هذا القفص ليقتلوهما جوعاً وعطشاً .

وقد خامر الخوف نفسه وهي لا تعرف الخوف .

ولكن كلا منهما رأى أن لا يزيد شقاء صاحبه باظهار مثل هذه المخاوف فسكتا .

وبعد هنيهة أخذ باردالييان الأكبر يد ولده وقال :

— أرى انه قد انتهى دورنا في هذه الحياة .

فأجابه ولده قائلا : من يعلم ؟

— حبذا ، فإني أتمنى أن أعيش أيضاً معك ، ولكني أكاد أجن توقاً إلى معرفة حقيقة هذا السجن، بل هذا القفص ولماذا صنع كله من الحديد ، وكيف ان أرضه منحدرة من جميع جهاتها إلى الوسط .

— ربما كان ذلك من ثقل الحديد فانحني من تلقاء نفسه

— ربما ، فلننتظر .

— لننتظر وبعد فما تخاف أمن الموت جوعاً ؟ لا أنكر انه موت ذريع ، ولكننا نستطيع النجاة منه حين نثق انه لم يبق بد من الموت .

— كيف ننجو من الموت جوعاً وبأية طريقة

— بالانتحار .

— لقد حاولت مرة الانتحار فراراً من الجوع في قبو دامفيـل ، ولكن كان خنجري معي في ذاك القبو ، أما الآن ، فلا سلاح معنا فكيف ننتحر ، العلك ترجو أن نضرب رأسينا بهذا الجدار الحديدي .

— لقد سمعت ان بعض الأسرى كانوا ينتحرون بهذه الطريقة تخلصاً من عذاب هائل ، وهي طريقة صالحة ولكن لدينا أحسن منها .

— ما هي ؟

— هي أن نموت بمهاز الجواد فان في كل نعل من نعلي مهمازاً وهو محدد الرأس كالخنجر .

— بورك فيك يا بني ، فإنها خير طريقة للانتحار فاخلعهما .

وأخرج الشفاليه المهمازين ، واعطى أباه واحداً وأبقى له الآخر .

وبعد ذلك سكت الاثنان وقد انبطحا على الأرض الحديدية في وسط الظلام الحالك ، وهما يحاولان أن يريا ويسمعا فلا يريان غير السواد ، ولا يسمعان حساً .

فكان مثلهما مثل أسدين حبسوهما في قفص فإذا ثار ثائرهما وحاولا الانقضاض وجدا سداً من ذلك القفص .

ولم يعلما كم أقاما في ذلك السجن .

وفيما هما على ذلك قال بارداليان الأكبر مخاطباً ولده .. أسمعت ؟

— نعم .. لنصبر ولنسكت . .

وكان الذي سمعاه صوت يشبه صوت آلة تبدأ بالعمل .

وفي الوقت نفسه استنارت الغرفة ، بل ذاك القفص الحديدي فجأة بنور أصفر .

ثم زاد تألق هذا النور كأن مصباحاً سرياً قد اتقد ، ثم تضاعف أيضاً بحيث بات الأسيران يستطيعان أن يريا كل ما كان في سجنهما الهائل لأن هذين المنكودين كانا لا يزالان يعتقدان انهما في سجن..

وكان أول فائدتهما من هذا النور ان كلاً منهما رأى وجه صاحبه فعلم ما يخالج قلبه من الرعب المرتسم على وجهه

فقال بارداليان الأكبر : إنهم سيهاجموننا

فأجابه ولده وقد هز المهماز بيده لنتأهب .

– أرى إنهم لا يريدون قتلنا جوعاً .

. كلا ، ولو أرادوا ذلك لما أرسلوا الينا هذا النور .

– إذاً انهم يريدون القتال .

– وحياتنا فيه .

فتنهد البطلان تنهد الارتياح فقد كانا يطمعان بحدوث معركة يموتان فيهما موت الأبطال ، ولكن هذا الهجوم المنتظر لم يحدث

وعندها فحصا الغرفة بنظر سريع فجمدت الدماء في عروقهمـا من الرعب وهذا ما نظراه .

إنهما بحثا في البدء عن الباب الذي دخلا منه .

ولكنهما لم يجدا باباً ولا أثراً لذلك الباب ولقفله ، فأيقنـا ان الباب سري ، وانه قطعة من الجدار يفتح ويغلق بطريقة سرية ميكانيكية .

ثم بحثا في الغرفة فلم يجدا غير الحديد في كل جهاتها .

ثم نظرا في أرض الغرفة التي شعرا قبل نفاذ النور انها منحنية من جميع جهاتها الى الوسط .

فرأيا الأرض محدودبة من الجهات الأربع وفي وسط الغرفة عنـد منتهى التحدر حفرة .

ولو مشوا في الظلام في أرض الغرفـة واتبعوا ذلك المنحـدر لسقطوا في الحفرة .

ولكن أين يقعان ، أفي حفرة أم هاوية أم في بئر عميقة ؟ .

فدنا الأسيران من الحفرة ونظرا فيها فـذعرا ذعراً شديداً لم يتمالكا عن اظهاره ، فقال باردالیـان الأكبر : لقد خفت ، وأنت يا شفالييه .

– لنبتعد عن هذه الحفرة يا أبي

وعادا إلى حيث كانا .

ولم تكن تلك الحفرة بئراً عميقة ، أو هاوية لا حد لها ، بل كانت حفرة بسيطة ولكنها هائلة .

فقد كانت كلها من الحديد يبلغ عمقها خمسة أقدام فقط .

وقد حفر فيها ما يشبه الخندق ، وهو ممتد في أطرافها ، وهـذا الخندق ينتهي إلى ميزاب لم يعلما منتهاه .

وقد كان ذعرهما لأنهما توقعا أموراً هائلة ، ولكنهما لم يعلما السبب في جعل هذه الغرفة من الحديد ، وكيف ان أرضها محدودبة ينتهي تحدرهـا إلى الحفرة ، وأي غرض من هذه الحفرة ، وما شأن هـذا الخندق فيها وذلك الميزاب .

ثم جعلا ينظران إلى منافذ النور ، فرأيا انه ينفـذ من أربع جهات . ولكنهما لم يعلما مكان نفاذه ، إذ لم يجدا مصابيح ولا ثقوباً ينبعث منها النور .

فنظرا إلى السقف فوجـدا انه من الحديد أيضاً ، وانه مصنوع بنفس رسم الأرض .

غير ان الفرق بينهما أن الأرض كانت محدرة والسقف نافراً بحيث لو انطبق السقف على الأرض لباتا قطعة واحدة .

ثم رأيا أيضاً انه يوجد في وسط السقف قطعة بارزة من الحديد يبلغ طولها خمسة أقدام ، أي قدر عمق الحفرة .

وكانت تلك القطعة موضوعة في السقف في مكان يناسب تماماً مكان الحفرة من الأرض ، بحيث لو قدرنا انطباق السقف أيضاً لنزلت القطعة البارزة في الحفرة ، فكانت منها كالفدام من فم الزجاجة .

وقد فحص الشفالييه بارداليان جميع ما رآه فحصاً دقيقاً فوجف قلبه وعلم الحقيقة قبل أبيه ، وقال بصوت يتهدج من الرعب :

— إنها الآلة . .

تلك الآلة الميكانيكية الهائلة التي اخترعها ديوان التفتيش وكانت تستعمل

في السجون في القرن الخامس عشر والسادس عشر .

أما باردليان الأكبر فلم يفهم شيئاً من ذلك فقال له : ما هذه الآلة يا بني ؟

ولكن الشفالييه ، لم يجد متسعاً من الوقت للاجابة ، فقد تكلم القفص عنه .

ذلك انهما سمعا دوياً يشبه دوي أبواب تلك المخازن الحديدية في عهدنا الحاضر حين إقفالها .

وكان هذا الدوي صادراً من السقف فنظرا اليه وجمد الدم في عروقهما وصاحا بلهجة رعب لا تصفها الأقلام قائلين :

يا للهول !.

ذلك انهما رأيا السقف الحديدي يهبط عليهما .

وكان يهبط بجملته هبوطاً بطيئاً متناسباً متصلا .

ورأيا تلك القطعة البارزة من الحديد تهبط أيضاً لتدخل في الحفرة ، وهما ؟.

انهما سيشمران قريباً بذلك الجبل الحديدي فوق رأسيهما .

فخطر لهما أن يفنا أيضاً دقيقة من الحياة بنزولهما إلى الحفرة .

وإنما قلنا دقيقة ، لأن تلك القطعة البارزة من الحديد ستهبط عليهما فتسد الحفرة وتعصرهما عصر الزيتون .

وذلك الخندق في أسفل الحفرة معد لاستقبال دمائهما وستنزف الآلة كل دمائهما ، فلا تبقي منها قطرة .

فنزلا إلى الحفرة وقد جذبتهما اليها كما تجذب الرياح الثائرة في المحيط السفن الجانحة إلى البر .

وكانت حركة الآلة مستمرة ولها دوي شديد .

والسقف يهبط هبوطاً متصلا ، حتى لم يبق بينه وبين رأسيهما غير

ذراع .. ثم شبر .. ثم قبضة .. ثم اصبع ..

ثم مس ذلك السقف الرهيب شعورهما فأحنيا رأسيهما .

ثم انطبق السقف على الأرض وبقيت القطعة البارزة فـــنزلت إلى الحفرة وبلغت اكتافهما .

وهي مستمرة في نزولها إلى أن تبلغ أرض الحفرة فتستقر فوق الجثتين .

وقد جحظت عينا ذينك المنكودين ونفرت عروقهما وضغطت القطعة على كتفيهما ضغطاً أعدمهما الرشاد .

وخطر لباردالیان الأكبر إجراء المستحيل ، وهو ان يوقف حركة الآلة بقوة كتفيه .

فثبت رجليه في أرض الحفرة وتشدد كي يوقف انزال الآلة .

ففاز بما أراد ووقفت حركة الآلة .

ولكن ذلك لم يدم غير بضع ثوان ، لأن الشيخ الشديد خارت قواه وسقط على ركبتيه ، وعادت الآلة إلى الحركة والحديد إلى النزول .

وحاول الشفاليه أن يفعل فعل أبيه فأوقف النزول هنيهة وهو يقول : ان المهمازين لا يزالان معنا فمتى سقطت بجانبك تنتحر .

وبعد لحظة سقط بجانب والده .

وقد دنت الساعة الرهيبة الهائلة .. ساعة الموت المحتم الذريع ، فرفع كل منهما مهمازه كي ينتحر .

- ٢٤ -

دق الجرس

في الساعة الثانية بعد منتصف تلك الليلة ، أي قبل أن تدور تلك الآلة الرهيبة ويسقط الهرم الحديدي على بارداليان وأبيه ، خرج رينيه الفلكي من القصر الجديد الذي بنته له الملكة ، وسار مطرق الرأس إلى كنيسة سانت جرمين .

وقد دخل اليها من الباب الذي دخل منه ليلة الاثنين الماضي ماريلياك وخطيبته اليس .

وقد وجد رجلاً ينتظره عند الباب، وهو الرجل المنوط به دق الجرس. فدفع اليه الرجل مفتاح القبة وقال له :

— ألا تريد ، يا سيدي أن أساعدك فإن الجرس كبير يصعب عليك أن تدقه وحدك .

— كلا .. دعني وحدي وانصرف .

فامتثل الرجل ودخل رينيه إلى الكنيسة فأقفل بابها وصعد إلى قبة الجرس .

ووصل إلى غرفة معرضة لجميع مهاب الهواء وفي سقفها عدة ثقوب تتدلى منها الحبال المربوطة بالجرس .

وبينها حبل غليظ معد للمطرقة الكبرى التي لا يستعملونهـــا ، إلا في

الحفلات النادرة .

فأخذ رينيه الحبل وهزه ، فسمع حركته سرب من البوم كانت فوق السقف وطارت هاربة .

ونظر اليها رينيه وجعل يخاطبها فيقول :

– من أنت أيتها الأرواح الهائمة في الفضاء .

العلك أرواح تلك التماثيل التي شاهدتها عند مدخل الكنيسة .

أبينك روح ذلك الملك الذي بنى هذه الكنيسة منذ الف عام ؟

ولماذا أراك هائمة في الظلمات ، العلك آتية لمساعدتي ؟

نعم يجب أن يحضر الليلة جيش كثيف من الأرواح المقيمة في عـالم الكواكب فيمنع روح ولدي عن الفرار .

وقد أخذ العرق البارد يسيل من جبينه ، وجعل يسير في أرض الغرفـة ويقول :

– لقد دنت الساعة التي يجب أن أدق فيها تلك الدقات الهائلة التي ستفتك بالألوف من بني الانسان ولكنها تحيي ابن الملكة وترد اليه تلك الروح ..

ثم أخذ ذلك الحبل الغليظ ، وجعل يهزه بملء قوته ، فما لبث صوت ذلك الجرس أن رن في الفضاء ، فدوى صداه في ذلك السكون يحمـل القتل والموت ..

* * *

كان قصر اللوفر يشرف على تلك الكنيسة .

وكان في تلك الساعـة الهائلة اثنان واقفين في أحد مشارف اللوفر المشرفة على تلك الكنيسة ينتظران بملء الجزع دوي ذاك الجرس .

وهما كاترين دي مدسيس بملابس السواد وابنها العزيز الدوق دانجو .
وقد أخذت الأم بيد ولدها وشعرت ان تلك اليد ترتجف .
وكلاهما شاخصان بنظرهما إلى الكنيسة .
وقد اضطربت أعصابها ، وجمدت دماؤهما ، وكانا كالواقف أمام لغم ينتظر انفجاره .
ثم سمعا أول دقة من دقات الجرس الهائلة .
فاهتز الدوق دانجو وأفلت من يد أمه فتراجع منذعراً حتى بلغ إلى كرسي فانطرح عليه خائر القوى .
وقد سد أذنيه كي لا يسمع صوت الجرس ، وأطبق عينيه .
وأما كاترين فانها تنهدت تنهد المنفرج بعد ضيق وضغطت بيديها على سواعد المشرف كأنها تحمست بتلك الدقات .
ثم توالت دقات الجرس فتلتــه أصوات جرس آخر ، ثم ثالث فرابع ، حتى تناولت جميع كنائس باريس ، ودوى الفضاء بأصوات الأجراس في كل مكان .
وبعد هنيهة رأت كاترين من مشرفها أشباحاً تركض وسيوفاً تلمع ومشاعل تضيء وهي تعد بالألوف .
وقد باتت باريس بجملتها شعلة من نار كأنما جهنم قد انتقلت اليها .
ثم سمعت تلك العاتية دوي غدارة من ورائها في اللوفر تلاها دوي آخر .
وتوالى دوي البنادق في اللوفر وفي باريس ، فلم تكن تسمع غير دق الأجراس ودوي الرصاص وصياح القتلى .
وقد تقطب وجه السماء الصافية بدخان البارود ، وبدأت المذبحة الهائلة ، مذبحة الهوكينوت الكبرى .

* * *

وكان الباريسيون قد تفجروا حين سمعوا أول دقة كما ينفجر اللغم .
فقال الدوق دي كيز : لقد دنت الساعة .

وقال قوله الرهبان والقسس وكل كاثوليكي كان يعتقد انه ينقـذ الكنيسة بهذه المذبحة .
وأما الدوق دامفيل فإنه حين سمع الدقة الأولى زأر زئير الوحوش الضواري وصاح برجاله قائلاً :
— هلموا إلى قصر مونمورانسي لقد دنت الساعة... هلموا إلى القتل ولاتبقوا على أحد .

- ٢٥ -

الملك الضاحك

أما الملك شارل التاسع فقد كان في غرفة رقاده .
ولم يكن قد خلع ملابسه بعد بل كان جالساً في كرسي كبير تزيده صغراً على صغره في العيون لاتساعها .

وأمامه كلبان كبيران كانا نائمين عند قدميه نوماً قلقاً مضطرباً ، فإنهما كانا يصحوان من فترة إلى أخرى ويصغيان ثم يعودان إلى النوم حين يريان صاحبهما جالساً في كرسيه دون حراك ، وهو مطبق العينين ولكنه غير نائم فقد كان ينتظر .

فعندما سمع دقة الجرس الأولى ارتعدت فرائصه وفتح عينيه ، لكنه لم يقم

ولبث جالساً في كرسيه .

ثم توالى دق الأجراس فوقف الكلبان ، وجعلا ينبحان نباحاً شديداً ، من الخوف والغضب .

فناداهما الملك ، فأسرعا إلى كرسيه ، وجلس كل منهما في جانب . فضم الملك رأسيهما إلى صدره ، كأنه يريد أن يشعر بوجود أصدقاء .

وجعلت الأجراس يجاوب بعضها بعضاً ، كأنما قد حدثت معركة هائلة بين رياح الجو ، وكل هذه الأصوات تدعو إلى الموت .

وقد اصفر وجه الملك ، وامتقع لونه ، وخارت قواه ، وتمثل له انه يقتل الألوف من الناس ، في باريس ، وفي فرنسا ، بكلمة خرجت من فمه .

فخاف خوفاً شديداً وقام إلى سريره ، فوضع رأسه بين مخدتين ، كي لا يسمع .

ولكن الدوي كان يزداد ، في كل لحظة ، حتى اهتزت له نوافذ غرفته .

فقام الملك ومشى في غرفته وهو ضائع الرشد ، وقد أضل صوابه اتصال دق الأجراس .

فجعل يخاطب تلك الأجراس وهو لا يفقه ما يقول .

ثم يثوب إلى رشده وتتمثل له تلك الفظائع الهائلة ، فيعض أصابعه من الندم ويقول :

- رباه ! أين أذهب ؟ وأين أفر ؟ .

وقد مضى به ساعة على ذلك وهو في حالة تشبه النزع وقد تمكن منه اليأس حتى لم يعد يدري ماذا يصنع .

فذهب إلى نافذة وأزاح ستارها ونظر إلى الخارج فتراجع مذعوراً .

وكان الفجر قد انبثق ، ولكن المشاعل كانت لا تزال في الشوارع ، فسمع الملك ورأى ما تشيب لهوله الأطفال ، من سفك الدماء ، وصياح الجرحى .

وقد رجع إلى وسط غرفته فراراً من هذا المنظر الهائل المفجع وهو ينتف شعر رأسه بيديه ويقول :

— رباه ! ماذا صنعت ؟.. أنا أصدرت الأمر بارتكاب الفظائع .. رباه ! أين أهرب ؟

ثم فتح باب غرفته ، وقد ضل صوابه وملأ اليأس والذعر قلبه ، فخرج إلى رواق ومشى فيه بضع خطوات ، فأحس ان شعر رأسه قد وقف ، وان ركبتيه لا تستطيعان حمله .

ذلك انه رأى في ذلك الرواق ، قرب غرفته ، خمس جثث ، مضرجة بالدم .

فمشى خطوة فرأى فتى من الهوكينوت يدافع عن نفسه ضد عشرة من الكاثوليك وقد انقضوا عليه انقضاض العقبان .

فسقط مضرجاً بدمه قبل ان يصل اليه وكان هذا الفتى كليرمون دي بيل من الذين كان يلاعبهم بالكرة .

ثم تقدم أيضاً ، فرأى إمرأتين من الهوكينوت ، مزقت الخناجر جسديهما .

فسار في منعطف آخر ، فكان يسمع وقع الخناجر ، يتلوها الشتائم فأنين الجرحى ، حتى خيل لهذا الملك الضعيف ان جهنم قد انفتحت ، وجعل يقول :

— ويح لنفسي أنا الآمر بهذه الفظائع .. أأكون ملك فرنسا ثم آمر بقتل النساء والبنات والأطفال ؟..

كفى ، كفى .. لا أريد القتل... ولكن ، أين من يسمع ؟.. بل

أين المفر ؟ .

ثم ترك ذلك الرواق الذي كان فيه ، ونزل في سلم . فارتعدت فرائصه إذ رأى نحو عشرين جثة من اولئك المنكودين .

فرجع ومشى في رواق آخر فسمع دوي البنادق يقرع الأسماع، وقد فرش ذلك الرواق بجثث القتلى .

ورأى ثلاثة يطاردون رجلا فصاح بهم قائلا :

– كفى كفى لا تقتلوه .

ولكنهم لم يسمعوه ، او تظاهروا بعدم سماعه فسقط الرجل قتيلا ، وسار الثلاثة للتفتيش عن سواه .

فدنا الملك من ذلك الرجل الذي قتلوه وعرفه فذعر ذعراً شديداً إذ عرف انه البارون دي بونت وكان يلاعبه في النهار .

وما زال يسير من رواق إلى رواق ، وهو كلما رأى مثل تلك الفظائع في رواق ، هرب إلى آخر ، فرأى أفظع منها . حتى انتهى إلى ردهة متسعة .

وهناك رأى ما كاد يذهب بعقله ، فقد رأى نحو عشرين شخصاً من الهوكينوت بين نساء ورجال بملابس النوم وهم راكعون يحيط بهم نحو مائة رجل مدججين بالسلاح .

ولما رأى الهوكينوت الملك ، انتعشت أرواحهم ، وصاح بعضهم يقولون : رحماك ! . إننا كنا ضيوفك . وقد كنا أصحابك .. إننا أكلنا على مائدة واحدة .

فعاجلهم الكاثوليك بالخناجر والبنادق ، فقتلوهم قبل ان يتمكن الملك من الدنو منهم .

فلم يستطع إجابتهم إلا بذلك الضحك الهائل ، الذي كان يتقدم نوبته العصبية .

وقد طال ضحكه إلى ان تفرق الكاثوليك ، ولم يبق أمامه غير جثث أولئك الضيوف .

فلم يطق النظر اليهم ، فوضع يديه على رأسه وفر هارباً راكضاً وهو لا يعلم أين يسير .

وما زال يركض حتى وصل إلى غرفة ففتح بابها ودخل اليها .

وكانت الأسلحة على اختلافها معلقة فوق جدران هذه القاعة وهي قاعة السلاح التي دخل اليها بارداليان مع مونمورانسي وجرت فيها الحادثة مع الملك كما يذكر القراء .

فوقف هنيهة في هذه القاعة وتنهد كأنه أمن من خوفه .

ثم رأى فجأة ان الباب قد فتح وان رجلين قد دخلا منه وهما ممزقا الملابس وفي أثرهما نحو خمسين رجلاً بالخناجر المجردة .

فجمد الدم في عروق الملك ، لأن هذين الرجلين ، اللذين كانوا يطاردونهما ، إنما كانا زعيمي الهوكينوت ، وهما ملك النافار والبرنس دي كونديه .

وقد هجم عليهما المطاردون في وسط تلك الغرفة كأنهم لم يروا الملك ، أو كأنهم أرادوا إرضاءه بقتلهما أمامه .

ولكن الملك صاح بهم صيحة منكرة وقال :

- إلى الوراء !..

فدنا أشدهم تعصباً وتحمساً وقال :

- إنهما من الهوكينوت ، يا مولاي ، فهل يريد جلالتكم حمايتهما ؟

- إلى الوراء !. من هذا الذي يجسر ان يقول أمامي هذا القول ؟.. اخرجوا جميعكم .

فخرج الجميع مطرقي الرؤوس .

وذهب الملك في أثرهم ، فأقفل باب القاعة ، ورجع إلى الملك

هنري والبرنس دي كونديه ، وهو يتوهج غضباً ، وقد بدت في عينيه دلائل الجنون ، فقال :

– أيوجد هنا سلطة فوق سلطة الملك ؟

فأجابه البرنس دي كونديه :

– نعم يا مولاي وهي سلطة ..

فقاطعه ملك النافار قائلاً : أصمت !

وقد صبغ وجهه بصفرة الموت .

غير ان ذلك الأميرال الشاب ، لم يجزع ، فوضع يديـــه على صدره وقال :

– إني ما أتيت بك يا ملك النافار إلى ملك فرنسا لنطلب رحمة وعفواً بل جئت بك اليه لتسأله عن دمـــاء إخوانك .. فتكلم يا مولاي أو أنوب عنك في الكلام .

فابتسم ملك النافار وقال :

– إنك لا تزال من أهل العناد ، فاشكر معي ابن عمي الذي أنقذنا .

فأدار البرنس ظهره دون ان يجيب .

فجعل شارل ينظر اليهما نظرات منكرة ، وقد عاوده ذلك الجنون الذي حمله على الفرار من أروقة اللوفر ، ولكنه عاوده بشكل آخر فاتقدت عيناه وهاجت به عوامل الشر .

وكان صياح الباريسيين وشكوى الخائفين وأنين الجرحى ودق الأجراس كل ذلك يصل إلى غرفة الملك مزيجاً مختلطاً .

فأدمعت عينـا البرنس دي كونـديه من الإشفـاق ، واقـترب من الملك فقال :

– أليس بـين جنبيـك قلب ؟.. أليـس في هذا القـلب ذرة من الرحمة ؟..

أجئت بنا إلى اللوفر لتذبحنا ذبح الأغنام ونحن ضيوفك ؟..
إسمع إسمع تلك الأصوات الرهيبة .
فاصطكت أسنان شارل وقال :
- كفى ، إنهم يقتلون الذين كانوا يريدون قتلي ..

وكل الذنب ذنبكم بما اقترفتموه وابتدعتموه في الدين بخداعكم ونفاقكم ، وإنما نحن ننقذ الكنيسة ونحافظ على دين آبائنا .

- وما يجري في تلك الكنيسة ، التي تريد إنقاذها ، غير تمثيل روايات .

فارتعد الملك ، وخرج الغضب من عينيه برقاً ، ثم قال : إصبر فسوف ترى .

ثم أسرع إلى الجدار ، فأخذ بندقية وصوبها على ملك النافار ، وقال له :

- إرجع إلى الدين القويم أو أطلقت النار عليك .
فأجابه دي نافار : ماذا تريد ؟

- أريد ان تذهب إلى الكنيسة كما يذهب اليها كل كاثوليكي ، ولا أريد أن أرى في بلادي مذهبين .
- سأذهب إلى الكنيسة .
- نعم ولك ان تختار بين الكنيسة والموت .

- لقد اخترت ، وسأذهب اليها حين تشاء ، بل أذهب اليها الآن إذا أردت .

فصوب بندقيته على البرنس دي كونديه وقال له :
- وأنت ؟..
- أما أنا فقد اخترت الموت
فأطلق النار عليه وصاح ملك النافار صيحة منكرة .

لكنه ، حين انقشع دخان البندقية ، رأى صديقه البرنس واقفـاً على السكينة ، لان يد الملك كانت تضطرب اضطراباً شديداً ، حتى أنه أخطأ المرمى .

فدنا ملك النافار من شارل التاسع وقال له :

— سكن روعك يا مولاي ، فأنا أضمن ان أعيده إلى الكثلكة على ان تمنحني مهلة ثلاثة أيام .

ولكن شارل لم يسمعه ، فقد عاوده الضحك ، وهاج به الجنون ، فأخذ بندقيته وهجم بها فجعل يكسر النوافذ والأبواب والاثاث وكل مـا تصيبه البندقية .

ثم القاها من يده وأطل من النافذة ، فرأى عصابة يطاردون أولئك المساكين . وبينهم كاهن رفع صليبه وجعل يصيح بهم قائلاً :

— أقتلوهم !

اقتلوا الكفار ولا تبقوا على أحد .

ثم رأى جماعة من الرهبان يطاردون امرأتين ، وقد قتـل أحدهم امرأة بصليبه .

وقبض الآخرون على شعر الثانيـة ، فقتلوها بالخناجر وهم يصيحون : لتحيي الكنيسة .

ثم رأى غلمان صغاراً يهربون كالأيائل ، وأولئك القساة يضربونهم بالبنادق ويعملون بهم القتل الذريع .

فجعل الملك يصيح صياحهم وقد ذهب صوابه ويقول .

- إذبحوا .. إذبحوا !

ثم أسرع عائداً إلى القاعة ، وكان فيها نحو عشرين بندقيـة محشوة ، فجعل يأخذ البندقية فيطلقها من النافذة على الهاربين ، ثم يعود فيأخـذ الأخرى حتى أطلقها جميعها ، وهو لا يعلم ما يصنع ويصيح قائلاً

– اقتلوا !

وعندما أطلق آخر بندقية سقط على الأرض صريع النوبـــة ، وخرج الزبد من فمه .

فرأى ملك النافار والبرنس دي كونديه عذابه الهائل .

وخرج ملك النافار وهو مطرق مفكر مهموم ، فتبعه البرنس دي كونديه وهو يبكي لنكبة قومه بكاء الأطفال .

– ٢٦ –

مجد كاتي

في الساعة التي كانت كاترين دي مدسيس واقفة في مشرف اللوفر تنتظر دقة الجرس الأولى المؤذنة بالمذبحة ، كانت كاتي صاحبة خمارة « ميت يتكلم » تسير في الليل ، كما تقدم ، وهي ترى تلك العلامات التي رسموها على منازل الهوكينوت .

وكانت تسير آمنة مطمئنة لا تتوقع خطراً ولا تخاف كارثة مع ان الغاية التي تسعى اليها كانت محفوفة بالأخطار .

وما زالت تسير حتى وصلت إلى زقاق لامنفذ له فوقفت عند مدخله وجعلت تغني بصوت مرتفع نشيداً مشهوراً .

فحدث عندها ضجيج في ذلك الزقاق .

وعادت كاتي إلى المسير ، ولكنها لم تكن تسير وحدها في هذه المرة بل

كان يتبعها جمهور عظيم من النساء يبلغ عددهن ثلاثمائة إمرأة
وكان هذا الجيش مؤلفاً من البغيات والمتسولات على اختلافهن بين الصبية والعجوز والسليمة والمشوهة من اولئك النساء اللواتي تقدم لنا وصفهن حين زرن كاتي في خمارتها .

وكانت كاتي تسير في مقدمتهن ، كما يسير القائد الأكبر في مقدمة الجيش .
وكان جميع هؤلاء النسوة مسلحات بعضهن بغدارات قديمة الطراز وبعضهن بالخناجر وأخريات بقضبان حديدية .

ومن لم تكن بينهن ذات سلاح فقد كانت معتمدة في سلاحها على أظافرها وأسنانها .
وكن يسرن غير مكترثات ، لتعودهن هذه الرحلات الليليــــة ، فكن يلتقين من حين إلى حين ، بتلك العصــابات التي ترسم العلامات ، على منــازل الهوكينوت .
فاذا حاول رئيس العصابة ان يسأل كاتي ، رئيسة هذا الجيش النسائي ، نظرت اليه نظرة ملؤها الوعيد فيتركهــا وينصرف ، وهو يحسب أنها سائرة بمهمة في المذبحة الكبرى .
وما زلن على ذلك حتى وصلن إلى سجن التامبل .

فوقفت كاتي ووقف جيشها وراءها
وكن جميعاً متحمسات متشوقات إلى المعركة ، حتى ان فتاة منهن لا تبلغ السادسة عشرة من عمرها هزت غدارتها بيدها وقالت :
-- ليلمسوه بأذى إذا استطاعوا لان أمي كانت يوماً مريضة ، فجاءنا بخبز وخمر ودجاجة وأعطانا ثلاثة ريالات .

وقالت أخرى : وأنا أنقذني مرة من يد البوليس
وقالت غيرها وقد هزت حسامها :

– أمثل هذا الفارس الجميل يعذب ؟

فانتهرتهن كاتي وأمرتهن بالسكوت .

فامتثلن كما يمتثل الجندي لأمر قائده .

ولكنهن كن متحمسات إلى القتال لانقاذ بارداليان وجعلت من عرفته منهن تحدث رفيقاتها بأعماله بصوت منخفض .

وأخذت كاتي عند ذلك بترتيب صفوف جيشها ، فوضعت في الصف الأول من كان سلاحهن البنادق ، يتبعهن المتسلحات بالخناجر ، فقضبان الحديد فالعصي .

وفي الصف الأخير من لم يكن لديهن سلاح .

ثم قالت لهن : يجب الانتباه الشديد والطاعة العمياء ، فمتى فتح باب السجن ودخلت فادخلن في أثري .

فلبثن ساكتات ينظرن إلى سجن التامبل المظلم الرهيب .

وفيما هن على ذلك ، دق جرس كنيسة سانت جرمين ، ثم تلاه جرس آخر .

فقالت إحداهن : ما هذه الأجراس ؟

وقالت كاتي في نفسها : العلها تدق لأجلنا ؟

وقالت غيرها : إنهم سيقبضون علينا .

فسمعتها كاتي ودنت منها ، فأشهرت خنجرها وقالت لها : إذا لم تسكتي قتلتك .

ثم زاد دق الأجراس ، وتلاه دوي البنادق في ذلك الليل الساكن ، فارتعش النساء وتمكن منهن الخوف حتى أوشكن ان يهربن .

ولكن الباب فتح في تلك اللحظة ، وظهرت منه عشيقتنا حاكم السجن .

فصاحت كاتي بجيشها تقول :

- إلى الأمام !!

ثم دخلت أمامهن فدخل الجميع في أثرها .

فقالت إحدى البغيتين : إن المفاتيح معي .

وقالت الثانية : لقد أقفلنا الأبواب على الجنود .

فقالت كاتي .

- لنسر إذاً إلى سجن باردالبان ، فأين الطريق ؟

- من هنا .

فقالت كاتي : إلى الأمام !!

وسارت البغي أمامها لترشدها إلى الطريق ، وسارت كاتي وراءها يتبعها النساء .

فلم يتقدمن بضع خطوات ، حتى سمعن صوتاً يقول : من هذا ؟.. إلى الوراء .

فصاحت كاتي بجيشها تقول إلى الأمام !

فأمر صاحب الصوت باطلاق النار .

فأطلق الجنود إثني عشرة رصاصة سقط على أثرها خمس نساء ، بين قتيلة وجريحة .

وجرت عند ذلك معركة هائلة بين اولئك النساء وبين اثني عشر جندياً برئاسة قائدهم .

وهذا بيان ما حدث :

إنه كان يوجد في سجن التامبل حامية مؤلفة من ستين جندياً .

وكانوا منقسمين الى قسمين يقيم كل قسم منها في مركز .

وكانت البغيتان ، حين رأتا حاكم السجن قد سقط صريع سكره ، قيدتا يديه ورجليه ، وأخذتا منه المفاتيح وذهبتا بهما مسرعتين إلى حيث يقيم الجنود .

وكان مكان المركز الاول ، في قاعة مقسمة ، قرب باب السجن الاكبر .

وفي هذه القاعة أربعون جندياً ، وجميعهم نيام . فأقفلنا عليهم باب تلك القاعة ، بحيث لم يعد الجنود يستطيعون الخروج إلا بكسر ذلك الباب الضخم .

وعند ذلك أسرعنا إلى باب السجن الذي كانت تنتظرها عنده كاتي بجيشها وفتحناه .

ولكنه كان يوجد في ذلك السجن مركز آخر للجند ، عدا عن السجانين والخفراء .

وقد كان أحد الضباط يطوف بجنده في أروقة السجن فمثر بذلك الجيش النسائي وأمر باطلاق النار عليهن كما تقدم .

فلما دوى صوت البنادق تنبه جند المركز الثاني الذين لم يقفل بابهم وأسرعوا إلى نجدة رفاقهم .

وكذلك السجانون والخفراء فإنهم هبوا من رقادهم مذعورين ، وأسرعوا إلى مكان المعركة .

فضحكوا في البدء حين رأوا أعداءهم من النساء .

ولكن ضحكهم لم يطل لان رصاص هؤلاء النساء كان يشوي أبدانهم ، وكانت خناجرهن تفعل بهم فعل الرصاص ، فقتل وجرح بلحظة نحو أربعين من الجانبين .

وكن ثلاثمائة ولم يكن الجنود والخفراء يزيدون عن خمسين فتغلبن عليهم ، وفزن فوزاً باهراً .

ومن بقي حياً منهم هربوا مسرعين مذعورين لهول ما رأوا ودخلوا إلى قاعة فاختبأوا فيها وسكروا بابها الضخم من الداخل .

ولم يبق في أسر النساء غير ضابط وجنديين .

فصاحت كاتي بنسائها : إلى الامام !!
وكانت قد أصيبت بثلاثة جراح ، وهي تزأر زئير اللبوة ، تبحث عن فريسة .

وقد بحثت عن البغيتين عشيقتي حاكم السجن ، فرأتهما طريحتين وقد أصيبتا بجرحين قاتلين .
فأخذت المفاتيح وقد ذعرت لاصابتهما لانها لم تكن تعرف طريق السجن الذي يقيم فيه بارداليان .
ولكنها فطنت للجنود الاسرى ، فذهبت اليهم ، وسألت أحد الجنديين قائلة :
ـ أين الشفالييه بارداليان ؟

فأجاب : لا أعلم .
فطعنته بخنجرها طعنة قضت عليه .
ثم التفتت إلى الضابط وقالت له :
ـ سر بنا الى سجن الشفالييه ..

فأجاب الضابط قائلا :
ـ أتحسبين أيتها المومس البغي إني ..
ولكن كاتي لم تدعه يتم حديثه فطعنته بخنجرها طعنة هائلة ذهبت بروحه والتفتت إلى الجندي الباقي وقالت له :
ـ وأنت ؟

فاصفر وجه الجندي جزعاً من الموت وأجاب :
ـ أما أنا فأطيع .
ـ سر أمامي .
ـ إتبعيني .
وسار الجندي فسارت كاتي في أثره يتبعها جيشها وهن منبوشات الشعور

داميات الوجوه والايدي .

وجعل الجندي يسير بهن من رواق الى رواق حتى انتهى الى سلم مستدير الدرجات ينزل منه الى جوف الارض .

فنزل الجندي في ذلك السلم المظلم .

فوضعت كاتي يدهـا على كتفه وقالت له : انك اذا خدعتني ، تموت في الحال .

— تعالي ، لا فائدة لي من خداعك .

فقالت احدى النساء · أنسير من غير نور ؟

فأجاب الجندي :

— لا حاجة الى النور لان الآلة الميكانيكية مستنيرة .

فارتعدت فرائص كاتي وسألته : الآلة ؟

— نعم وهناك الاسيران .

— أسرع أيها الرجل لان خنجري لم يعد يطيق الصبر .

فأسرع الجندي وهو يقول في نفسه . إنك ستجدينهما ولكنهما يكونان سائلاً من دم .

وتبعها جميع النساء ، ما خلا ثلاثين منهن ، بقين عند مدخل السلم للحراسة .

وكانت أصوات الثائرين في باريس خارج ذلك السجن ، تصل الى السرداب الذي دخل النساء اليه كهزيم الرعد البعيد .

فلما وصلت كاتي الى ذلك القفص الحديدي ، الذي تركناه وسقفه يهبط على بارداليان وابنه ، رأت رجلاً قصير القامة ، هائل الخلقة ، كبير الرأس ضخم الساعدين .

وكان هذا الرجـل جالساً على كرسي ، وهـو يدير دولاباً كبيراً من الحديد .

فسألت كاتي الجندي قائلة :
- من هذا الرجل ؟ وماذا يصنع ؟
- إنه مأمور الآلة الميكانيكية وهو يديرها الآن .
ورعبت كاتي وقالت :
- أين هما الآن .
- إنهما داخل القفص الذي ترينه والسقف يهبط عليهما .
ولم تجب كاتي بحرف ولكنها انقضت انقضاض المقبان على الرجل الذي يدير الآلة وقبضت على عنقه .

وأسرع النساء إلى نجدتها ، فألقوا الجلاد على الأرض ، وركمت كاتي فوق صدره والخنجر مشهر بيدها .

فكاد الرجل يجن رعباً وصاح قائلاً :
- رحماك يا سيدتي ، ماذا تريدين ؟
- أين الأسيران ؟
- داخل القفص .
- افتح .. افتح الباب ، أو أغمد هذا الخنجر في قلبك .
فمد الجلاد يده ، وقد ملء قلبه رعباً وأشار إلى لولب فقال : أديري هذا اللولب يفتح الباب في الحال
فوثبت كاتي إلى ذلك اللولب وأدارته ..
ففتح الباب للحال ..
وعند ذلك ظهر لها رجلان ... بل خيالان ، تبدو عليهما مظاهر رعب لا يوصف .
وضحكت كاتي ضحكاً عصبياً وقالت : لقد نجوا ..
ثم استحال ضحكها فجأة إلى بكاء ، فاستندت إلى الجدار وجعلت تبكي وتقول :

ـ لقد خلصنا ..

وصاح بارداليان وابنه بصوت واحد قائلين :

ـ كاتي ..

* * *

وبعد هنيهة ، خرجا من الحفرة ورأيا النساء المجتمعات في الرواق أقبلن عليهما يهنئنهما بالنجاة ، وعلما أن كاتي جمعت جيشا من الفواجر واغتصبت بهن أبواب السجن ، وكذلك علما السبب في وقوف هبوط السقف حين كاد يسحقهما .

وعند ذلك وثب الاثنان إلى كاتي ، وجعل كل منهما يقبلها في خد من خديها .

وساد السكوت هنيهة بين الجميع .

إلى أن قال بارداليان الأكبر :

ـ هلموا بنا الآن والويل لمن يعترضنا .

فأجابه إبنه : نعم . فإن الأسود قد خرجت من مرابضها فلتحذر الذئاب .

وسارت كاتي مع بارداليان وإبنه في طليعة النساء .

ولكنها لم تسر بضع خطوات ، حتى وهت قواها وسقطت على الأرض .

فنظر اليها الشفاليه نظرة حنو وتمتم : إنها جريحة .

فابتسمت كاتي وأشارت بيدها إلى ثديها الأيمن .

فأسرع بارداليان ومزق ثوبها ..

فظهر جرح بليغ وجعل الدم يتدفق منه .

فقالت كاتي :

ــ اذهبوا ودعوني هنا .

فقال باردالیان :

ــ أنذهب وندعك ؟. كلا إن هذا محال ..

ــ دعوني واذهبوا فلا مطمع لي بالحياة .

ثم ابتسمت وجعلت تنظر إلى الأب وابنه نظرات المودع شعر بدنو الأجل .

فأسرع الأب وابنه فحملاها وسارا بها .

ولكنهما لم يتوغلا بها في الرواق حتى رأيا أنهـــا فارقت الحياة وأثر الابتسام لا يزال على شفتيها .

فتنهد الشفاليه تنهداً عميقاً وقال : وأسفاه إنها ماتت !

وأجابه باردالیان الأكبر لقد أتوا .

وذلك انه رأى رينيه مقبلاً من آخر الرواق يصحبــه عشرون جنديا ، وهو آت ليأخذ ما استنزفته الآلة من دماء باردالیان ، كي يحيي بها ولده ماريلياك .

- ٢٧ -

خروج الأسود من مرابضها

وعرف المومسات بموت كاتي فصحن جميعهن بصوت واحد :

– الانتقام .. الانتقام .. لننتقم لكاتي .

فلم تمض هنيهة حتى احتدم القتال بين الجنود وبارداليان وأبيه ومعهما النساء .

وكان سلاح الأب وابنه المهمازان في البدء ..

ثم أخذا حسامي جنديين قتلاهما بهذا السلاح الغريب وانقضا على الجنود انقضاض الصواعق .

وكان النساء يساعدنهما خير مساعدة بالخناجر والعصي ، وكان باردليان وابنه يثبان بين أولئك الجنود وهما يصيحان صياحاً هائلاً وكل وثبة بقتيل أو قتيلين .

حتى وصلا إلى باحة السجن الكبرى ، فنشبت هناك معركة هائلة مع الجنود .

وكان رينيه الفلكي يركض من مكان إلى آخر كالمجانين وينتف شعره ويصيح مستنجداً .

ثم رأى ان باردليان وأباه قد فازا فوزاً باهراً على الجنود وباتا عند باب السجن بحيث أصبحت نجاتهما أكيدة مضمونة .

فخرج إلى الشارع والناس هائجون يعملون القتل الذريع بالهوكينوت وكان النهار قد طلع وبدأت المذبحة الكبرى .

وكان يستوقف الثائرين ويقول لهم: تعالوا إلى نجدتنا على اثنين من شياطين الهوكينوت ، فلا يجيب نداءه أحد .

كل ذلك وباردالیان وابنه يفتكان ويثوران كما لو هيجت أسداً غضوباً .

وعاد رينيه إلى السجن ، بعد أن يئس من أن ينجده الثائرون فجعل يسير في أروقة السجن على غير هدى .

إلى أن وصل إلى مركز الجنود الذين أقفل البغيتان عليهما الباب .

وكانوا قد صحوا من رقادهم لما سمعوه من الصياح والضوضاء في السجن ، فهبوا إلى أسلحتهم ، وحاولوا الخروج لنجدة إخوانهم فوجدوا الباب مقفلا .

وفيما هم هائجون يحاولون كسر الباب مر بهم رينيه ، وعلم بأمرهم فاتقدت عيناه ببارق من الرجاء فقال :

– صبراً فسأعينكم على فتح الباب .

فقال له الضابط · ولكن قل لنا بربك ماذا حدث .

– إن جيشاً من بنات الهوى هاجمن السجن وأخرجن سجينين منه ... اصبروا فسأجد وسيلة لفتح الباب .

لكن الجنود لم يسمعوا كلامه ، فاندفعوا بجملتهم على النوافذ يلتمسون منفذاً منها بكسر حديدها .

وأما رينيه فإنه أسرع إلى الباب الأكبر ، وقبل أن يبلغه رأى باردالیان وأباه يسيران إلى ذلك الباب سير الأسود العائدة إلى غاباتها .

وهاله ما رآه ووجد أنه لم يبق بينهما وبين الباب الأكبر غير بضع خطوات فزين له الجنون أن يتصدى لهما ويمنعهما عن التقدم .

ولا ندري كيف أن باردالیان تخلى عن قتله ، فإنه بدلاً من أن يخرق صدره بحسامه حمله بين يديه وقذف به كما يقذف الكرة فسقط بعيداً ورض

جسمه وأغمي عليه ، فلم يعد يرى شيئاً .

وتمكن الجنود من كسر حديد النوافذ فأسرع القائد الى حاكم السجن ، فوجده مكتوف اليدين مقيد الرجلين .

فحل وثاقه وأسرع معه إلى مكان الحادثة فلم يجدا في طريقهما غير الجثث الباردة والجرحى من الجنود والنساء .

ولما وصلا إلى الباب الأكبر علما أن الأسدين قد خرجا من القفص ولم يبق في السجن أحد من بنات الهوى .

* * *

عندما خرج بارداليان وأبوه من السجن واستنشقا هواء الحرية ، كان الفجر قد انبثق ، ولكن الثائرين في باريس كانوا لا يزالون يحملون مشاعلهم .

ولم يبقوها مشعلة للاستنارة بنورها فقد كان نور الصباح مغنياً لهم عنها ولكنهم كانوا يستعينون بلهيبها على إحراق المنازل التي وضعت عليها العلامات وهي منازل الهوكينوت .

فنظر بارداليان الأكبر الى ما حوله بعينين تتقدان ناراً وقال :

- اننا طليقان .

فأجابه ابنه نعم ، ولكن كاتي مسجونة في هوة الموت .

فنظر كل منهما الى الآخر نظرة الفاحص .

وكان كل منهما قد استولى على حسام وخنجر وهما يقطران دماً ، وزالت من عيونهما آثار الرعب .

فقال الأب لابنه : الست مجروحاً

- كلا ، وأنت ؟

اني لم أخدش خدشاً .. ولكن ماذا حدث في باريس وما هذه الدماء ، وما هذه الأصوات .. الا تسمع دوي البنادق .. العله يوجد معركة .

- كلا يا أبي ، بل هي مذبحة .. هلم بنا ولنسرع .
- الى أين . الى قصر مونمورانسي ؟
- كلا ، فلا نظن أنهم يجسرون على مهـــاجمته ، وفوق ذلك فهو من الكاثوليك . هلم بنا ولنسرع .
- ولكن ، الى أين ؟
- الى قصر كوليني يا أبي ، فانهم يقتلون الهوكينوت .. وهناك سيقتلون صديقي .
- أهو ماريلياك ؟
- نعم ..
- ولكنه مات ، ألم تسمع ما قاله الساحر ؟
- إنه قد يكون كاذباً فهلم بنا .
وكانا يتكلمان بأصوات منخفضة وهما يسيران .
وقد لقيا عصابات كثيرة في طريقهما ، فكان رجالها ينظرون اليهمـــا نظرات الريب ، ولكنهم يجتنبونهما لخوفهم من نظراتهما النارية ، وسيفيهما الداميين .
وكانا كلما توغلا في باريس زاد تألب الناس عليهما .
الى أن تصدت لهما عصابة فقال زعيمها لهما :
قولا لتحيى الكنيسة
وكان رجالها ستة وقد تخضبت أيديهم بالدم ، وحاولوا دون مرور الأب وابنه .
فتوقف الاثنان ، فقال الزعيم اهتفا للبابا .
فضم بارداليان الأصغر قبضة يده وصدم بها صدغ الرجل صدمة هـائلة ، فانقلب يهوي على الأرض .
فذعرت العصابة .

ولكن رجالهـــا لم يهربوا ، بل جعلوا يسيرون في أثر الاب وابنه وهم يستحثون الثائرين ويقولون : هوذا اثنان من الهوكينوت .

فلم يجدا بداً من الفرار واخذا يركضان وهما يدوسان على الجثث ويطعنان بخنجريهما كل من تعرض لهما .

وما زالا على ذلك حتى بلغا قصر كوليني في الساعة الرابعة من الصباح .

وكان شارع بيتهيسي غاصاً بالناس حول القصر .

فشق الاب وابنه صفوف الناس ولم يعترضهما أحد لكثرة الزحام ، ولانهم حسبوهما من الكاثوليكيين المتحمسين ، ولانهما كانا ابتعدا عن تلك العصابة التي كانت تطاردهما .

وكان باب القصر عظيماً وردهته غاصة بالناس .

وقد القى باردليان الاصغر نفسه في هذه الداهية لطمعه بانقاذ صديقـــه ماريلياك ، اذ لم يكن واثقاً من موته ، ولم يجد أبوه بداً من المسير معـــه ، خوفاً عليه .

فلما اختلطا بالناس في تلك الردهة سمعا صوت رجل ينادي رجلاً آخر في القصر ويقول له . ألم تفرغ بعد ؟

فالتفت باردليان الى صاحب هذا الصوت فعرف انه الدوق دي كيز ورآه يشير بيده الى نافذة من نوافذ القصر .

- ٢٨ -

هنا يقتلون

كان دي كيز قد تأخر بالوصول إلى قصر الأميرال .

فانه لم يبرح قصره برجاله إلا في الساعة الثالثة فطاف في الشوارع وأذن لرجاله بالقتل كي يشغلهم عن هذا التأخر لأنهم كانوا غير صابرين .

وإنما تأخر لمأرب خفي ، فانه كان لا يزال طامعاً بمهاجمة اللوفر ، ولكنه أراد أن يستوثق من صدق ما قالته الملكة .

وفيما هو يأمر بالقتل والناس من حوله يهتفون :

ليحيى الدوق دي كيز .. ليحيى منقذ الكنيسة ، أقبل عليه فارس ودنا منه وقال له بصوت منخفض :

لا سبيل إلى نيل ما تريد يا مولاي ، فان اللوفر محصن أتم التحصين ، وجنود الملكة في الطريق .

فعض دي كيز شفته من الغيظ والتفت إلى رجاله فقال لهم :

— هلموا بنا

ثم اندفع بجواده في طليعتهم ، فأخذ رجاله يصيحون صياحاً يطبق الفضاء قائلين : ليحيى دي كيز !

وكان كثيرون من الهوكينوت يقيمون في شارع بيتهيسي ، حيث يقيم قائدهم الأكبر

فلما مر دي كيز برجاله ، وجد أن الثائرين قد قضوا القضاء المبرم على أولئك المنكودين ، ورأى نحو مائتي جثة ملقاة على الأرض . وقد روت دماؤها التراب .

حتى إذا وصل إلى قصر الأميرال وقف ، إذ رأى مكتوباً على بابه الأكبر هذه الجملة :

« هنا يقتلون » .

فالتفت إلى رجل هائل الخلقة كان بجانبه وقال له : أرأيت ؟

– نعم ..

وكان هذا الرجل ذلك الذي عهد اليه الدوق بقطع رأس الأميرال وأذنت له الملكة بقطع ذلك الرأس وإرساله إلى رومة .

وفي ذلك الحين وصل الدوق دي أومال يخفره حاكم الهافر ، ومائة فارس فحيى الدوق دي كيز وقال له : أقضي الأمر ؟

– سوف يقضى ..

فترجل الدوقان عن جواديهما ودنا الدوق دي كيز من البـاب الكبير فطرقه بقبضة حسامه .

ففتح الباب في الحال وظهر منه كوسيني قائد حراس الملك .

ويذكر القراء ان الملك كان قد أبقاه مع رجاله ، في قصر الأميرال لحراسته .

فقال له كوسيني : أيجب أن نبدأ يا مولاي .

– إبدأوا فإن غيركم قد انتهى .

فهجم الجنود هجمة واحدة على ذلك القصر يحملون المشاعـل والسيوف مجردة في أيديهم .

وذهب ذلك الرجل الضخم تواً إلى غرفة الاميرال ، يصحبه إثنـا عشر حارساً .

وبعد لحظة علت أصوات أولئك المنكودين ، وكان صياحهم يشبه صياح المجانين . ثم ساد سكوت عميق وهو سكوت الموت .

أما الرجل الذي عهد اليه بقتل الاميرال ، فانه وصل إلى غرفته بمن معه من الرجال وكوسيني قائد حراس الملك يخفرهم .

ففتح الباب واستقبلهم تاليني صهر الاميرال وسيفه مجرد بيده فقال لهم :

- ماذا تريدون ؟

فأجابه الرجل الضخم قائلاً : نريد الكافر .

فانقض تاليني عليه بحسامه ، ولكنه قبل أن يصل اليه انقلب على الأرض صريعاً ، وقد أصيب بطعنات من عشرة خناجر .

فدنا منه كوسيني وفحصه ثم قال بملء البرود : انه مات .

ولم يكن تاليني قد مات ، بل كان لا يزال في حالة النزع ففتح عينيـــه ونظر إلى كوسيني فقال له :

قبحت من خائن سافل .

ثم بصق في وجهه .

فارتد كوسيني مصفر الوجه خجلاً وهو يمسح البصاق عن وجهه .

وعند ذلك دخل الرجل بعصابته إلى غرفة الاميرال .

وكان الاميرال جريحاً نائماً في سريره وفي تلك الغرفة مصباحان كبيران ينيران ظلامها

وكانت أنوارهما تسطع فوق وجه الاميرال فتظهر ما له من المهابة والجلال حتى إن علائم التردد قد ظهرت على وجوه أولئك الحراس .

وكان قرب الاميرال رجل واقفاً وهو يقرأ في كتاب صلاة .

أما كوليني فقد كان يسمع هذا اللغط منذ ساعة وقد عرف الحقيقـــة الهائلة بتمامها . .

ولكنه لم يحاول الفرار

على ان كل فرار كان مستحيلا ، فإن كوسيني توقع ذلك ، فأقام الحراس في كل مكان من قبيل الاحتياط والحذر .

ولما رأى الأميرال ذلك الرجل الضخم داخلا عليه ، التفت إلى الرجل الواقف يقرأ بقربه وقال له : لقد آن الأوان فصل صلاة الموت .

فأشار الرجل برأسه إشارة مصادقة ، وقلب بضع ورقات من الكتاب .

ولكن الموت كان أسرع اليه من كلماته ، فإن أحد رجال العصابة انقض عليه وطعنه بخنجره طعنة هائلة كانت القاضية .

وأما ذلك الرجل الضخم فقد دنا من الأميرال ، وهو يحمل بيد خنجراً وبالأخرى حربة مسنونة من حراب الصيد .

فنظر الأميرال إلى ذلك الرجل وقال له :

- من أخذ بالسيف بالسيف يؤخذ .

فأجابه الرجل قائلا : ان تقتل بالسيف .

ثم القى الخنجر من يديه وقبض على تلك الحربة ، وهي من الحراب الهائلة التي يقتلون بها الوحوش الضارية .

وهجم عليه ، ولكنه توقف وقد ارتجفت يده ، وهاله ما كان يراه من ظواهر السكينة والجلال على وجه ذلك الشيخ

فقال له الأميرال : اضرب أيها الجلاد فانك لا تقصر حياتي كثيراً .

فصاح الجميع من حوله صارخين : اضرب !

فطعنه الجلاد طعنة هائلة نفذت من عنقه ، وتفجر الدم من ذلك العنق .

وقد سكر هذا الوحش بما رآه من الدماء ، وجعل يطعن ذلك الشيخ النبيل كيفما اتفق ، دون رشاد ، وكلما طعن طعنة فتح في ذلك الجسم باباً عريضاً للدماء ، وزاده تحمساً ، أصوات الصائحين من حوله يحضونه على القتل .

ثم سمع صوتاً من تحت النافذة يناديه قائلا : أقضي الأمر ؟

فأجفل الرجل لهذا الصوت ، وقد صحا من سكرته الدموية ، وجعل يفحص تلك الجثة كما يفحص النمر الفريسة .

ثم حمل تلك الجثة من السرير وجرها جراً إلى النافذة، فأطل منها واجاب الدوق دي كيز قائلا :

– نعم لقد قضي الأمر .

ورفع الجثة وأظهر رأس ذلك الأميرال النبيل ، فرآه الناس على نور المشاعل وصاحوا جميعهم بصوت واحد :

– ليحيى الدوق دي كيز .. ليحيى منقذ الكنيسة !

وكان بارداليان وابنه قد رأيا هذا المنظر المفجع فجمد الدم في عروقهما وأنفت نفساهما تلك الصيحات الوحشية .

وبعد أن سكت الهاتفون نظر الدوق دي كيز إلى ذلك الوحش وقال له :

لقد أحسنت فالق الجثة من النافذة ليراها الجميع .

فامتثل الرجل والقى الجثة من النافذة .

فدنا دي كيز منها وتبين ذلك الوجه فقال :

– نعم انه هو بعينه .. نعم فلقد طالما حدثني قلبي أني سأدوس رأسك بقدمي .

وعند ذلك سمع صوتاً يقول :

– تباً لك من جبان !

فذعر الجميع لهذا الصوت والتفتوا منذهلين ليروا من يجسر على إهانة الدوق دي كيز هذه الاهانة بين رهطه وجنوده .

فرأوا الشفاليه بارداليان قد اخترق الصفوف ، ودنا من ذلك الدوق فقال له :

– إن أباك كان يلقب بالمشجوج ، وأما أنت فستلقب بالصفوع .

ثم رفع يده وصفعه على وجهه صفعة شديدة فسقط الدوق بين أيدي جنوده .

وقد جرى ذلك بسرعة عجيبة ، ووقعت تلك الاهانة وقع الصاعقة ، فهاج رجال الدوق هياج العواصف وانفجروا إنفجار اللغوم ، وجردت في لحظة مئات الخناجر والسيوف وصاحوا قائلين :

اقتلوه .. اقتلوه !

فأيقن بارداليان ان الموت لم يعد بد منه وجرد حسامه كي يموت موت الأبطال بين الوف الناقين .

ولكنه قبل ان يطعن طعنة بذلك الحسام شعر أن يداً قوية حملته ودفعته إلى جهة مظلمة من باب مفتوح .

ثم أغلق الباب فاحتجبت أنوار المشاعل ، ولم يعد يرى غير الظلام .

أما هذه اليد التي حملته فقد كانت يد أبيه فانه حمله حين رأى هذا الخطر المحدق به وأدخله من ذلك الباب ثم أغلقه بسرعة التصور .

فانهال الناس كالبحر الزاخر على هذا الباب يكسرونه .

ولكن بارداليان وابنه صعدا في سلم وهما لا يعلمان أين يسيران .

وأما هنري دي كيز فانه قال لأحد القواد :

- إصعد إلى القصر بخمسين رجلاً ، وابحثوا عن الرجلين وأتوني برأسيهما .

ثم التفت إلى الآخرين فقال لهم :

— اتبعوني وهلم بنا إلى مونتفكون .

- ٢٩ -

تشهير الجثة

وقبل أن يذهب الدوق برجاله دنا منه قاتل الأميرال فقال له : كلمة يا سيدي .

- ماذا تريد ؟

- هل عزمت على شنق الكافر .

- نعم ، فماذا تريد .. أسرع بالقول .

- أريد رأسه فهو لي وثمنه الف ريال .

وضحك دي كيز فقال :

- لقد أصبت .. فخذ الرأس وسنشنق هذا الكافر من رجليه بعد أن تقطع الرأس .

فانحنى القاتل بخنجره على رأس الأميرال ، وما زال يحزه حتى فصله عن الجثة .

فأشار دي كيز عند ذلك اشارة إلى إثنين من رجاله .

فاخذا الجثة من الرجلين ، وجعلا يجرانها على الأرض ، وهما سائران في مقدمة الموكب .

ومشى جميع الناس وراءهما ..

وفي طليعتهم دي كيز .

وهذا أقبح ما حدث في تلك المذبحة التي شوهت وجه الانسانية .

فقد كانوا يجرون تلك الجثة فوق الوحول بأبشع مظـاهر التشنيع ، ووراءها نحو عشرين الفاً من الباريسيين يضحكون ويلعبون وينشدون الأناشيد الحماسية ، كأنهم سائرون إلى حرب مجيدة ، يدافعون بهـا عن اوطانهم .

كل ذلك وجثة الأميرال المنكود تجر في طليعتهم ، تارة على الظهر ، وطوراً على البطن .

وكل ما ظفروا بهوكينوتي قتلوه القتل الذريع ، لا فرق بين أن يكون رجلاً او إمرأة أو غلاماً .

وما زالوا على ذلك حتى وصلوا الى ساحة الشنق ، فأمر دي كيز فربطوا رجلي الجثة بحبل وعلقوها في الفضاء .

وعند ذلك صاحت تلك الجماهير ، عندما رأت جثة الأميرال تتمرجح في الفضاء صياحاً يشبه هزيم الرعود سمعه جميع سكان المدينة .

- ٣٠ -

من أخذ بالسيف بالسيف يؤخذ

أما قاتل الأميرال فقد بقي في قصر الأميرال مع الرجال الخمسين الذين أبقاهم الدوق دي كيز للبحث عن بارداليان وابنه وقتلهما .

وأما اولئك الرجال فإنهم تمكنوا من كسر ذلك الباب الذي دخل منه بارداليان واندفعوا جميعهم إلى ذلك السلم المظلم .

فكان قاتل الأميرال يسمع أصواتهم ، كلما انتقلوا من مكان إلى مكان .

ثم جعل ينظر إلى رأس الأميرال فيضحك ويقول :

إنهم سيقبضون على هذين الشقيين ويقطعون رأسيهما كما أمر الدوق ولكنهم لا يكسبون دانقاً من هذين الرأسين .

أما أنا فسأكسب الف ريال برأس واحد ، وهو رأس جميل ، لا بد لي من غسله وتنظيفه .

وعند ذلك دخل إلى غرفة في الدور الأسفل ، وجاء منها بآنية ماء وجعل يغسل بلء السكينة ذلك الرأس وهو يغني كأنه جالس على مائدة مدام .

وكان يسمع ضجيج الباريسيين من الخارج ، ولكنه لم يكن يحفل بما يسمع لأنه صرف اهتمامه إلى الغناء وتنظيف الرأس .

وفيما هو على ذلك ، رأى رجلاً دخل إلى القصر ، وجعل يبحث فيه .

فعرفه القاتل انه مورفر وناداه فقال له :

– عما تبحث في هذا القصر ، يا مورفر ؟.. الملك تفتش فيه عن كنز ؟..

فأجابه مورفر : بل أبحث عما هو عندي أجل من كنز . أبحث عن رجلين من الهوكينوت كنت أراقبهما من سجن التامبل ، ثم أضعت أثرهما ولا بد أن يكونا دخلا إلى هذا القصر .

– أبينهما رجل كهل طويل القامة ؟

– هو ذاك .

– وآخر في مقتبل الشباب تبدو عليه علائم الجرأة والاقدام ؟

– هو بعينه .

– إنهما دخلا إلى القصر والجنود في أثرهما ، فاسمع حكايتهما ...

ولكن مورفر لم يصغ اليه ، ولم يدعه يتم حديثه ، فاندفع في السلم وتوارى عن الأنظار . فشيعه قاتل الأميرال بقهقهة ، وعاد إلى الغناء والتنظيف .

أما باردليان وابنه فإنهما صعدا في ذلك السلم ، وهما لا يعلمان اين يسيران لاشتداد الظلام .

فجعلا يخبطان خبط عشواء في تلك الظلمات ويسيران من مكان إلى مكان دون ان يجدا منفذاً .

وقد سمعا صوت كسر الباب وعلما ان الجند دخلوا في أثرهما .

فقال الأب : لقد وقعنا في الفخ ولم يبق سبيل إلى النجاة .

فأجابه الابن : لا تنس يا أبي أين كنا منذ ساعتين ... لقد كنا في قفص ، وكدنا نموت عصراً ... فنحن الآن في نعيم ، بالقياس إلى

ذلك الموقف .

وكانا تلك الساعة في غرفة يخزنون فيها الحبوب ، وليس فيها غـــير نافذة واحدة .

ويوجد مقابل هذه النافذة نافذة كائنة في بنـاية أخرى من بنـايات القصر وبين النافذتين مر ضيق يؤدي الى الحديقة .

فوقف بارداليان الأكبر في تلك النافذة وقال : هذه هي الطريق ، فأتني بلوح من الخشب .

وعند ذلك أخذ الاثنان يبحثان عن لوح فلم يجدا ، بل لم يجدا في ذلك المخزن شيئاً صالحاً لجعله جسراً بين النافذتين ، حتى ولا حبلاً يستعينان به على النزول .

وكانا لا يستطيعان النزول من السلم ، لأن الجنود كانوا يصعدون منه .

وبعد لحظة سمعا أصوات الجند وعلموا أنهم دنوا منهما .

فقال الشفاليه لأبيه بملء السكينة :

— لنثب وثوباً من هذه النافذة إلى الأخرى فليس بين النافذتين غير مسافة قصيرة لا تتجاوز ستة أقدام .

فأجابه أبوه بمثل لهجته : لنثب .

وصعد الاثنان الى النافذة ، فقال الأب وقـــد خطر له خاطر سريع : لا تثب واصبر .

ثم أمسك بخشب النافذة وقال لولده : أمسك بيدي .

فأمسك ابنه يديه وهو لا يدري ما يريد ان يصنع .

وكانت المسافة بين النافذتين لا تبلغ طول الانسان .

فمد بارداليان الأكبر رجليه وابنه ممسك به حتى التصقتا بتلك النافذة فقال لولده هوذا الجسر فمر عليه . .

لا تخف لان رجلي فوق نافذة البناية ويدي فوق هذه النافذة ، فلا خوف

عليك وعلي .

فمشى عند ذلك الشفاليبه على ظهر أبيه وبلغ غرفة البناية .

وعند ذلك أسرع فقبض على رجلي أبيه ، وجذبه إلى الغرفة التي كان قد وصل وهو يتنفس الصعداء لنجاة أبيه من هذا الخطر .

وبعد لحظة سمع الاثنان صياح الجنود فيمستودع القمح فانبطحا علىالأرض كي لا يروهما .

ثم سمعا الضابط يقول : إنهما وثبا من هذه النافذة دون شك حين كنا نصعد السلم إذ لا منفذ في هذه الغرفة سواها .

فأجابه آخر : هو ذاك وقد تمكنا من النجاة لان هذا الممر يؤدي إلىالحديقة فهلم بنا نعدالى الدوق .

ثم سمعا صوت نزول الجنود من السلم فأطلا من النافذة .

وبعد حين رأوا أولئك الجنود يكلمون قاتل الاميرال ، ورأوا ذلك القاتل يهز كتفيه .

فتركوه وانصرفوا مسرعين ، كأنهم يريدون أن يأخذوا نصيبهم من المذبحة .

أما قاتل الاميرال ، فقد كان فرغ من غسل الرأس ، وأخذ يلفه بالقماش .

وبعد ان انتهى من مهمته جاء بماء نظيف فغسل يديه ولم يبق عليه إلا أن يأخذ هذا الرأس ويسافر به مع رفاقه إلى رومة .

ولكنه لما خرج من تلك الغرفة التي غسل فيها يديه وعاد إلى حيث كان وجد باب القصر الكبير مقفلا .

فدهش وقال في نفسه :

— من أقفله ؟ ولماذا ؟

وفيما هو منذهلا ، يسائل نفسه هذه الاسئلة ، ظهر له فجأة

بارداليان وابنه .

فزاد انذهاله ولكنه كان انذهالاً مقروناً بالخوف .

فدنا منه الشفاليه بارداليان ، وقال له بلهجة لطيفة ، سكنت روعه ، وزادت قحته :

ـ أأنت الذي القيت جثة الاميرال كوليني من النافذة ؟

ـ نعم أنا هو أيها الهوكينوتي ماذا تريد ؟

ـ وهل أنت الذي قتلته ؟

ـ نعم أنا هو أيها الكافر ماذا تبغي ؟

ـ بماذا قتلته ؟

فأشار إلى حربة مصبوغة بالدم كان قد القاها على الارض وأجابه : إني قتلته بهذه الحربة .

ثم ضحك ضحك الساخر وقال : وسنقتلكما بمثلها أيها الكافران .

واندفع إلى الباب كي يستنجد عليهما الثائرين .

ولكن بارداليان الاكبر وثب إلى عنقه ، فضغط عليه حتى كاد يخنقه وهو يقول :

ـ لا تفه بكلمة قبل ان نناقشك الحساب .

فحاول القاتل ان يفلت من بارداليان ، ولكن يديه كانتا ناشبتين به كالكلاليب .

ثم أفلت بارداليان عنقه كي يدعه يتنفس ، فقال لهما بلهجة تدل على الرعب العظيم بعد تلك القحة :

ـ ماذا تريدون مني ؟

فأجابه الشفاليه قائلاً :

ـ إننا لا نريد منك شيئاً ، ولكننا نريد إنقاذ البشر من وحش مفترس .

ـ إذاً تريدان قتلي !

فهز الشفاليه كتفيه وقال :

ـ أتعرف المبارزة ؟

فتراجع القاتل إلى الوراء وجرد سيفه بيده اليمنى وخنجره بيده اليسرى ووقف في موقف الدفاع .

أما بارداليان فإنه حل منطقته والقى سيفه إلى الارض .

فذعر أبوه وقال له :

ـ ماذا تفعل ؟

فأجابه . إني لا أريد قتل هذا الوحش بالسيف بل بهذه الحربة .

ثم التقط الحربة عن الارض .

فابتسم القاتل ابتسام الاستخفاف ، لان سيفه كان أطول من الحربة مرتين .

ولكنه حين رأى بارداليان ماشياً اليه ، اصفر وجهه ، وذهب ذلك الابتسام .

أما بارداليان الاكبر ، فقد شبك يديه فوق صدره ، ووقف بالقرب منهما ينتظر .

وكانت هيئة بارداليان ، وهو يمشي الى ذلك القاتل ، تدعو إلى الرعب .
فحمل عليه الرجل حملة منكرة ، وجعل يضربه الضربة تلو الضربة ، بحسامه الطويل .

ولكن بارداليان كان أمهر رجل في ذلك العصر بالمبارزة ، فكان يرد ضرباته بحربته ويزحف اليه فيضطر الرجل إلى الارتداد .

وما زال بارداليان يهجم عليه بملء المهارة والحذق ، والرجل يرتد بملء الحذر والذعر ، حتى التصق بالباب الأكبر . ولم يبق بينه وبين حربة بارداليان غير شبر .

فعلم انه لا قبل له بهذا الخصم العنيد ، وأيقن من الموت .

فاكفهر وجهه ، وجزع جزعاً شديداً ، وذكر كلمات الاميرال الاخيرة وهي :

– من أخذ بالسيف بالسيف يؤخذ .

وكان هذا آخر ما ذكره لان باردليان انقض عليه عند ذلك انقضاض الاجل المحتوم وطعنه بتلك الحربة التي كانت لا تزال مصبوغة بدم الاميرال طعنة واحدة .

وقد اخترقت الحربة صدره ونفذت من الصدر إلى الباب فاخترقته بحيث بات مسمراً في باب الاميرال .

وقد مات لفوره دون ان يفوه بكلمة .

وعاد باردليان إلى حسامه فتقلده ، ثم تأبط ذراع أبيه وخرج وإياه من باب الحديقة .

ولكن باردليان الاكبر ، رأى ورقة سقطت من جيب قاتل الاميرال ، فأسرع إلى التقاطها ، ووضعها في جيبه ، بينما كان ولده يتقلد حسامه .

* * *

وبعد خروجهما بدقيقتين أقبل مورفر إلى ردهة القصر ، حيث كان باردليان .

وكان قد تبع رجال دي كيز ، الذين كانوا يبحثون عن باردليان وابيه ... ثم لم يكتف بتفتيشهم ، فبحث بنفسه في جميع أنحاء القصر .

ولما قنط من لقائهما عاد الى الردهة لاعناً شاتماً .

وكان أول ما رآه قاتل الاميرال ، فذعر ذعراً شديداً حين رآه مسمراً بالحربة في ذلك الباب .

وأيقن ان ذلك من صنع بارداليان .

وقد بات واثقاً أنهما برحا القصر ، وان هذا القصر لم يبق فيه غير الجثث .

وعول على أن يبحث عنهما حتى يظفر بهما .

وفيما هو يهم بالخروج ، رأى رأس الاميرال ملقى على الارض ، وهو ملفوف بالقماش .

فقال في نفسه : لا بأس من أخذ هذا الرأس فهو مفيد .

ولكن لمن أعطيه ؟.. فان الملكة ودي كيز يتنازعانه ... والذي أراه ، انه يجب إعطاؤه الى الملكة ... لان دي كيز قد فشل هذه المرة .

ثم حمل الرأس ، وخرج به من القصر ، وهو يعض شفته غيظاً ، لهرب بارداليان .

* * *

وأما بارداليان وابنه فإنهما حين باتا في الشارع قال الاب لابنه : هلم بنا الآن نخرج من باريس .

فأجابه ولده : كلا بل يجب ان نذهب إلى قصر مونمورانسي .

— ولكنك أنت قلت .. أن المارشال لا خطر عليه ، لانه من الكاثوليك .

— من يعلم ما يكون فهلم بنا اليه .

فاستاء الأب لهذا العناد وقال له :

- الملك اشتقت الى لويزا ؟..

فاصفر وجه الشفاليه وقال : هلم بنا يا أبي، لاننا قد نفيد الاميرال إذا هاجموه .

ثم تمثل له ان عصابات الثائرين محدقة بلويزا ، فكاد يجن قلقاً ، وأسرع الخطى ..

فتبعه أبوه وهو يقول : ولكنك قد تلقى هذا المارشال مع جماعة القاتلين لانه من الكاثوليك .

فوقف الشفاليه ، وقد اصفر وجهه ، فقال : إذا كان ذلك كان أمراً هائلا . إني أريد ان أستوثق يا أبي ... وأحب ان أعلم إذا كانت لويزا إبنة رجل يقتل الابرياء ، من عباد الله ، باسم الله ... هلم يا أبي الى قصره .

- هلم ولكن ذلك صعب ..

- ٣١ -

عيد القديس برتلماوس

هو يوم تلك المذبحة الكبرى التي لم يرو التاريخ أفظع منها ، فإنها شوهت وجه التاريخ والدين والانسانية والمدنية .

وقد أفاض مؤلف هذه الرواية في وصف فظائعها الهائلة ومثلها للاذهان تمثيلا ترتعد له الفرائص

وخلاصة أقواله ان هذا الشعب المتحمس أسكرته الدمـاء فارتكب من فظائع القتل والتشنيع ما لا يخطر في بال إنسان .

وقد دامت هذه المذبحة ستة أيام في باريس وفي الريف ، فكانوا يقتلون الرجال أقبح قتل ويمثلون بالنساء أقبح تمثيل ، ولا يعفون عن الاطفال ، فقد كانوا يقتلونهم ويلقونهم في النهر .

ولكننا لا نبحث في ذلك إلا بما كانت له علاقة بباردليان .

فقد خرجا من قصر الامـــيرال ، وهما ينويان الذهاب الى قصر مونمورانسي .

فوافق الاب ابنه على الذهاب اليه ، ولكنه توقع بنظره الثاقب ما سيلقى من المصاعب قبل الوصول الى هذه الغاية .

وإنما توقع تلك الصعاب لما يعلمه من طباع ولده ، فإنه لا يحفل بالسياسة ، ولا يراعي موقفاً ولا يصبر على الجور ولا يرهب الموت .

وفوق ذلك فإن كل كاثوليكي يسير في شوارع باريس في ذلك اليوم كان قد وضع على ثوبه رقعة بيضاء تمثل الصليب .

وذلك كي يتميز بها عن الهوكينوت فلا يقتلونه .

ولم يكن باردليان وابنه قد وضعا هذة العلامة .

وقد خطر لابيه ان يضع هذه العلامة ، فأبى عليـه ولده كل الاباء ، فإنه لم يكن من الهوكينوت ، ولكنه كان يكره التعصب الديني ، ويأنف من القتل بسبب الدين ، ويرى في وضع العلامة معنى الخوف ، فلا يطيق النظر اليها .

غير ان الشوارع كانت غاصة بالقتلة ولا سبيل إلى إدراك قصر مونمورانسي إلا بالمرور من بين اولئك الناس .

فسارا وهما لا يعلمان الى اين يسيران .

حتى انتهيا إلى ساحة رأيا فيها كثيراً من الحطب المعد للاحراق ، أمام

قصر كبير .

وقد وضع كل أثاث ذلك القصر فوق تلك الأحطاب ثم أشعل أحد أولئك الأجلاف النار في الحطب .

وعندها ظهر رجل يحمل بين ذراعيه جثة .

فصاح الجميع قائلين : ليحيى بيزو .

وأما هذه الجثة فكانت جثة الدوق دي روشفوكار .

وأما بيزو فكان يسير بها كالنمر وقد ظهرت عليه الوحشية .

فحياه أحد الحاضرين بقوله · عوفيت يا بيزو ، لقد جاهدت خير جهاد ، وهذا القتيل الأربعين .

فابتسم بيزو والقى الجثة فوق النار .

فصاح الجميع صيحات الابتهاج ، وقد سروا سروراً وحشياً لهذا المنظر الهائل .

فأخذ بارداليان الأكبر بيد ابنه وقال له : لنهرب فلا أطيق النظر إلى هؤلاء الوحوش .

وقد ضغط على يد ابنه ضغطاً شديداً لأنه رآه يحاول الانقضاض على بيزو وقد أعمت بصيرته تلك الأعمال المنكرة .

ولكنه لم يسعه مخالفة أبيه ، فسار معه مكرهاً في طريق قصر مونمورانسي .

وعندما اقتربا من السين رأيا جمهوراً عظيماً من الناس .

ثم لم تمر لحظة ، حتى باتا في وسط تلك الجماهير ، عند مدخل شارع سانت دنيس .

فنظرا الى ما حواليهما فرأيا منزلاً جميلاً كسرت نوافذه وجعل مهاجموه يرمون منها ما كان فيه من الأثاث .

ولم يسمعا من داخله أصوات الأنين والاستغاثة ، لان أصوات الجماهير

كانت تمنع وصول الأصوات اليهما إذ كانوا كلهم يصيحون :
ليحيى كيرسي !!

أما هذا المنزل الجميل فقد كان منزل لافورس ، وهو من مشاهير الهوكينوت .
وقد قتلوا كل من كان فيه من الخدام والخادمات والاسياد .

ثم ارتدت تلك الجماهير راجعة بقيادة قواد كيرسي يبحثون عن منزل آخر يقتلون من فيه وينهبونه .
فلما خلت الردهة منهم ، ولم يبق فيها غير الأب وابنه قال الأب : هلم بنا نهرب الآن .
فأجابه ابنه قائلاً :
— كلا ، لاني أحب ان أرى ما يفعل كيرسي في هذا المنزل ، فإنه لا يزال فيه .
(وكيرسي هذا هو أحد قواد العامة الثلاثة وهم الكتبي والجوهري وصانع الأسلحة الذين تقدم ذكرهم) .

فلم يعارضه أبوه هذه المرة وصعد وإياه إلى سلم المنزل .
حتى إذا وصلا اليه عرف الشفاليبه لاول وهلة إنهم لم يرموا من الاثاث إلا ما لم تكن له قيمة .
وأما الأثاث الثمين فقد بقي في مواضعه .

ثم دخلا إلى قاعة الاستقبال ، فوجدا فيها خمس جثث ، ملقاة بعضها فوق بعض .
ثم رأيا رجلين يشتغلان ، بملء السكينة ، بنهب ما في الخزائن من الحلي والأموال .
وكان هذان الرجلان كيرسي وأحد أعوانه .
فقال كيرسي لرفيقه : أسرع إن الأموال في هذه الخزانة .

فأسرع رفيقه وكسر الخزانة ، فجعلا يضعان في جيوبهما ما خف حمله وغلا ثمنه .

وكان لافورس صاحب هذا المنزل يلبس في عنقه عقداً ثميناً حسب عادة الأغنياء في ذلك العهد .

فدنا كيرسي من جثته وقطع العقد .

ودنا رفيقه من جثة امرأته فقطع أذنيها كي يأخذ قرطيها .

فقال كيرسي عند ذلك لرفيقه : هلم بنا فلم يبق لنا ما نعمله في هذا المنزل ولم يبق فيه ما ينهب .

ولكنهما ، قبل ان يتمكنـــا من النهوض ، سقطا فوق تلك الجثث لا حراك بهما .

ذلك ان الشفاليه ضرب كيرسي ، بقبضـــة يده على صدغه ، ضربـــة كانت القاضية .

وقتل أبوه الآخر بقبضة بندقية كانت هناك .

وكانت الضربتان هائلتين حتى ان اللصين لم ينبسا بكلمة ، بل تحركا حركة عنيفة ثم ناما نومة الموت .

ففحص الشفاليه الجثث الخمس ، وكان يريـــد بذلك فصلها عن جثتي اللصـــين .

وفيما هو يفصلها سمع صوت غلام صغير يستغيث به ويقول :

— بربك لا تقتلني .. إرحمني .

وقد ركع هذا الغلام ، وعمره اثنـــا عشر عاماً ، بين الجثث وضم يديـــه شأن المتوسل .

وهو أكبر أولاد صاحب المنزل ، وقد كان معانقاً لأبيه، حـــين قتلوه ، فسالت عليه دماء أبيه ، وسقط بالقرب منه فحسبه القاتلون ميتاً ولم يتعرضوا له .

أما بارداليان فإنه ذعر لهذا المنظر المفجع ، وحاول ان يأخذ بيد الغلام ويطمئنه .

لكن الغلام ذعر ذعراً شديداً ، وحسب ان بارداليان يريد قتله ، فأفلت منه وفر هارباً .

وعند ذلك نزل الاب وابنه ، وبرحا ذلك المنزل ، وهما منقبضا الصدر لما رأياه .

فجعلا يجتنبان الشوارع الكبيرة وعصابات القتلة ، وهما لا يعلمان أين هما ولا في أية ساعة من النهار .

لكن الشمس كانت قد ارتفعت وهي تتألق من فوق دخان البارود الذي كان يعقد ضباباً في الهواء .

وفيما هما سائران بلغا إلى عطفة ، فوقفا مذعورين ، وحاولا الهرب فلم يستطيعا .

وكان كل ما يستطيعا فعله الارتداد الى زقاق ضيق في وسطه باب منزل دون ان يعرفا منفذ هذا الزقاق .

ذلك أنهما رأيا على قيد عشرين خطوة منهما ، عصابة كبيرة من اولئك المتعصبين .

وكان يبلغ عدد رجالها نحو خمسين وكلهم مدججون بالسلاح .

ووراءهم جمهور عظيم من الناس مسلحون بالعصي والحديد والسيوف القديمة وكلهم ثائرون هائجون .

أما رجال العصابة فإنهم كانوا مشهرين الخناجر وهي حمراء من الدم وعلى صدورهم جميعهم صلبان بيضاء .

وبين هذه العصابة خمسة عشر فارساً .

وفي مقدمتهم ثلاثة رجال ، تتقد عيونهم باللهب ، وقد بدت عليهم هيئة الوحشية .

وكان كل منهم يحمل حربة وقد شك في رأس كل حربة رأس إنسان وهم يسيرون ويصيحون :

– ليحيى كيرفر !

وكان هذا الوحش الذي يهتفون له بينهم ، وهو كيرفر الكتبي ، أحد زعماء العامة الثلاثة ، وقد شك في حربته رأس رجل ، وجعل يهز تلك الحربة .

فارتعد بارداليان وابنه حين رأيا ذلك الرأس ، إذ علما انه رأس راميس ذلك الشيخ العالم الذي أنقذهما مرة في شارع مونمارتر ، وأنقذاه مرة في شارع سانت دنيس مع عشيقة الملك .

فلما اقتربت العصابة منهما دخلا في ذلك الزقاق ، كي يفسحا لها مجالاً للمرور .

ثم وقفا ينظران الى رأس ذلك الرجل الجليل يهزه ذلك الوحش المفترس ، فوق حربته .

فلما مر كيرفر بهما ، اتقدت عينا الشفالييه ، ونظر الى كيرفر نظرة هائلة وحاول أن يلفظ كلمة شتم أو وعيد فلم يستطع ، وخرج الكلام من فمه أنيناً متقطعاً ، فضم قبضتيه كأنه يحاول الانقضاض على الكتبي .

أما الكتبي فانه رأى الشفالييه ينظر اليه تلك النظرات الهائلة وقرأ فيها سور الوعيد والاحتقار .

فالتفت الى رفاقه فدلهم على هذين الرجلين ، وأمرهم بقتلهما ولكنه قبل أن يتم هذه الاشارة سقط على الارض صاخباً لاعناً

ذلك انه أصيب برصاصة اخترقت صدره فسقط قتيلاً .

وكان مطلق هذه الرصاصة الشفالييه بارداليان .

فان أحد رجال الكتبي هجم عليه ببندقيته فانتزع بارداليان البندقية منه

وأطلقها على الكتبي فقتله لفوره .

فلما رأى بارداليان كيرفر قتيلاً تنهد وقال : إن قتل مثل هذا الوحش فيه بعض العزاء .

وعند ذلك هاج رجال الكتبي هياج الذئاب الجائعة ، وانقضوا على بارداليان وابنه ، وهم خمسمائة رجل انقضاض العقبان ، وكانت أصواتهم تشبه أصوات الذئاب .

وقد حاولوا جميعهم ان يدخلوا الى هذا الزقاق .

لكنه كان ضيقاً لا يتسع لمرور أكثر من اثنين او ثلاثة معاً .

وقد سبقهم فارس ضخم الجسم ، كان لابساً ملابس حمراء ، عليها شارة دامفيل .

مما يدل على انه في خدمة ذلك الدوق .

واندفع بجواده الى مدخل الزقاق وحسامه مشهر بيده .

فصاح بارداليان الاكبر صيحة فرح قائلاً :

ــ لقد نجونا !

وبينما كان الأبن يسائل نفسه عن هذه النجاة التي يزعمها ابوه وثب الأب وثبة النمر إلى لجام ذلك الجواد وجره إلى ذلك الزقاق بحيث سد مدخله .

ثم جعل يضحك غير مكترث لصيحات الناقمين الذين كانت تشبه أصواتهم الرعود القاصفة .

وقد ذعر الفارس بعد تحمسه ذعراً شديداً وحاول أن يرجع بجواده ويخرجه من هذا المضيق .

ولكنه لم يتمكن من الرجوع به فرجم وحده .

ذلك أن الشفالييه بارداليان الأكبر ضربه بحسامه ضربة ألقته صريعاً عن ظهر الجواد .

وأسرع الأب عند ذلك يريد قتل الجواد واحكام سد المدخل بجثته .

فاسرع ابنه إلى إيقافه وقال له : لا تفعل فهذا كاليور .

(اسم جواد بارداليان الذي وهبه إياه الدوق دامنيل حين انقذه من اللصوص) .

فنظر الأب إلى ذلك الجواد وقال له .

لقد أصبت يا بني فهو بعينه .

ثم ضحك الاثنان ضحكاً عالياً دوى صداه في ذاك الزقاق .

وبينما كانت تلك الذئاب الهائجة تعوي خارجاً في طلب الفريسة اسرع الأب والابن إلى الفرار وهما موقنان أن القتلة لا يستطيعون ادراكهما قبل خمس دقائق على الأقل إلى ان يخرجوا الجواد فيتسع لهم مدخل الزقاق وهي مدة كافية لفرارهم .

ولكنهما لم يسيرا بضع خطوات حتى صاح الشفالييه صيحة يأس وقال :

ليس لهذا الزقاق منفذ .

وقال الأب أذكر اني عرفت هذا الزقاق ومررت به قبل الآن .

وعند ذلك فتح الباب الذي رأوه أولاً وظهرت منه امرأة .

فصاح الاثنان قائلين :

ميكوت . . . (وهي امرأة صاحب فندق دفنيير) .

وكان هذا الرواق رواق الفندق الذي طالما أقاما فيه ولكنهما لم يعرفاه في البدء لأنهما كانا يندفعان مع تلك الجماهير المزدحمة كما تندفع خشاب مع التيار فلا يعلمان أين هما .

إلى أن دفعهما ذلك التيار إلى شارع سانت دنيس وهما يحسبان انهما سائران إلى جهة السين .

وقد قدر لهما حسن الطالع أن يقفا عند مدخل هذا الزقاق حين مر الكتبي بعصاباته .

فلما رأيا الباب قد فتح أسرعا إلى الدخول منه واقفلاه فوجدا نفسيهما في

تلك القاعة التي كان يجتمع فيها الشعراء ، تلك القاعة التي جرت فيها مؤامرة الدوق دي كيز وذبح الشعراء فيها التيس كما تقدم في اوائل الرواية .

وكان يوجد في تلك القاعة ثلاثة رجال وهم لاندري صاحب الفنـــدق والشاعران دورات وبونتيس .

والغريب في أمر هذين الشاعرين انهما كانا جالسين يعاقران المدام في تلك الساعة الرهيبة كأنهما يلتمسان من إلاه الخمر أن يوحي اليهما وصف تلك المذابح التي شوهت وجه تاريخ الانسان .

أما هيكوت فقد كانت مضطربة ترتجف رعباً على البطلين .

فدلتهما على سلم وقالت لهما اسرعا بالصعود ومتى بلغتما إلى أعلى ذلك السلم تتصلان بسطح المنزل المجاور وهناك سلم آخر تنزلان منه الى الشارع .

وأما الشاعران ، فان الشراب كان قد تمكن منهما ، فقال احدهما وهو دورات :

اني سأنظم أبدع قصيدة يمكن نظمها في وصف إبادة الهوكينوت .

فأجابه زميله بونتيس قائلا :

— إذاً يجب ان تجمل مدادك من الدم .

ولطم لاندري وجهه وقال : الويل لي فإنهم سيهاجمون فنـدقي متى عرفوا أنهما دخلا اليه .

فأجابته امرأته قائلة :

— إنهم سيعرفون دون شك فأسرع واجمع ما تستطيع جمعه من أموالنا ، ولنهرب نحن أيضاً .

فمشى لاندري وهو يئن أنين الموجع .

فناداه باردليان الأكبر وقال له :

— أضف إلى ما لك عندي ثمن فندقك الذي سينهبه الثائرون .

وقال له الشفالييه : إني أقسم لك بانك ستقبض منا جميع حسابك .

وعاد إلى صاحبة الفندق فقبلها وهو يقول : إني لا أنساك ما حييت .
ثم توارى مع أبيه في ذلك السلم الذي دلته عليه .

وبعد هنيهة عاد لاندري يحمل كيساً وضع فيه أمواله وحلي إمرأته .
فقالت له إمرأته : لنسرع بالفرار ، فان الثائرين دخلوا الزقاق وهم يكسرون الباب .
فقال لها دورات الشاعر إنك لست بكاثوليكية كما يظهر فلا تبرحي هذا المكان ، لأني سأفضح أمرك لدى الداخلين .

فكبر ذلك على الشاعر الآخر فجرد حسامه وقال لصاحب الفندق وإمرأته : إذهبا بأمان ، وإذا خطر له أن يعترضكما أغمدت حسامي في قلبه .
وبعد هنيهة كسر الثائرون الباب ودخلوا إلى ذلك الفندق ، فلما لم يجدوا أحداً فيه أقبلوا على نهبه فما أبقوا فيه بقية .

- ٣٢ -

مناظر مفجعة

وسار باردليان وابنه في الطريق التي دلتهما عليها هيكوت ، فبلغا منها إلى زقاق مقفر ، وسارا منه إلى شارع مونمارتر .
وهناك رأيا انه لا سبيل إلى المرور لكثرة الزحام .
فقد كان الناس يعدون بالألوف في ذلك الشارع وجميعهم مندفعون اندفاع

التيار الزاخر إلى جهة السين يصيحون الصيحات المنكرة فتمتزج أصواتهم بطنين أجراس الكنائس وقرقعة البنادق فيخرج لها دوي هائل .

فعادت المخاوف إلى الأب وابنه وانزويا في عطفة الشارع ينظران بعيون تضطرب إلى الوحشية المطلقة وقد تجسدت باجسام أولئك البشر .

وكان أول ما رأياه جماعة من النساء سائرات في طليعة الموكب يحيط بهن رجال طبعت الفظاعة على جباههم وصبغت أيديهم بالدماء .

وقد خاط جميع اولئك النساء صلباناً من القماش الأبيض فوق صدورهن وكل منهن حاملة كيساً على ظهرها .

وفي كل كيس من هذه الأكياس طفل أو طفلين من أبناء الهوكينوت وقد خنقتهم بأيديهن الأثيمة .

وهو منظر فظيع هائل يفتت الأكباد ويسيل الأرواح من العيون .

ولكن الناس كانوا يسيرون وراءهن فرحين جزلين ، وبعضهم كانوا يغنون أغاني الغرام كأنهم في حفلة راقصة .

فارتعدت فرائص بارداليان وابنه لهذا المنظر الجهنمي ، وأدمعت عينا الشفاليه من هول ما رأى من أعمال تلك الوحوش الضارية .

ثم رأيا منظراً آخر مر بهما مرور الحلم .

وهو ثلاثمائة فارس كانوا مدججين بالسلاح ، وقد احمرت ثيابهم من الدماء فكانوا يبعدون الناس عن اليمين وعن اليسار ليفتحوا ممراً .

والناس يبتعدون ويمتثلون راضين مسرورين هاتفين .

وكان هذا الهتاف للدوق دي كيز ، فانه كان عائداً بفرسانه من ساحة الشنق ، حيث علق جثة الأميرال كوليني من رجليها .

وكان يسير وراء أولئك الفرسان المارشال دي تافان وخلفه أيضاً ثلاثمائة فارس ، لا يقلون فظاعة وإنما عن الفرسان المتقدمين

وكان في أثرهم مركبة ضخمة مقسمة تقل الدوق دانجو وندماءه مرجيرون

كالس ، وسانت موجرين وهم يضحكون ويمزحون ، كأنهم في حفلة طرب . يشجعون ذلك الشعب الثائر كلما قتلوا بريئاً ، او أحرقوا منزلاً .

ومر دي كيز وتافان ، والدوق دانجو بين الهتاف الشديد الذي كان يطبق الفضاء .

فكان كيز يقول : اقتلوا !

ودانجو يقول : احرقوا !

وتافان يقول : افصدوا فإن الفصادة صالحة في فصل الحر .

وبعد هذه العصابات الجهنمية مرت عشرون مركبة تجرها جياد قوية ، وفي كل مركبة قدر ما تسع من الجثث المشوهة .

وهذا الموكب الهائل سائر بجملته إلى السين ليلقي فيه ضحاياه ويخفي عاره بين أمواجه .

فاندفع بارداليان وابنه وسارا مع اولئك الوحوش وهما لا يعلمان كيف يسيران وقد أضاعت هذه المناظر الهائلة رشادهما .

وفيما هما يعجبان كيف ان اولئك الثائرين لم يهجموا عليهما ويقطعونهما بخناجرهم نظر كل منهما إلى الآخر فرأى على ذراعه صليباً أبيض فعلما السبب في تغاضي الناس عنهم .

وقد أيقنا أن هيكوت وضعت هذه العلامة على ذراعيهما دون أن يشعرا وقاية لهما من الثائرين .

فانتزع الشفاليه تلك العلامة من ذراعه مغضباً مع انه لم يكن من الهوكينوت ، بل ولا من الكاثوليك أيضاً ، فإنه لم يكن يعلم شيئاً من مبادىء المذهبين .

وقد حاول أن يلقي تلك العلامة إلى الأرض .

ولكن أباه أسرع فاختطفها منه فوضعها في جيبه قائلاً :

- لنحفظها على الأقل تذكاراً من هيكوت .

وإنما فعل ذلك لرجائه أن يقنع ولده على وضعها فوق ذراعه فانها كانت خير واق لهما من جنون الشعب .

وقد أبقى الأب علامته فوق ذراعه .

فهز ابنه كتفيه ولم يجب .

فلما وضع الأب العلامة في جيبه شعرت يده بورقة فيه .

فأخرجها منذهلا ثم أعادها إلى جيبه وقال : لقد ذكرت .

فقال له ابنه : ما هذه الورقة ؟

– إنها سقطت من جيب قاتل الأميرال كوليني حين قتلته فالتقطتها ووضعتها في جيبي وسننظر فيها بعد الآن .

وسار الاثنان مع تلك الجماهير ، ولم يكن لهما بد من المسير معهم لأنهما كانا ذاهبين إلى قصر مونمورانسي ، والجماهير سائرة في طريق نهر السين ، والطريقان واحدة .

وعندما وصلا إلى جسر النهر ، اضطرا إلى الوقوف وقد رأيا مناظر ترتعد لها الفرائص .

فإن اولئك النساء القين أكياسهن بمن فيها من الأطفال إلى نهر السين وهن ضاحكات لاعبات وقد انتزع الرفق من قلوبهن الصخرية .

ثم جاء دور المركبات ، فجعلوا يخرجون تلك الجثث المضرجة بالدماء ويلقونها في المياه ، بحيث استحال نهر السين إلى بحر أحمر .

وقد حاول باردليان وابنه أن يهربا كي لا يريا تلك المناظر المرعبة ، وأرادا أن يخترقا صفوف الناس ويجتازا الجسر إلى الضفة الثانية .

لكنهما لم يستطيعا ، فإن تلك الجماهير التي كان يبلغ عددها عشرة آلاف صدرت اليها الاوامر بعد أن فرغت من مهمتها ، فتألف رجالها عصابات ، وانقلبوا راجعين إلى الاماكن التي عينت لهم للعود ، إلى الفتك بالباقين من الهوكينوت .

فلم يجد الاب وابنه سبيلاً للتقدم واضطرا مكرهين إلى السير مع هـذه الجماهير المزدحمة .

فقـد سارا معهم نحو ساعة من شارع إلى شارع ، وهما لا يعلـمان إلى أين يسيران .

وما زالا على ذلك حتى مرت تلك العصابات بشارع يشرف على زقاق ضيق. فأسرعا الى الدخول في الزقاق .

وبعد هنيهة وجدا نفسيهما عند باب في جدار طويل ، قليـل الارتفاع ، وهو المكان الوحيد الذي سلم من اولئك المتعصبين .

- ٣٣ -

تربة الأبرياء

ولم يكن يعرف الاب وابنـه أين هما ، ولم يعلمـا في أية ساعة هما من النهار .

لكنهما تنهـدا تنهد الارتياح ، ومسحـا العرق الذي كان ينصب من جبينهما .

فوقفا وقد شعرا بالراحة ، إذ احتجبت عنهما تلك المناظر الدموية ، فلم يريا دماء ولا جثثا ولا أسلحة قاتلة .

بل كانت السكينة سائدة في ذلك المكان لا يكدر صفوها غير اصوات الثائرين التي كانت تبلغ إلى اذانهما بلوغ هدير الامواج من مكان بعيد .

وكانت أغصان الأشجار مدلاة فوق السور المحيط بالباب وأصوات الأطيار تتناغى عليها وتغرد فرحة باشعة الشمس

وقد رأيا قرب الباب ، باباً ضخماً وبجواره غرفة .

ثم رأيا صليباً كبيراً يعلو ذلك الباب ، ونظرا من فوق الجدران ، فرأيا كثيراً من الصلبان فعلما أن المكان تربة ، وان الغرفة الكائنة بجوار الباب غرفة الحفار .

أما هذه التربة فهي تربة الأبرياء التي دفنت فيها أليس والراهب .

وكان النهار قد انتصف وبطل دق الأجراس .

فحسبا أن المذبحة قد انتهت وجعلا يتشاوران في الطريق التي يسيرون فيها لاجتياز النهر والبلوغ إلى قصر مونمورانسي .

فاقترح الشفاليه اقتراحاً وافقه عليه ابوه .

وفيما هما عازمان على المسير رأيا غلاماً صغيراً قادماً اليهما .

وكان الغلام يمشي مشياً بطيئاً وهو يحمل صرة .

تذكر الشفاليه انه رأى هذا الغلام ولكنه لم يذكر أين رآه .

عند ذلك دنا الغلام منهما .

فقال له الشفاليه إلى أين أنت ذاهب يا بني .

فوضع الغلام ما كان يحمله على الأرض وأشار الى التربة فقال :

اني ذاهب الى هناك . .

وقد عرفتك ، فأنت الذي حدثتني منـــذ شهر ، حين كنت أشتغل قرب الدير واثنيت على الأزهار التي كنت أصنعها . أتريد أن تراها فقد انتهيت من صنعها

ثم فك عقدة الصرة التي كان يحملها وأخرج منها بملء الكبرياء ما كان فيها من الأزهار الصناعية وهو معجب بها كل الأعجاب .

فقال له باردليان الحق انها من أجمل ما يصنع .

— نعم ، انها جميلة .. وقد أعددتها لأمي .

فاضطرب الشفاليبه وقال : لقد ذكرت . فماذا تدعى يا بني ؟

— اني ادعى جاك كليان ، فهل تريد أن تفتح لي باب هذه التربة لادخل اليها .

فذهب الشفاليبه وطرق باب غرفة الحفار

فخرج الحفار وهو مضطرب فلم يطمئن إلا حين أخبره الشفاليبه بعزم الغلام .

فضرب الحفار جبينه بيده وقال : لقد ذكرت .

ثم التفت الى الغلام وقال له : ألست تدعى جاك كليان ؟

— نعم .

— إذاً اتبعني فسأدلك على ضريح امك .

فدهش باردليان وأبوه لهذه المعرفة ولهذا الجواب .

وأخذ الغلام باقة الزهر بين يديه ، فقال له الشفاليبه : ألعلك قادم من محل بعيد ؟

— من الدير وأنت تعرفه وقد لقيت عناء شديداً في المسير ، فان الشوارع كانت غاصة بالناس ولا شك أن هذا اليوم يوم عيد عظيم .

ولكني سمعت دوي البنادق ، ولماذا يطلقونها ألعلهم يقتلون الرجال والأولاد ؟.

اني خفت خوفاً شديداً ولكني مع ذلك مررت دون أن ينتبه لي أحد وأنا سعيد بوصولي الى هنا .

وكان يتكلم ويتبع الحفار

وكذلك باردليان فانه كان يسمع حديثه وهو مضطرب وقد دخل معه الى التربة .

وبعد ان توارى باردليان وابنه والحفار والغلام في داخل التربة ظهر عند

بابها الاكبر راهبان .

فقال أحدهما للآخر :

لننتظر هنا قليلاً فنستريح وندع وقتاً لرجالنا كي يدركونا .

فأجابه رفيقه : بل لندع وقتاً للغلام يعد معدات المجيبة .

ما هذه الدماء التي يسفكونها أيهـا الأخ تهيبوت ، ألم يكن الأجـدر بهم سفك دماء القناني ؟

– إن سفك هذه الدماء ، يا لوبين يرضي الله .

– لا أنكر ذلك ، ولكني كنت أؤثر ان أكون في فندق دفينير ، فـإن فيه أفضل الخمور ، وفوق ذلك فاني لا آمن رصاصة تائهة تلجأ إلى صدري .

– لا تخف رصاص البنادق فانك من رجال الله ، ألم تحدث عجيبة الحلة عن يدك ..

* * *

وبينما كان الراهبان يتحدثان كان الحفار قد وقف عند قبر لا يزال ترابه يدل على انه حديث الحفر .

فالتفت الحفار إلى الغلام وقال له هوذا الضريح .

فاضطرب الغلام في البدء ، ثم التفت إلى الحفار فقال له :

– انه قبر أمي .. أتعلم كيف كانت حياتها ؟

فقال له باردليان بلهجة المشفق :

– كيف ذلك يا بني ، ألم تعرف أمك قبل موتها ؟

– كلا .. ولكنهـا ستكون مسرورة ، فإن قبرها سيكون من أجمل القبور .

ثم جعل يزرع فوق تراب الضريح تلك الأزهار الصناعية باتقان يدل على تمرنه على الزراعة .

وبعد ذلك أخذ من الصرة أزهاراً طبيعية وشك عروقهـــا بالأغراس الصناعية فباتت كأنها نابتة .

كان الشفاليه باردليان يرى هذا الغلام الصغير منهمكاً هذا الانهماك في زرع الأزهار على ضريح أمه فتأثر وأدمعت عيناه حنواً ، فسقطت دمعة على تراب ذلك القبر – قبر اليس دي ليكس ودي بانيكارولا .

فنظر الغلام إلى الشفاليه ورأى الدمع يجول في عينيه فدنا منه فقال له :

– إنك بكيت على قبر أمي ، فلا انساك ما حييت ... أتريد أن تذكر لي اسمك ؟

– إني أدعى يا بني الشفاليه دي باردليان .

– إن إسمك سيحفر هنا ورسمك سينقش هنا .

وقد أشار بيده إلى جبهته وإلى قلبه .

– أتريد أن أوصلك يا بني إلى الدير .

– كلا ، كلا فإني لا أخاف .

وفوق ذلك فاني أحب البقاء هنا إذ لي كثير من الأقوال أريد أن أقولها لأمي ، فدعني وحدي .

– إذاً إلى اللقاء يا بني .

– إلى اللقاء يا شفاليه دي باردليان .

عند ذلك تأبط باردليان ذراع أبيه ، وبعد هنيهة كانا بعيدين عن تلك التربة ، وقد تركا فيها ذلك الغلام يناجي روح أمه .

* * *

أما الراهبان فانهما كانا ينتظران قرب باب التربة .

وقد لبثا نصف ساعة ثم رأيا جاك خارجاً منها ، فألقى تهيبوت بسرعة أوامره إلى لوبين .

فارتعد لوبين وقال له : أيجب أن أخاطر أيضاً بالموت في ذلك المعترك ؟

— لا تخف ، فلا خطر عليك من شعب يعدونك من رجال الله وأهـل العجائب .

فتنهد لوبين وقال له : لكن لماذا لا تبقى معي .

— لأني مضطر إلى الرجوع إلى الدير بالغلام ، وفوق ذلك فقد جاءك المدد فلا تجزع واسرع بالعمل فقد آن الأوان .

ثم أخذ بيد الغلام وتوارى عن الأنظار .

وعند ذلك دنا خمسون رجلاً من التربة ، وقد مروا بالراهب تهيبوت فأشار اليهم إشارة ، وأسرع ذاهباً بالغلام .

فتنهد لوبين قائلاً : لو أرسلني هذا الاخ إلى فندق دفينير لما أسرع هذه السرعة ، لكنه قذف بي إلى الهاوية ، وعرضني لرصاص هؤلاء الجانين وذهب هو مطمئناً آمناً إلى الدير . .

لا بأس ، ولامت إذا قدر لي الموت فاني أموت موت الشهداء .

ثم دخل الى التربة وهو يتظاهر بأنه لم ير العصابة التي أتت لنجدته .

أما رجال العصابة فقد دخلوا في أثره إلى التربة .

وقد ذهب لوبين تواً إلى ضريح اليس دي ليكس فوقف عنده .

ولم يكد ينظر الى الضريح حتى صاح فجأة صيحة المنذهل وقال :

— ماذا أرى ؟ أينبت من الشوك زهر !

ثم ركع قرب تلك الاشواك التي غرسها الغلام وجعل يصيح قائلاً : عجيبة عجيبة ! . ليتبارك اسم الله .

فردد الرجال الخمسون من وراءه قوله . .

وقال أحدهم : إن هذا لا يحتمل التصديق .

فأجابه آخر . ولكن الحقيقة ظاهرة ، ألا ترى الزهر فوق الاشواك

فقال لوبين تبارك إسم الله ما أكثر عجائبه .

فصاح الجميع قائلين : ليمت الهوكينوت .

وارتفع ضجيجهم وكثر صياحهم وصلى الراهب لوبين ورتل ترتيلاً كانوا يشاركونه فيه .

فما مرت هنيهة حتى انتشرت الإشاعة وأقبل جمهور كبير من الناس على تلك التربه ، فغصت بهم رحباتها .

كل ذلك ولوبين واقف عند هذه الأزهار لا يدع أحداً يمسها .

وبعد ذلك أخذ يجني تلك الأزهار عن الأشواك فلم يبق زهرة .

ثم صلى عليها وحملها في يده .

فأحاط به عشرون رجلاً من اولئك الذين أشار اليهم الراهب تهيبوت تلك الإشارة حين انصرافه بالغلام ، وحملوا ذلك السكير لوبين الذي كانوا يلقبونه بألقاب القداسة ، فطافوا به شوارع باريس والأزهار بيديه .

وسارت الجماهير في أثرهم ، فعادت أجراس الكنائس إلى دقها وعادت البنادق إلى دويها ، وزاد تحمس الشعب بهذه العجيبة ، فجددوا المذبحة ، وأعملوا القتل الذريع بالهوكينوت .

وهذه هي العجيبة التي اشتهرت يومها بعجيبة الشوك .

- ٣٤ -

غرام بيبو أيضاً

ولنعد الآن إلى باردليان وابنه ، لقد تركناهما سائرين الى السين ، بغية الوصول إلى قصر مونمورانسي ، وفي نيتهما أن يجتنبا الجسر لما يخشيانه من الزحام فلما بلغا الضفة ركبا قارباً ، واجتازا به إلى الضفة الثانية .

ولكنهما ما كادا يخرجان من تلك الجهات الهادئة المجاورة للتربة ، حتى لقيتهما الجماهير وامتزجا بالناس ، بالرغم عنهما ، فلم يستطيعا ان يتقدما ولا أن يتأخر .

وكانت هذه الجماهير سائرة إلى اللوفر ، فرأى باردليان وابنه مدفعين ضخمين ، أقيما على باب اللوفر ، وهو مقفل الأبواب كأنه في حالة حصار .

ثم وقف الناس في ساحة متسعة يتفرجون فيها على الرقص .

وقد استلفت الأنظار بين الراقصين رجل كان يراقص امرأة ، والناس من حوله يضحكون معجبين .

ولم يكد باردليان يستقر نظره على هذا الرجل الوحشي الراقص ، حتى ارتعدت فرائصه ، وجمد الدم في عروقه ، وحسب نفسه حالماً داهمه الكابوس .

ذلك انـه رأى تلك المرأة مصفرة الوجه ، جامدة العينـين ، يسقط رأسها تارة إلى اليمين وتارة إلى الشمال ، لان هذه الراقصة كانت جثـة لا روح فيها .

وكان هذا الرجل الوحشي يراقص جثة إمرأة من نساء الهوكينوت ، قتلها بيده الأثيمة . ثم لم يكن يكتف بذلك القتل الفظيع ، فجعل يراقصها ليضحك الناس .

فتراجع بارداليان وابنه منذعرين كي لا يريا هذا المنظر الهائل واغتنما فرصة وقوق الناس للتراجع .

ولكنهما لم يخلصا من ذلك الزحام حق وقعا بزحام أشد ، بين جمهور عظيم كانوا يركضون ركضاً إلى جهة السين .

وذلك أنه أشيع بانهم اكتشفوا مكاناً تحت جبل سانت جنفياف اختبأ فيه نحو مائة من الهوكينوت

فأسرع الثائرون متراكضين الى ذلك المكان .

واندفع بارداليان وابنه مع تيارهم .

وبعد هنيهة رأيا أنهما باتا عند مدخل الجسر ، ثم على الجسر ، ثم على الضفة الثانية من النهر .

وقد بلغا غايتهما من اجتياز النهر بهذا الاتفاق .

وسارت الجماهير بطريق الشمال فسار بارداليان وابنه في الطريق المعاكسة وهما ينويان الذهاب إلى قصر مونمورانسي .

وفيما هما سـائران ، وقف الأب وضغط على ساعـد الابن ، وقال له : أنظر !! .

فذعر الشفاليه ووضع يده على قبضة حسامه .

وقال الأب : هذا هو أورتيس ... هذا هو الكونت اسبرمونت قائد حراس الدوق دامفيل ، عـدوي اللدود ، فلا شك ان الدوق يرود حـول

قصر أخيه .

وعند ذلك رأيا إمرأة من الهوكينوت تركض هالعة منذعرة يطاردهــا عشرة رجال يريدون قتلها .

وجعلت تلك الصبية تركض حتى وصلت إلى أورتيس . فركعت أمامه وقالت له بلهجة تقطع القلوب من الاشفاق .

— بربك ارحمني ولا تقتلني .

فابتسم أورتيس ابتسام الأبالسة ورفع سوطاً علق في رأسه حبل رفيع ، فلمس به كتف تلك المرأة .

ثم قرع به الهواء ، كما يفعــل سائقو المركبات ، ونادى كلبة كبــيرة كانت معه .

فأسرعت الكلبة ولبت النداء .

وعاد أورتيس فلمس كتف المرأة بسوطه وقرع به الهواء وجعل يحرض كلبته على المرأة .

وكانت تلك الكلبة قد فهمت قصد صاحبها حين سمعت صوت السوط ، وأتت تبحث عن الفريسة .

فلما رأت سوط صاحبهــــا ، قد لمس كتف تلك المرأة ، لم تعد في حاجة إلى التحريض ، وهجمت على عنق تلك المنكودة ، هجوم الذئاب الجائعــة .

فصرعتها وجعلت تنهش عنقها بأنيابها ، وقد انقطع صوت المرأة ، فلم تعد تصيح .

كل ذلك وأورتيس يضحك معجباً بقوة الكلبة .

مر ذلك بسرعة عظيمة ، حتى ان باردالیان وابنه لم يستطيعا إدراك تلك المنكودة وإنقاذها .

لكنهما هجما هجوم الأسود وقد صاح باردالیان الأصغر صيحة دوى لهــا

ذلك المكان

فالتفت أورتيس ، وقد هالته هذه الصيحة ، ففرح فرحاً وحشياً حين رأى بارداليان وأباه ، ورفع السوط كأنه يريد أن يرسل كلبته لاستقبالهما .

لكن الشفاليه انقض على يده انقضاض العقاب ، وانتزع منه ذلك السوط .

فانقلب صياح فرحه إلى صياح رعب .

أما الشفاليه فإنه رفع السوط وهوى بحبله على وجه اورتيس .

فصفر الحبل في الهواء ، وسقط على وجه ذلك النمر البشري ، فشق جلده .

ثم أعاد الكرة مرة ثانية فثالثة وهو يثب ويضربه بسوط الكلاب على وجهه حتى لم يعد يعرف له وجه لكثرة الجراح .

دام ذلك نحو نصف دقيقة ، كان اورتيس فيهـا مثل غريق داهمته المياه فلم يستطع تنفساً .

لكن هذه المياه كانت سياطاً من نار .

إلى ان بذل اورتيس جهداً عنيفاً فتمكن من الابتعاد لحظة عن سياط بارداليان واستنجد بكلبته عليه .

لكنه قبل ان يتم كلامه سقط على الأرض صريعاً .

فان كلباً هائلاً انقض عليه انقضاض الكواسر ، وصرعه فألقاه على الأرض .

وكان هذا الكلب عشيق بروسبرين كلبة أورتيس ، وقد تبعهـا من منزل الدوق دامفيل إذ لم يطق فراقها .

وهذا الكلب العاشق المغرم المفتون ، نسي غرامه حين رأى بارداليان ، كما نسي من قبل بارداليان حين رأى بروسبرين ، فإنه كان « بيبو »

كلب باردالبان .

وكان أورتيس قد خارت قواه لما ناله من سياط باردالبان ، فأجهز عليه بيبو وأنيابه ناشبة في عنقه حتى فارق الحياة .

ولم يكن باردالبان وابنه قد رأيا شيئاً من ذلك المنظر المفجع

فإن الـكلبة شغلت بهجومها الشفاليه وأبيه .

وقد هجمت في البدء على الشفاليه فعاجلها باردالبان الأكبر بطعنة خنجر قتلتها في الحال .

وعند ذلك نظرا إلى ما حواليهما فرأيا بيبو يرقص أمامهما ويثب وهو يكاد يجن سروراً .

وقد مرت هذه الحادثة بسرعة غريبة ، قبل ان يتمكن رفاق أورتيس من نجدته .

وهم أولئك الذين كانوا يطاردون المرأة ، وقد سبقتهم شوطاً بعيداً لسرعة عدوها إلى ان التقت بأورتيس فلقيت حتفها .

لما وصل أولئك الرفاق وقفوا حوالي باردالبان وابنه وهم ينذرون ويتوعدون دون أن يجسروا على الدنو من الأسدين

فقال له أبوه : هلم بنا .

فمشى باردالبان مع أبيه وهو يهز السوط بيده .

وكانا يسيران بملء العظمة والكبرياء وقد اتقدت عيونهما بلهب من نار ، وشعرا أنهما أعظم من أبناء الانسان .

فتبعهما رفاق أورتيس على حذر فكانوا كلما دنوا منهما رجع البطلان فحملا عليهم حملة منكرة حتى يتفرقوا .

فيعود البطلان الى المسير ، ويعود أولئك الجبناء الى المسير في أثرهما ، وكانوا كلما توغلوا في الشارع ، ينضم اليهم فريق من الناس ، حتى شعر الأب وابنه ، ان الناس قد تكاثروا عليهما ، وأن الخطر

بات أكيداً .

فأسرعا الخطى ، وكان بيبو يحمي ظهريهما ، وقد أصيب بجراح كثيرة تلقاها صابراً ، راضياً ان يكون فداء مولاه . لكنه لم يأسف إلا على تلك المشيقة .

وكان الشفاليبه باردالبان يضرب بسوطه ، فيمنع أولئك الجبناء من الدنو منه .

وباردالبان الأكبر ، يطعن بسيفه الطويل ، كل من تجاسر على الدنو .

وما زالا يجاهدان هذا الجهاد ، وهما يركضان كلما تمكنا لحظة من تفريق الناس ، حتى وصلا الى زقاق ضيق فولجا فيه مسرعين .

- ٣٥ -

بين الأرض والسماء

دخل الشفاليبه في البدء الى هذا الزقاق وهو لا يعلم أين يسير .

وتبعه أبوه وهو يحمل في يمناه سيفه وفي يسراه الخنجر .

وتلاهما بيبو وهو يتقدمهما تارة فيثب عليهما فرحاً جذلاً ويندفع الى وراءهما مرة ليدافع عنهما .

وفي أثرهما أولئك الثوار ، وقد كثر عددهم ، وزادت جرأتهم ، وارتفعت صيحاتهم ، بحيث لم يجد البطلان بدأ ، من مقاتلتهم وجهاً لوجه .

فتحولا اليهم وجعلا يقاتلانهم قتال اليأس في ذلك الزقاق الضيق ، وهما يتراجعان في كل حين .

وكان سوط الشفاليه يلمع في الهواء ، ويعمل في وجوه اولئك الهاجمين فوق ما تعمله السيوف ، فلا يسمع غير الأنين والتوجع وصياح الذعر .

خلافاً لسيف أبيه ، فلم يكن يسمع غير صوته ، فإنه كان يطعن به الرجل فينقلب على الأرض صريعـــاً مخضباً بدمه دون أن يفوه بحرف ، وتشغل جثته الهاجمين لحظة عن التقدم ، فيغنم البطلان هذه الفرصة ويتراجعان إلى الوراء .

كل ذلك وهما لا يعلمـــان أين هما ، وكيف يسيران ، فقـــد شغلتهما تلك المعركة الهائلة عن البحث عن المكان .

وفيما هما على ذلك من ورائهما سمعا دوياً هائلاً أشد من هزيم الرعد .

وتلا هذا الدوي صوت سقوط منزل يتهدم

وقد تصاعد الدخان والغبار وملاء ذلك الزقاق ، فكان ضباباً كثيفـــاً حجب الفريقين وحال بينهما .

فاغتنم بارداليان وأبوه هذه الفرصة أيضاً وتراجعا مسرعين وهما لا يعلمان أيسيران إلى الحياة أم إلى الموت .

ولكنهما رأيا أن الموت محتم بالتقدم ، وإنهما قد يجدان بابـــاً للفرج في التأخر .

فجعلا يركضان في ذلك الزقاق وقد أظلم بدخان البارود ، وغبار المنزل المتهـــدم .

حتى وصلا إلى سلم عريض ، وهو قطعة من ذلك البيت الذي تهدم .

فصعدا اليه وهما كأنهما في حلم لا يعلمان إلى أين ينتهيان .

وقد أدركهما الناس ، ولكن لم يجسر أحد أن يتبعهما ، وأن يصعد على ذلك السلم ، وهم يعلمون انه من ذلك القصر الذي لغم ونسفه البارود .

وما زالا يصعدان فيه حتى انتهيا إلى آخره .

وهناك لم يجدا شيئاً سوى ان هذا السلم كان مستنداً إلى جـدار وبقي وحده واقفاً كما يتفق أحياناً في الحرائق .

وفيما هما واقفان على آخر درجة من درجاته لا يعلمان ماذا يصنعان شعرا بأن ذلك السلم يهتز تحت أقدامهما .

فأيقنا أنه لا بد من سقوطه .

وقد اسودت الدنيا في عيني ذلك الأب إشفاقاً على ولده وكاد يجن رعبـاً عليه ، فإنه لا يسلم من خطر موت حتى يقع في خطر أفظع .

وكان قد اشتد الاهتزاز فأسرع الشفاليه وثباً إلى الجدار القائم عليـه السلم وامتطاه كما يمتطي الجواد .

فوثب أبوه وفعل فعله ..

وبعد ذلك سمعا دوياً شديداً وانتشر الغبار فسد المنافس

ثم انقشع ذلك الغبار ، وإذا بالسلم قد تهدم وسقط .

ولو تأخر بارداليان لحظة عن الوثوب إلى الجدار لقتل مع أبيه شر قتـل بسقوط السلم .

وعلى ذلك أصبح البطلان راكبين فوق الجدار وهما بين سماء تلبدت فيها غيوم دخان البارود ، وغبار التهدم ، وبين أرض فرشت بجثث القتلى .

وعند ذلك جعل الشفاليه ينظر إلى ما تحت ذلك الحائط .

ولم يكن ينظر من الجهة التي سقط فيها السلم فإنه أشفق أن يرى مطارديه تحت الردم .

ولكنه كان ينظر من الجهة الأخرى .

أي من تلك الجهة التي لغم منها القصر وتهدم قبل سقوط السلم .

وفيما هو ينظر انقبضت نفسه وارتجفت شفتاه واتقدت عيناه ببـارق يأس وحشي .

ذلك انه رأى في ردهة ذلك القصر المتهدم ساحة عظيمة غاصة بجثث القتلى ، وبما سقط من الحجارة والأخشاب .

وبالقرب من تلك الجثث جمهور من الرجال المدججين بالسلاح يهجمون على الباب الأكبر المتهدم .

ولم يبق من اولئك المدافعين عن القصر غير ثلاثة رجال يدافعون دفاع المستميت والسيوف مشهرة بأيديهم .

وفي طليعة أولئك الثلاثة رجل عرفه بارداليان ، فإنه كان المارشال فرنسوا دي مونمورانسي .

وكان الذي يهاجمه أخوه الدوق هنري دي دمفيل .

وقد التقى الأخوان أخيراً بعد تلك الأعوام التي مرت بهما من عهد قتالهما في مارجنسي .

وكان هذا القصر الذي نسف وتهدم قصر المارشال فرنسوا .

فلما رأى الشفاليه المارشال في هذا الموقف صاح صياح ارتجت لها تلك الجهات ، لأنه رأى حبيبته لويزا واقفة وراء أبيها وهي محلولة الشعر ترتجف من الرعب .

- ٣٦ -

كما حدث في تيرنوان

لنذكر الآن كيف كان التقاء هذين الأخوين .

كان الدوق هنري أول من زحف بجنوده ، حين دق جرس سانت جرمين الدقة الأولى .

كان يسير بجيشه بانتظام وببطء .

وإنما نقول بجيشه ، لأن هنري كان قد تأهب لكل طارىء ، وتوقع كل ما يمكن حدوثه ، وعلم ان أخاه متأهب ، وانه حصن قصره ، وجعله كالحصون ، فسار اليه بكل رجاله كأنه سائر إلى حرب .

وكان جيشه هذا مؤلفاً من حاشيته ، وهم أربعون رجلاً من الأشراف ، ومن ثلاثمائة فارس وخمسمائة رجل .

وكان يسير وراءهم ثلاث مركبات وضعت عليها براميل البارود ، ووراء تلك المركبات مئتا رجل من حملة البنادق .

وقد اجتمعوا كلهم في الليل حول منزل الدوق هنري ، قرب باب مونمارتر .

فلما بدأ الزحف إلى قصر المارشال فرنسوا ، عهد هنري بقيادة رجاله إلى أحد قواده ، وأمره أن يسير بهم سيراً بطيئاً .

ثم انسحب بثلاثين فارساً ، وسارت بهم الخيل تعدو خبباً .

وكان هنري مقطب الجبين منقبض النفس ، لم يظهر شيئاً من ذلك السرور الذي كان يظهره رجال المذبحة حين دقت الأجراس .

بل إنه لم يكن يحض الناس على القتل كما كان يفعل سواه من الأسياد ، ولم يحفل بأنوار المشاعل ، أو يهتم بدوي البارود .

وعلى الجملة فانه كان غير مكترث لهذه المذبحة ، وسواء عنده أقتل الهوكينوت ، أم لبثوا في بيوتهم آمنين .

غير انه كان يدفع جواده بسرعة فيدوس الناس ولا يبالي بصياحهم .

ولم يكن يتمثل له في خلال تلك الفظائع التي تجري حوله غير خيال امرأة ، وهذه المرأة هي حنة إمرأة اخيه .

وبعد هنيهة وصل بفرسانه إلى قصر مسيم فترجل عن جواده ودنا من باب القصر وقال :

– أي فرنسوا مونمورانسي .. أأنت الذي وضع قفازه على هذا الباب ؟

ثم ضرب ذلك القفاز بسيفه .

وكانت الصيحات قد ارتفعت في كل مكان من باريس ، ودوت البنادق وأضاءت المشاعل .

ولكن فرسان هنري لم يلتفتوا إلى ورائهم لشدة انذهالهم مما رأوه فشغلوا عن ذلك كله بالنظر إلى مولاهم .

أما دامفيل فانه ضرب القفاز ضربة أخرى وقال :

– أين أنت يا فرنسوا دي مونمورانسي .. ولماذا لا تكون حاضراً حين ارفع قفازك واجلد به الأرض .

ثم انتزع القفاز من موضعه ووقف عند ذلك الباب ينتظر ، وقد ضم يديه إلى صدره .

وقد صبر دقيقة ثم قال .

- ايها الجبان إنك لم تحضر ساعة إهانة قفازك ولم تجسر على المجيء إلي ،

فأنا أذهب اليك .

وعند ذلك امتطى جواده وسار في طليعة فرسانه ، فـالتحق بجيشه وأدركه قبل أن يصل .

* * *

أما المارشال فرنسوا دي مونمورانسي فقد كان ملازماً الحياد في جميع مـا حدث من الدسائس والمؤامرات كما تقدم في الأجزاء السابقة .

فكان دي كيز مرتاباً به والملكة تكرهه وقد ابتعد عن البلاط وامتنع عن الاختلاط بأهله ، فلم يعلم ما كانوا يدبرونه بشأن هذه المذبحة الكبرى .

ولو اتفق انه علم فلم يكن يخطر في باله انهم يجسرون على مهاجمة رجل من أسرة مونمورانسي .

وذلك ان المارشال فرنسوا لم يكن فقط ابن أمير الجيوش الأعظم ، ذلك الذي خدم عرش أسرة فالوا أجل خدمة يذكرها التاريخ .. ولم يكن فقط رئيس حزب النبلاء ، الذي كان شديد الحول والطول في ذلك العهد ، بل كان أيضاً كاثوليكياً معروفاً بغيرته على الكثلكة عند الفرنسيين ، فقد حارب الهوكينوت في عهد أبيه .

ومما لا ريب فيه ان مبادئه قد اختلفت بعد موت أبيه ، فبات يكره قتل الناس باسم الدين .

ولكنه بقي محافظاً على مذهبه غيوراً عليه .

ثم إنه قد اتفق له انه دافع أحياناً عن الهوكينوت في مواقف الجدل .

لكن وفاءه لأسرة فالوا المالكة لم يشبه شائبة ، وقد تقدم برهان ذلك من حديثه مع ملك النافار ، كما يذكر القارىء .

وعلى الجملة ، فإن جميع المعتدلين في المملكة الذين يودون إطلاق حرية

الضمير . ويدعون الهوكينوت يدينون بالدين الذين يريدونه ، كانوا يعتبرون المارشال فرنسوا دي مونمورانسي زعيماً لحزبهم ، قائداً لأفكارهم .

لكنهم لم يفعلوا شيئاً يدل على سوء القصد .

لذلك كان المارشال يعلم إن أضداد الهوكينوت يرتابون به ، لكن لا يخطر في باله انهم يذبحونه كما يذبحون الهوكينوت

ومع ذلك فإنه حين علم بأن أبواب باريس مقفلة وانه لم يؤذن له بالخروج منها حسب ان هذه التأهبات قد اتخذت من أجله خصيصاً ، وإنهم يريدون به سوءاً ولكنه لم يعرف هذا السوء .

فرأى من باب الحكمة أن يحصن قصره .

وكان رجال حاشيته مؤلفين من اثني عشر كاثوليكياً والباقون من الهوكينوت .

وكانوا جميعهم مخلصين للعرش كل الاخلاص ، ولكنهم كانوا جميعهم على مبدأ واحد أيضاً ، وهو كره الحروب الدينية واعتبارها من الأعمال الوحشية .

وكان عدد حاشيته اربعين فاذا أضيف اليهم الخدم والجنود بلغوا نحو ثمانين، وقد سلحهم جميعهم بما كان لديه من الاسلحة الكثيرة المختلفة .

فلما أتم تسليحهم واستعرضهم جعل يبتسم لاعتقاده انه قد بالغ في هذا الاحتياط الذي لا فائدة فيه .

ثم علم بعد ذلك باحتجاب باردليان وابيه فخامرته الهواجس وعاوده القلق لا سيما وانه لم يجد سبيلاً لمعرفة مكانيهما .

فزاد تيقظه منذ ذلك العهد وبات قصره يشبه الحصون المنيعة .

وكانت لويزا مقيمة خلال هذه الأيام مع امها .

وأما امها فقد بقي جنونها على ما كان عليه دون تغيير ، أي انها كانت دائماً تبتسم ابتسام الرضى وتحسب نفسها لا تزال في منزل ابيها في مرجنسي .

فكانت لويزا تسمعها من حين إلى حين تناجي نفسها قائلة :

هوذا قد حضر .. لا بد لي أن اعترف له بذلك السر ... أواه اني اضطرب .

وانما كانت تناجي فرنسوا بهذه الأقوال .

ولكنها حين كان يدخل فرنسوا منقبض الصدر إلى تلك المرأة التي طالما أحبها ولا يزال يحبها كانت تنظر اليه نظرات المنذهل كأنها لا تعرفه ولم تره من قبل .

وأما لويزا فقد كان شقاؤها عظيماً لاحتجاب بارداليان .

ولكنها لم تكن تظهر شيئاً من هذا الشقاء وتصرف كل اهتمامها إلى العناية بأمها .

ففي مساء السبت كانت جالسة بقرب امها تشتغل بالتطريز .

فتوقفت يداها عن العمل فجأة ونظرت إلى امها لأن حنة كانت شاخصة الطرف في تلك الغرفة كأنها تنظر إلى شيء معين .

ثم وقفت ومدت يديها قائلة .. اني أراه .. هذا هو .. اواه متى يحضر ..

فارتعشت لويزا كأنما امها كانت تعبر عن افكارها فوضعت يديها على عينيها وجعلت تبكي .

فقالت الأم وهي تناجي فرنسوا . انه سيحضر .

وقالت البنت وهي تناجي بارداليان . ترى أين هو الآن ؟

ودخل المارشال في تلك اللحظة ورأى ذلك المنظر المؤثر فضم الأم وابنتها إلى صدره بملء الحنو .

وقد لبثت حنه تبتسم ولويزا تبكي وكلتاهما تفتكران بأمر واحد وتشتغلان بسؤال واحد فتقولان :

أين هو ؟ متى يحضر ؟..

* * *

في الساعة الثانية بعد انتصاف تلك الليلة كان جميع من في ذلك القصر نياماً ما خلا حراسه .

وكان السكون سائداً ولويزا وامها نائمتان في غرفة واحدة .

وكانت الأم نائمة نوماً ساكناً هادئاً لا يشغلها شاغل بعد ذهاب عقلها .

وكانت لويزا نائمة نوم المتأرق لا تلبث أن تغفو حتى تستفيق .

أما المارشال فكان قد دخل إلى غرفته في الساعة العاشرة حسب عادته .

ولا بد لنا هنا من وصف قصر المارشال الذي كان مبنياً على نسق القصور الكبرى في ذلك العهد .

فقد كان يفصل ردهته المبلطة عن الشارع ، جدار عظيم فيه باب ضخم وباب أصغر .

وكان على يسار الردهة بناية مرتفعة يقيم فيها الخفراء ورجال الاسطبل .

وتحت هذه البناية طابقان ومستودع للحبوب .

وأمام الردهة مكان البواب وعلى يمينها بنـــاية أخرى عظيمة تقيم فيها حاشية المارشال .

وفي اعلاها غرف الخدم والطباخين وسواهم .

وبين هاتين البنايتين في آخر الردهـــة يوجد القصر وهو متصل بهما بعض الاتصال .

وقد خصص الدور الأول منه لقاعات الاستقبال والدور الثـاني لاقامة المارشال .

فلما دق جرس سانت جرمين دقته الأولى صحا المارشال من رقاده فلبس ثيابه وتدرع وتقلد حسامه وتسلح بخنجره .

ثم ذهب إلى النافذة فرأى النجوم قد مالت إلى الاصفرار وسمع ضجيجاً من قلب باريس .

ثم زاد ذلك الضجيج وكثرت اصوات الأجراس وارتفعت اصوات الناس،

فذعر لهذه الاصوات وقطب حاجبيه وأيقن أن الأمر جلل .

وعند ذلك اسرع الى الغرفة التي تنام فيها حنة وابنتها .

فوجد أن لوبزا قد صحت مثله حين سمعت الدقـة الاولى فلبست ثيابها وجعلت تعين امها على لبس ملابسها .

فبادرها المارشال بقوله : لا تخافي يا ابنتي .

– لم أخف يا أبي ، ولكن ما هذه الاجراس ، وما هذه الصيحات التي اسمعها ؟

– ستعلم قريباً يا إبنتي فالبسي ملابس السفر وكوني متأهبة مع امك للرحيل .

ثم عانق الأم وبنتها وخرج من غرفتهما وكانت الساعة قد بلغت الثـالثة ونصف .

وقد وجد رجاله مجتمعين في ردهة القصر متـأهبين للطوارىء منذعرين مما كانوا يسمعونه .

فقال له أحدهم وهو من الهوكينوت :

– أظن يا مولاي انهم يهاجمون اللوفر ، ويجب ان تسرع لمساعدة الملك . . إسمع يا مولاي ، إنهم يتضاربون في اللوفر .

فهز المارشال رأسه وقد ظهرت عليه علائم القلق فقال :

– كلا انهم لا يهاجمون اللوفر بمثل هذا الضجيج ، فإن دي كيز لا ينهج هذا المنهج في قتاله ، لكن ما عسى يكون هذا القتال ؟ إذهب أنت وسانت مرتين واستكشفا لنا الخبر .

فأسرع الرجلان وخرجا إلى الشارع .

وقد عادا نحو الساعة الرابعة .

ولا شك انهما لقيا ما يحمل على الرعب ، لأن إضطرابهما كان عظيمـاً ، لأن الدم كان يسيل من كتف أحدهما ، ومزقت ملابس الآخر .

فصاح سانت مرتين قائلاً :

— مولاي إنهم يقتلون الهوكينوت . مولاي إن القتل قائم في كل مكان .

ثم سقط مغمياً عليه لفرط ما نزف من دمائه .

وقال الهوكينوتي :

— مولاي ، إنهم يقتلون إخواني في اللوفر ، وفي المنازل والشوارع ، وكل مكان ، ولا يفرقون بين الرجال والنساء والأطفال .. مولاي لننقذ هؤلاء الأبرياء .

فأجابه المارشال بلهجة خطيرة : سنذهب لمساعدة إخوانك ، فهم إخواننا أيضاً بالانسانية .

ثم صاح برجاله قائلا : هلموا إلى الجياد .

فوثبوا كلهم مسرعين إلى جيادهم ، كأنهم رجل واحد ، فقال لهم المارشال :

— إننا سنحاول المستحيل ، أي إننا سنذهب إلى اللوفر ، فأقابل الملك وأسأله إيقاف المذبحة فإذا أبى فلا يكون بعد ذلك إلا القتال .

فصاحوا جميعهم بصوت واحد :

— إلى القتال .. إلى اللوفر !

فقال المارشال : إفتحوا الباب الأكبر .

ففتح للحال مصراعا الباب .

وعند ذلك ظهر لهم جمهور عظيم من الفرسان وغيرهم من المقاتلين وكلهم يصيحون قائلين :

— إلى القتل ، إلى النهب !

فنتف الهوكينوتي شعره وقال : لقد فات الأوان .

وقال فرنسوا : هوذا أخي في طليعة اولئك السفاكين .. لقد لقيته اخيراً

وسنجتمع كما اجتمعنا في غابات مرجنسي .

ثم صاح بصوت هائل قائلا :

– هنري .. هنري .. الويل لك أيها الشقي !

وعند ذلك أقفل الحراس الباب الاكبر .

فأمر فرنسوا رجاله أن يترجلوا عن جيادهم ، وأوقفهم في مواقف القتال على نسبة درجاتهم ، كما كان يفعل في حصار تيرنوان .

وهجم رجال أخيه على الباب يحاولون كسره .

ثم سكنت حركاتهم ، وسمع فرنسوا من خلف الباب صوت أخيه يقول :

– أيها الجبان اني نزعت قفازك عن باب منزلي فأين أنت الآن لأصفعك بهذا القفاز .

فزأر فرنسوا زئير الأسود وقال : افتحوا الباب .

وكان واقفاً في مرتفع كي يستطيع الاشراف على المعركة وإصدار الأوامر إلى المقاتلين .

أما أمره بفتح الباب ولقاء هذا الجيش الزاخر ، فقد كان جرأة نادرة ، لكنه لم يجد بدأ منها .

فلما فتح الباب صاح قائلا :

– ليطلق الصف الأول النار !

فأطلق الصف الأول ناره من عشر بندقيات ، إذ كان عدد رجاله عشرة ورجعوا إلى الوراء كي يحشوا بنادقهم .

فحل محلهم الصف الثاني ، فأمرهم فرنسوا باطلاق النار .

ثم أمر الصف الثالث فالرابع .

فهرب بعض رجال دامفيل من ذلك المكان الذي دخل منه باردليان وابنه ، وقد قتل منهم ثلاثون رجلا وانطرحت جثثهم قرب الباب .

وقد ازدحم الناس عند الباب ، وكانوا خليطاً من المقاتلين والمتفرجين .

فترجل هنري عن جواده وهو يكاد يجن من الغضب ، مهدداً القصر بقبضتيه .

أما فرنسوا فانه امر بعد تلك المعركة الأولى باقفال الباب .

على ان هنري لم يلبث ان عادت اليه سكينته ، وأخذ يهتم باعداد هجمة ثانية .

فأمر فرسانه بالترجل عن جيادهم ، فامتثلوا وارسلوا تلك الجياد إلى ضفة السين .

ثم أبعد عن القصر جماعة المتفرجين ووقف مع حاشيته يتداولون .

وقد حدثت هذه الحوادث بمدة ساعة ، وعندما أعد هنري معدات الهجوم الثاني ، كانت الشمس قد تعالت في كبد السماء .

وكانت صيحات الناس في باريس تمتزج بأصوات الأجراس فتصل إلى آذان هنري فيعض شفته من القهر ويقول : ان جميع الناس يقتلون ويحرقون ، وأنا لم أفعل شيئاً بعد .

وعند ذلك أصدر أوامره بالبدء في العمل .

وقد كانت خطته واحدة ، وهي كسر الباب ، والتمكن من الدخول الى القصر .

ولكنه اضطر إلى تغيير الآلات التي استخدمها لكسر الباب .

فقد استعمل في الهجوم الأول الأخشاب الغليظة فوجد انها لا تفيد في كسر ذلك الباب لضخامته .

فوضع قربه سلماً مزدوجاً من الخشب الصلب ودعمه بالعواميد الغليظة ، وجاءوا من عند حداد قريب ببكرتين ترفع بها الاثقال فوضعوهما في اعلى السلمين من الداخل ، ثم جاءوا بثلاث مطارق من الحديد شديدة الثقل ، فربطوها بسلاسل طويلة من الحديد .

وفي الوقت نفسه كان جماعة يشتغلون بنقب الجدار ، فنقبوه ووضعوا فيه

برميلاً من البارود .

وقد صف دامفيل رجـــاله على اليمين وعلى اليسار ، ثم أمرهم بالإسراع بالهجوم حين يفتح منفذ في الباب .

وكانت الشمس قد توسطت في قبة الفلك ، فقد اقتضى لهم زمن طويـــل لنقل هذه المعدات ووضعها في أماكنها .

ثم ساد السكوت بين جميع الحضور ، فنظر دامفيل إلى رجاله نظرة الفاحص ، فرأى انهم على تمام التأهب ، فرفع يديه إشارة إلى الاذن بالبدء في العمل .

عند ذلك أخذ عشرة رجال تلك المطارق الغليظة الحديدية ، وابتعدوا بها بقدر ما يسمح طول السلاسل ، ثم افلتوها فاندفعت تهوي إلى باب القصر فخرج لها دوي شديد .

وهم الرجال بالهجوم لوثوقهم أن هذه المطارق ستحطم الباب .

لكنهم رأوا أن الباب لبث مغلقـــاً ، فلم يتحطم ولم يفتح كما كانوا يعتقدون .

فشتم هنري شتماً قبيحاً ، فقد أيقن أن أخاه وضع المتاريس وراء الباب بينما كان هنري مهتماً بنقل الآلات .

وكرر الشتم واللعن وقال : إني لا أبرح هذا المكان ولو اضطررت إلى البقاء فيه عاماً ، ونسف الشارع بجملته .

عند ذلك ضرب جبينه بيده كمن خطر له خاطر سريع فبرقت أسرتـــه بأشعة الفرح ، ونادى أورتيس .

فأجابه رجل ممن كانوا حوله قائلاً :

– إن الفيكونت يمرن كلابه يا مولاي .

وأجابه آخر : إن كلابه جائعة .

فابتسم هنري ابتساماً يدل على انه فهم غاية دامفيل من تمرين كلابـــه ،

ونادى رجلاً من أعوانه يدعى سوفال ، فقال له مشيراً إلى مكانين .

— ضع برميلاً من البارود هنا وبرميلاً هناك ، أفهمت ؟

— نعم . .

وانصرف الرجل فوضع البرميلين في المكانين الذين عينهما .

فوضع هنري بنفسه الفتيل بالبرميلين وأشعلهما بيده الأثيمة ، ثم ابتعد. فما مضى نصف دقيقة حتى انفجر البارود ، وتصاعد عمودان من اللهب الى الجو ، وتحطم باب القصر الكبير ، وما كان خلفه من المتاريس .

فاندفع الجنود عند ذلك إندفاع السيل الجارف ، ودخلوا أفواجاً إلى ردهة قصر مونمورانسي .

وهنا بدأت المعركة الجهنمية ، ودوت البنادق كهزيم الرعود .

ثم عمد الفريقان الى الخناجر والسيوف فكانت معركة هائلة .

فدافع رجال مونمورانسي دفاع القانط المستميت ، وكان المهاجمون يصيحون صياح الفوز ، وقد تراكض الناس من كل صوب طمعاً بنهب ذلك القصر المعظم .

فكانوا ينظرون الى القتلى من الجانبين ، وهم يضحكون ، كأنما جردت قلوبهم من الرحمة ، وذهبت منهم عواطف الانسانية .

وكان فرنسوا موغورانسي يهجم هجمات الأسود ، ويبحث عن أخيه هنري فلا يجده .

ذلك ان هنري كان متربصاً ينتظر الفرصة المناسبة .

وقد كان السيف يصعد ويهبط في يد فرنسوا ، فإذا صعد تراجع مهاجموه مذعرين ، واذا هبط عاد مخضباً بدم قتيل .

وطال ذلك الدفاع ، فقد سقط حوله خمسة عشر قتيلاً ، فسكر بخمرة البأس والتحمس ، فحسب نفسه في حصار تيرنوان .

فإن موقفه في هذه المعركة كان كموقفه في ذلك الحصار ، فكان فعله

فيهما متشابها .

فإنه كان يضرب الضربة تلو الضربة ، وكلما قتل خصماً جاء بدلاً منه خصمان حتى تمكن منه القنوط ، ورأى أنه سيسقط صريعاً كما سقط هناك فقال كما قال في ذلك الحصار الوداع يا حنة !

وبعد أن قال كلمة الوداع صاح صيحة هائلة ، واليك ما رآه .

انه وجد نفسه عند سلم قصره ، ورأى مائة فارس قد هجموا مع الهاجمين ولم يكن باقياً غير عشرة من رجاله ، فصعد الى السلم ، وهجم الهاجمون فلم يبق من رجاله غير خمسة .

وعند ذلك سمع دوياً هائلا ، ورأى ان البناية اليمنى قد تهدمت بالانفجار فسقطت على من كان فيها من المدافعين .

فضحك فرنسوا ضحك القانطين قائلا : يجب أن أموت هنا .

ثم نظر نظرة سريعة الى الوراء فرأى ابنته لويزا راكضة اليه وبيدها خنجر مجرد .

فهزت الخنجر بيدها قائلة لأبيها : سوف ترى يا أبي كيف تموت ابنة مونمورانسي .

فقال لها أبوها .. امك .. أسرعي الى أمك .

ثم التفت فرأى أخاه هنري أمامه ..

عند ذلك صاح تلك الصيحة الهائلة .

- ٣٧ -

البطلان

كان المارشال واقفاً على السلم ، ووراءه ابنته .

وقد رأى في القاعة المجاورة للسلم امرأته جالسة على كرسي وهي تنظر الى ما يجري حولها من الأهوال وتبتسم .

وبالقرب منه اثنان من رجاله ، وهما كل من بقي من اولئك الأبطال .

وفي آخر السلم كان أخوه هنري واقفاً ينظر اليه نظرات الأفاعي ، وفي يده سيف طويل ، وهو يفرق الناس من حوله قائلاً :

— دعوا هذا الرجل فهو لي .

وقد وقف خلف هنري جمهور عظيم من الفرسان والمشاة ، وهم ينذرون ويشتمون .

فصاح المارشال صيحة منكرة ، وقد اتقدت عيناه ببارق الانتقام فهجم عليه نحو مائة رجل بالخناجر .

ولكن دامفيل أوقفهم عن الهجوم باشارة وهو يقول :

— اني أريده حياً لاميته كما أريد .

وعند ذلك ضربه فرنسوا بحسامه الطويل ضربة هائلة .

فخلا دامفيل من الضربة ، وسقط السيف على بلاط السلم فانكسر ، ولم يبق بيد فرنسوا منه غير قطعة تشبه الخنجر الطويل .

فنظر فرنسوا إلى السماء نظرة القانط .

ونظر اليه أخوه نظرة الشامت فقال :

— ودع الحياة يا أخي فقد بت في قبضة يدي ، واذكر إنك ائتمنتني على حنة دي بيانس ، فثق انها ستكون في خير منزلة .

فلما رأى فرنسوا انه بات أعزلاً ، وسمع كلام أخيه رجع وثباً إلى القاعة التي كانت وراءه ، فضم إلى صدره إمرأته وابنته وقال مخاطباً اخاه : إنك لا تنالنا إلا جثثاً باردة أيها السافل .

ثم انتزع الخنجر من يد ابنته وهو يقول :

— الوداع ، فإننا سنموت معاً .

وقد رفع الخنجر بيده وهم أن يقتل به إمرأته وابنته ثم يقتل نفسه .

لكنه سمع في تلك اللحظة ، ضجيجاً عند السلم ، وصوت هبوط ثلاثة أصوات . .

فأوقف يده عن الضرب والتفت إلى الجهة التي كان فيها أخوه فلم يره ، فانه كان قد وثب عن السلم صاخباً لاعناً وهرب إلى الشارع .

كذلك جميع من كان في ردهة القصر ، فانهم كانوا يهربون مذعورين يزحم بعضهم بعضاً ليفوزوا بالهرب .

فأسرع المارشال إلى السلم ليرى ما حدث ، وهذا بيان ما اتفق .

إنه لم يبق قائماً من بنايات قصر مونمورانسي بعد انفجار اللغوم غير ذلك الجدار العالي الضخم الذي كان عليه باردليان وابنه .

فبينما كان المارشال يهم بقتل إمرأته وابنته ونفسه ، وبينما كان دامفيل يهم أن يلحق بأخيه إلى القاعة .

وبينما كان الناس في الردهة ، ينتظرون أن تنتهي المعركة بين الأخوان لينهبوا القصر .

بينما كان كل ذلك يجري سقط قسم من ذلك الجدار الطويل العريض على

اولئك الناس فقتل منهم نحو عشرة .

ولم يكن ذلك السقوط من الانفجار ، فان من نظر إلى أعلى ذلك الجدار يجد من خلال الغبار ، رجلين واقفين في زاويتين عريضتين من زوايا الجدار ، وهما يصعدان وينزلان ، ويقومان ويقعدان ، ويتقدمان ويتأخران .

فلما تساقط قسم من حجارة ذلك الجدار الضخمة ، تلا ذلك السقوط سقوط ثان ، ثم ثالث فرابع وهلم جرا ، إلى أن باتت تلك الحجارة الضخمة تتساقط على الناس تساقط الأمطار فتفتك بهم الفتك الذريع .

فصاح الجميع صياح الذعر وجعلوا يهربون دون رشاد ، كما يهرب المجتمعون في مرسح شبت فيه النار .

فما مضى نصف دقيقة حتى خلت الردهة من الناس ، ولم يبق فيها غير جثث القتلى ، وقد تبادر إلى أذهانهم ان الجدار لغم .

وفوق ذلك الجدار كان بارداليان وابنه يضحكان ضحكاً هائلاً يلقي الرعب في القلوب .

كان هذا الجدار الواقف عليه بارداليان وابنه مرتفعاً عن البناية التي يقيم فيها المارشال ، بحيث يمكن النزول منه إلى سقف تلك البناية ، ومن السقف اليها .

وهذا الذي لاحظه بارداليان الأكبر لأول وهله . .

أي حين تركا ذلك السلم وصعدا إلى الجدار ، وعلما انه جدار قصر مونمورانسي . .

وقد عرض هذا الخاطر على ولده .

لكن الشفاليه هز رأسه وأشار بيده إلى المارشال وابنته فقال :

- إنها إذا ماتت القيت بنفسي من فوق هذا الجدار على رأسي كما يلقي السابح نفسه في البحر .

فارتعد أبوه وقال : يا للهول ، أتحارب أهل باريس بجملتهم ، وتنجو من

ضغط الآلة ، وتسلم من الموت على اختلاف أشكاله ، وتزرع الرعب في جميع القلوب ، ثم تأتي لتموت هنا .

فضم الشفاليبه يديه إلى صدره ، وضرب برجله ذلك الجدار المتزعزع من تأثير الانفجار .

فانفصلت قطعة من أحجاره وسقطت على رؤوس الناس المجتمعين في الردهة فألقت الذعر في نفوسهم .

فسر باردالیان الأكبر لما رآه وقال إن هذه الحجارة خير من المدافع .

— اذاً هلم بنا نلقها عليهم .

فانحنى الاثنان وجعلا يستعينان على خلع حجارة الجدار بخناجرهما وأيديهما وأرجلهما ، فتتساقط على الناس كرشاش المطر ، وتفتك بهم الفتك الذريع .

وعندما أيقنا من نجاح العمل ، لم يعودا ينظران إلى الناس ، وجعل كل منهما يشتغل في جهة ، فيلقيان الحجارة من ذلك الجدار قطعة قطعة ، وهما يعرضان نفسيهما لأشد الأخطار .

فان من زلت قدمه منهما إلى المكان المتهدم ، سقط مع ما يهدمه ، وليس بعد سقوطه غير الموت .

لكنهما كانا يعملان بملء الحذر والتأني ، وكان الحائط عريضاً يعينهما على الثبات ..

فلما التقيا ودنا كل منهما من الآخر ، نظرا إلى الردهة فوجداها قد خلت من الناس ..

ورأيا ذلك الجدار بات يشبه السلم لكثرة ما حدث فيه من التعاريج بعد التهدم .

فقال الأب لابنه : هلم ننزل الآن فقد خلت الردهة من الناس .

فأجابه الشفاليبه ضاحكاً : هلم بنا .

وكان وجهـــاهما قد اسودا من الغبار ، وأيديهما قد احمرت من الدم ، وثيابهما قد تمزقت ، وهما يضحكان ضحك المجانين دون أن يعلما السبب في هـذا الضحك .

وعند ذلك دوت في الفضاء رصاصة بندقية أصابت قبعـــة الشفاليه وأطارتها عن رأسه .

فأجاب الشفاليه ضاحكاً : اني لا أحييكم برفع قبعتي بل هي التي تحييكم .

ثم توالى إطـــلاق الرصاص عليهما من الشارع ، فكان الرصاص يتساقط حولهما دون أن يصيبهما بأذى .

فقال الشفاليه لأبيه : أرى ان المجاملة تقضي علينا بتوديع هؤلاء النـاس فانهم يودعوننا باطلاق الرصاص والهتاف .

ثم انحنى والقى قطعة كبيرة من الحائط إلى جهـة الرواق الذي اجتمع رجال دامفيل فيه وقال :

ــ أظن اني قتلت عشرين رجلاً منهم .

فقال أبوه : وأنا لا بد لي من مساواتك .

ثم فعل فعله ، فعلا صياح الناس من الخارج وكثر دوي البنادق .

وبعد دقيقة انقطع الدوي وحل محله ضحك بارداليان وإبنه .

فوضع دامفيل رأسه بين يديه وبكى من الغم والقهر .

وكان قد سقط من الجدار سبعة صفوف .

ونظر البطلان إلى ردهة القصر ، فلم يجدا فيها احداً فأسرعا إلى الوثوب من الجدار إلى سطح الباب ومنه إلى الردهة .

وقد سارا بين تلك الجثث ركضاً إلى السلم الذي كان المارشال واقفاً عليه ودخلا منه إلى تلك القاعة .

وكان الشفاليه يركض أمام أبيه ، فأسرع اليه المارشال وعانقه بحنو لا يوصف وهو يقول :

- ولدي .. ولدي . إني لا انسى ما فعلت .

فنظر الشفاليه إلى ما حواليه ، فرأى حنة دي بيانس تبتسم مسترسلة إلى تصوراتها غير مدركة شيئاً مما حدث .

ورأى المارشال فرنسوا يبكي من الحنو .

ورأى حبيبته لويزا مصفرة الوجه تنظر اليه نظرات إعجاب لا توصف.

أما المارشال فلم يجد ما يعرب به عن إمتنانه ، إلا بمناداة بارداليان بصوت يتهدج بالبكاء قائلاً : ولدي .

فشعر بارداليان بضعف عظيم ونظر الى لويزا ، ثم الى أبيها فقال .

- انك تدعوني يا مولاي بولدك .. ألا تخـــاف أن أخطىء فهم معنى هذه الكلمة ؟

- مارشال . مارشال دي مونمورانسي اتدعوني أنا ولدك .

ففهم المارشال ما يخالج قلب هذا الأسد من الريب ، فالتفت الى لويزا وقال لها : تولي عني إجابته يا إبنتي .

فاصفر وجه لويزا ، واغرورقت عيناها بالدمع ، ثم ظهرت علائم الجد على وجهها الملائكي ، فمدت له يدها وقالت له :

- إنك خطيبي ، وهذا المنزل منزلك ..

فاضطرب الشفاليه اضطراباً عظيماً وجثا على ركبتيه ، فأخذ بيده يدي لويزا وجعل يبكي .

فبكى أبوه سروراً لبكائه وقال له . ألم أقل لك يا بني انها لك فقد نلتها بجسامتك .

فهزت لويزا رأسها وقالت :

- كلا ، فاني أحببته قبل الآن . هناك حين كنت أراه من تلك النافذة هنالك امتلك قلبي بنظراته وحبه .

ثم افلتت من بارداليان وذهبت الى أبيه فطوقت عنقه بذراعيها قائلة له :

- ان أبي دعاه بولده وأنا أدعوك بأبي .

فرقص شاربا بارداليان الأكبر من الارتعاش ، وحمل لويزا بين يديه وهو يبكي ويقول :

- تبارك اسم الله فقد حملتك ساعتين حين كنت طفلة كما أحملك الآن . .

أتعلمين انك نمت حين كنت طفلة مع ولدي في مهد واحد ؟

وفي تلك اللحظة سمعوا ضجيجا فتكهرب الشفاليه وثب الى السلم وهو يقول : اني أحارب الآن كل أهل الأرض والسماء .

وكان دامفيل قد عاد برجاله ودخلوا من باب القصر ، وهم يهدرون ويزمجرون ، ولكنهم كانوا يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى لخوفهم من ذلك الجدار .

وكان المارشال وبارداليان الأكبر قد تبعا الشفاليه فوقفوا كلهم عند ذلك السلم يتشاورون .

فأشار الشفاليه بيده الى باب في القاعة وقال للمارشال :

- الى أين يؤدي هذا الباب ؟

- الى الحديقة .

- وماذا يوجد وراء الحديقة ؟

- زقاق يؤدي الى النهر .

- أيوجد في تلك الحديقة مركبة ؟

- نعم . .

- اذاً هلموا بنا .

فأجابه أبوه قائلا :

- تقدموني وسألحق بكم

فحمل المارشال امرأته حنة ، وحمل بارداليان خطيبته لويزا وهو يحسب انه ملك الدنيا بأسرها .

وبعد هنيهة كانوا في الحديقة ، فربطوا جوادين في المركبة وصعدت اليها لويزا وأمها .

فقال الشفالييه للمارشال : تول أنت قيادة المركبة .

فوثب المارشال إلى ظهر أحد الجوادين ، وأسرع باردليان إلى الاصطبل فأخذ جواداً منه وعاد إلى المارشال فقال له :

– أين الباب ؟

– هو هذا الباب الكبير الذي تراه .

فدفع اليه عنان جواده وقال :

– إذهب بالمركبة وبهذا الجواد وانتظرني خارج الباب .

وقد كان هذا الفقير المعدم يلقي الأوامر إلى مارشـــال فرنسا ، وكلاهما يجدان ذلك طبيعياً معقولاً كأنهما يحلمان ، لان جميع مـــا مر بهم من تلك الحوادث كان يشبه الأحلام . وهي أحلام امتزجت فيها السعادة والشقـــاء والدماء والمذابح .

وامتثل المارشال فخرج بالمركبة وبجواد باردليان من الحديقة ، ورجع باردليان إلى تلك القاعة يبحث عن أبيه ويناديه فلا يجيبه .

فلما دنا من القاعة سمع دوياً هائلاً ، وشعر ان الأرض تهتز تحت قدميـــه . ورأى عموداً نارياً قد تصاعد الى السماء وإن البناية التي كان يقيم فيها المارشال قد تهدمت بجملتها وباتت انقاضاً .

وقد دفع هذا الانفجار الشفالييه عشرة أقدام إلى الوراء ولكنه لم يسقط لأنه لم يكن يريد أن يسقط .

وربما كانت هذه الدفعة قد أنقذته ، فإنه لم يثب إلى رشده حتى رأى ذلك العمود الناري قد استحـــال إلى حجارة ، كانت تتساقط كرشاش المطر حوله .

ثم رأى ممراً قـــد التهمت حجارته ، وهو كل مـــا بقي من ذلك القصر ،

فطار فؤاده شعاعاً على أبيه ، ودخل في هذا الممر وهو يصيح صياح القانطين وينادي أباه فلا يجيبه أحد .

* * *

بينا كان الشفالييه ذاهباً مع المارشال ولويزا وحنة إلى الحديقة كان أبوه تقدم إلى جهة الردهة وهو يقول تقدموني وسألحق بكم .

وكان السبب في تأخره عنهم غريباً في بابه لا موضع له في تلك الحالة التي كان فيها .

لكنه يتفق أحياناً في حالات اليأس ان يشغل القانط عن نفسه بأمور تافهة لا تذكر بإزاء ما هو فيه .

فقد حدثوا ان رجلاً سقط من قطار السكة الحديدية وداسه القطار فقطع رجليه فكان أول اهتمامه أنه فتش في جيبه بحثاً عن غليونه .

وذكروا عن امرأة أنها كانت في باخرة صدمت صخراً ، وأخذت الأمواج تبتلعها . فلم يكن يشغلها في هذه الساعة الهائلة غير رفع ثوبها حذراً من ان يبتل .

وكذلك باردليان الأكبر فقد كان جل اهتمامه في تلك الساعة قاصراً على معرفة ما تتضمنه تلك الورقة التي سقطت من جيب قاتل الأميرال كوليني حين قتله الشفالييه بالحربة .

فلما تخلف عن الجماعة فتح تلك الورقة وقرأ فيها مسرعاً ما يأتي :

« يؤذن لحامل هذا الأمر ومن يصحبه من الرفاق بمبارحة باريس من أي باب أرادوه ، لانهم مسافرون لخدمة الملك » .

وكان هذا الأمر ممضياً بتوقيع الملك ومختوماً عليه بختمه ، وهو الأمر الذي أعطته الملكة كاترين لقاتل الأميرال بحضور الدوق دي كيز .

فتنهد بارداليان تنهد الارتياح إذ عرف أخيراً ما تتضمنه هذه الورقة وقال في نفسه : لقد أخطأت إذ كان يجب ان أقرأها من قبل والآن فكيف السبيل إلى تسليمها لولدي فيخرج بها آمناً من باريس .

وكان قد وصل إلى ذلك السلم ، الذي كان المارشـــال يقاوم عليه الهاجمين ، فرأى رجال دامفيل واقفين في جهة بعيدة وهم يحاولون الهجوم ولا يجسرون .

فلم يكترث لهم ومشى إلى مركبة في وسط الردهة كان فيها عشرون برميلاً من البارود فجعل ينقلها إلى حيث كان .

وكان كلما حمل برميلاً انصب عليه رصاص رجال دامفيل الذين لم يجسروا على الدخول الى الردهة حذراً من نكبة جديدة .

وكثر عليه إطلاق الرصاص حتى اضطر إلى التدرع بجثة من جثث القتلى فكان يحمل تلك الجثة ويسير بها إلى المركبة فيحمل برميلاً ويعود به إلى حيث كان في أعلى السلم .

وقد ثقب برميلاً بخنجره وأخرج مقداراً من بارودة فرشـــه على جميع البراميل وعلى الأرض .

وكان قد نقل ستة عشر برميلاً ولم يبق في المركبة غير أربعة .

فلما رجع إلى المركبة لينقلها ، وجد دامفيـــل قد دخل إلى الردهـــة بجميع رجاله .

فرجع مسرعاً إلى البراميل وهو يقول : إن مـــا نقلته منها كاف لإيقاف هؤلاء الهاجمين عند حدهم ووضع سد بينهم وبين ولدي .

ثم وقف وراء البراميل وانتظر إلى ان دخل جميع رجال دامفيل إلى الردهة ، فأطلق النار على البارود ووثب إلى رواق قرب القاعة يشرف أيضاً على الحديقة...

فما مضت بضع ثوان حتى حدث ذلك الانفجار الهائل ورأى الشفاليه

باردالیان ذلك العمود الناري يمتد إلى السماء .

وكان دامفيل قد رأى بارداليان الأكبر ، مسرعاً إلى الخروج من الردهة .

فرأى من خارج ذلك القصر ما حدث من الانفجار ورأى جيشه قد تبدد بجملته فصاح صيحة يأس وأغمي عليه من القهر .

* * *

لم يكن بين تلك القاعة التي حدث فيها الانفجار وبين الحديقة ، غير رواق . وهو الرواق الذي دخل فيه بارداليان ، بعد ان أطلق النار على البارود .

وقد رأى القراء كيف أن قوة هذا الانفجار قد دفعت الشفاليبه بارداليان عدة أمتار إلى الوراء ، وكيف أنه كاد يجن خوفاً على أبيه ويناديه فلا يجيب .

ثم لما سكن ثائر الانفجار وشعر ان الأرض قد ثبتت تحت قدميه بعد ذلك الاهتزاز رجع الى مناداة أبيه .

فسمع صوتاً ضعيفاً يقول : أنا هنا .

فعلم أن الصوت صادر من الرواق وأسرع اليه كالمجانين وهو يقول: لاتخف يا أبي فقد أتيت لنجدتك .

ودخل الشفاليبه إلى ذلك الرواق المتهدم ، فرأى أكداس التراب والحجارة ورأى أباه راكعاً بينها على الأرض وهو يسند بكتفيه قطعة عظيمة من تلك الأنقاض وقد أعياه حملها حتى كاد يزرح تحتها .

فأسرع الشفاليبه وانتزعه بعنف وابتعد به بسرعة فسقطت تلك الأنقاض وهما بعيدان عنها .

فتنفس الاثنان الصعداء وقال بارداليان الأكبر :

– ألم أقل لك أن تهرب دوني ؟ ولكنك تعودت أن لا تصغي إلي .

فلم يجبه الشفاليه على كلامه وفحصه ثم قال :

– أرى أنك لم تصب إلا برجلك ، أليس كذلك يا أبي ؟

– هو ذاك يا بني ، ولكني مصاب برضوض كثيرة ، فدعني واذهب بشأنك .

وقد أخفى بارداليان الأكبر الحقيقة عن ولده ، فإن صدره وظهره تكسر العظم فيهما .

فلما قال كلامه الأخير ، لم يستطع إتمام الحديث ، وسقط مغمياً عليه .

فرعب الشفاليه رعباً عظيماً ، وحمل أباه وأسرع به ركضاً في الحديقة .

حتى إذا خرج منها ، وضعه في المركبة بين لويزا وأمها ، ثم امتطى جواده وجرد حسامه ودفع المركبة ، فساروا الى أقرب باب من أبواب باريس .

- ٣٨ -

المحطة الاخيرة

كانت الساعة قد بلغت السابعة ، والشمس أخذت تتوارى في حجابها ، فتصبغ تلك السماء المقتمة بدخان البارود بلون الأرجوان .

وكان القتل لا يزال دائراً عاملاً في شوارع باريس في كل مكان منها . لان اولئك القتلة باتوا يجدون لذة في القتل ، وارتياحاً الى سفك الدماء .

فبعد ان قتلوا الهوكينوت ، عمدوا الى قتل اليهود ، ثم الذين كانوا يشتبهون بهم من الكاثوليك ، ثم الذين لم يشاركوهم بهذا القتل الفظيع .

ثم تطرقوا من ذلك الى النهب فنهبوا ثلاثة أخماس المنازل لا فرق عندهم بين مؤمن وكافر في اعتبارهم وهم يقتلون ويصيحون :

ـ لتحيى الكنيسة !

وقد بدأت تلك المذبحة من الساعة الثالثة بعد انتصاف ليلة الأحد وبقيت عدة أيام .

أما بارداليان الأصغر فكان يسير فوق جواده وراء تلك المركبة وهو غير مكترث لهذه الأصوات الهائلة التي كان يسمعها .

فقد كان كل ما يفتكر به الوصول الى أحد أبواب باريس والخروج من

تلك العاصمة التي كان يلقبونها بجهنم .

ولكنه لم يكن يعلم كيف يخرج .

وكان كلما تقدم بتلك المركبة تعترضه عصابة فيعمل فيها السيف حتى صبغ ذلك السيف بالدم الى القبضة .

وكان تارة ينجو منهم بالقتل وتارة بالحيلة والجياد تسير خبباً بالمركبة بحيث لا يستطيع الناس بلوغها .

وما زال على ذلك الى ان وصل الى أحد أبواب باريس وقد تبعه نحو خمسين جريحاً من أولئك الثائرين .

ولكنه وجد الباب مقفلاً وخرج اليه ضابط وعشرون جندياً .

فقال باردليان مخاطباً الضابط :

– إفتح الباب !

فأجاب : ذلك مستحيل لان الخروج ممنوع .

– إفتح الباب أو ...

عند ذلك وثبت لويزا من المركبة وأسرعت الى الضابط فأعطته ورقة ، ورجعت مسرعة الى المركبة .

فقرأ الضابط تلك الورقة ونظر الى باردليان نظرة انذهال ثم أمر البواب بفتح الباب وأمر الجند بإرجاع الناس المهاجمين .

لكن الناس لم يرتدوا الى ان أظهر لهم الضابط الورقة وقال لهم : إنهم يخرجون بأمر الملك وهم رسله الى بعض الجهات .

فصاح باردليان الأكبر من داخل المركبة قائلا :

– رسول الملك !

وكرر ابنه كلمته قائلا : رسول الملك !

فتراجع الناس عند ذلك ، وخرجت المركبة آمنة . فأقفل الباب بعد خروجها .

لكن هذا الباب لم يكد يقفل في أثر المركبة حتى أقبلت من باريس كوكبة من الفرسان مؤلفة من عشرة رجال .

وكانت هذه الكوكبة بقيادة دامفيل ومورفر .

فصاح دامفيل بالضابط قائلا : إفتح الباب فإن هؤلاء الذين خرجوا منه من الهوكينوت .

فأجاب الضابط : بل هم رسل جلالة الملك وهذا أمر جلالته .

فصاح به دامفيل وقد اتقدت عيناه قائلا :

— قلت لك إفتح الباب أو تدور الدائرة عليك .

فأمر الضابط جنده أن يصوبوا بنادقهم على دامفيل .

فتراجع هنري منذعراً .

وأسرع مورفر الى الضابط فأراه ورقة مكتوبة وقال :

— إفتح فأنا أيضاً رسول الملكة .

فقرأ الضابط الأمر وقال : هو ذاك ، لكنك لا تخرج إلا وحدك فليرجع الآخرون .

فخرج مورفر وحده ووقف هنري وهو يتوعد السماء بقبضتيه .

* * *

لم يكن مورفر كاذباً فيما ادعاه فإنه كان حقيقة رسول الملكة .

وذلك أنه بعد أن بحث في كل مكان ، عن باردليان وابنه ، دون أن يجدهما ، ذهب الى اللوفر وطلب مقابلة الملكة ، فأجيب طلبه في الحال .

وقد لقي تلك المحتالة راكعة أمام صورة المسيح تصلي .

فلما رأت مورفر قالت له : أترى كيف إني أصلي من أجل نفوس اولئك

الذين قتلوا اليوم .

– أرجو مولاتي أن تصلي أيضاً عن نفس هذا القتيل .

ثم وضع على مائدتها رأس الأميرال كوليني .

فلم ترتعش كاترين ، ولم يظهر على وجهها شيء من علائم الاضطراب ، بل نظرت الى مورفر وقالت له : كيف أحضرت أنت رأس الأميرال ، فأين قاتله ؟

– لقد قتل .

– إذاً يجب عليك يا مورفر أن تذهب أنت بهذا الرأس الى رومة وتحدث هناك بما فعلناه هنا .

– إني أسافر حين تشائين .

– أريد ان تسافر الآن وهذا جواز السفر وهذه نفقاتك . أسرع ولاتقف لحظة في الطريق . خذ أيضاً هذا الخنجر .

– لا حاجة لي بالأسلحة لأني مدجج بها .

– ولكن هذا الخنجر لا رحمة في نصله فخذه .

فأخذ مورفر ذلك الخنجر وهو يعلم انه مصنوع في معمل رينيه ، أي انه مسموم وانصرف .

ثم امتطى جواده وربط رأس الأميرال في سرجه وسار وهو يحدث نفسه بنيل الثروة من رومة ثم يرجع الى باريس ليقتل بارداليان بالخنجر المسموم الذي أعطته إياه الملكة .

وقد اجتاز جسر السين وفيما هو ذاهب الى أحد أبواب باريس رأى قوماً يهربون فعرفهم وعرف أنهم من رجال دامفيل .

فخطر في باله للفور دامفيل ومونمورانسي وبارداليـــان وأسرع إلى قصر مونمورانسي وهو يتميز من الغيظ فشاهد الانفجار .

وبعد أن أمنوا عواقب الانفجار ، دخل مع دامفيـــل إلى ذلك القصر

المتهدم ، وجعلا يبحثان عن بارداليان والمارشال فرنسوا وحنة ولويزا ، فلم يجدا أحداً .

ثم خرجا إلى الحديقة ورأيا آثار المركبة وان باب الحديقة مفتوح ، فأيقنا انهم هربوا منه وأنهم يحاولون الخروج من باريس .

فرجع مورفر وهنري وجمعا بن وجدوهم من الفرسان ، وساروا إلى قرب أبواب باريس .

ولكنهم وصلوا بعد فوات الأوان ، أي بعد ان خرج بارداليان برفاقه كما تقدم .

وقد خرج مورفر من نفس الباب الذي خرج منه بارداليان .

وفي الوقت نفسه انسل معه كلب ، لم يتعرض الحراس لمنعه ، وكان هذا الكلب بيبو .

فلما صار مورفر خارج البـــاب ، وقف هنيهة مفكراً ، وهو يقول في نفسه :

— ترى أي طريق سلكوا في فرارهم ، إن الطرق متعددة وكيف السبيل إلى لحاقهم فإني ألحقهم ولو ساروا إلى جهنم .

وفيما هو يفكر ، رأى الكلب يشم التراب ، كأنه يبحث عن أثر مولاه .

فعرف أن هذا الكلب كلب بارداليان .

ثم رأى بيبو قد اندفع راكضاً ومرق مروق السهم .

فلكز مورفر بطن جواده واندفع في أثر بيبو

وهذه أول إساءة بدرت من هذا الكلب الأمين .

* * *

أما بارداليان فإنه تقدم المركبة وهو على جواده وسارت المركبة في أثره يقودها المارشال فرنسوا .

فاجتازت سهلاً متسعاً ثم صعدت إلى قمة لم يكن بد من اجتيازها فأوقفها المارشال هناك للاستراحة وترجل بارداليان عن جواده كي يتفقد أباه وأخرجه من المركبة فوضعه فوق العشب ، وجعل يفحصه وهو يعتقد أنه لم يصب إلا بجرح فخذه .

وكان مورفر قد أدرك المركبة مسترشداً بالكلب ورآها وقفت على قيد مائة خطوة منه ورأى بارداليان ترجل عن حصانه وأخرج أباه من المركبة ، وجلس القرفصاء على الأرض يتفقده فقال في نفسه :

– لقد دنت ساعة الانتقام فسأطعنه من الوراء طعنة تكون القاضية .

ثم ربط حصانه بشجرة ، وأسرع ينسل انسلال اللصوص ، وخنجره بيده

إلى أن بلغ بارداليان ، وبارداليان لا يراه ، فرفع يده كي يطعنه الطعنة القاضية .

لكنه قبل أن يبلغ خنجره إلى ظهر ذلك البطل ، فتح باب المركبة ، ووثبت منه لويزا وثوب المجانين ، وحالت بين مورفر وبارداليان . فطاشت يد مورفر ، وأصاب خنجره صدر لويزا بدلاً من أن يصيب ظهر بارداليان .

غير اننا نسرع لنقول ان يد مورفر اضطربت وان يد لويزا دفعتها بحيث لم يصبها الخنجر غير إصابة طفيفة .

فوثب بارداليان ورأى الدم يسيل من صدر خطيبته وهي تبتسم فصاح بمورفر صيحة اهتزت لها الجبال وانطلق في أثره .

لكن مورفر كان قد أمعن بالفرار وهو يحسب انه قتل لويزا فأدرك فرسه قبل ان يصل اليه بارداليان فوثب إلى ظهره وأطلق له العنان وهو يضحك

ضحك الساخر ويخاطبه فيقول :

ــ لقد قتلتك بقتل من تحب فإذا حييت بعدها تجدني في باريس .

ثم سار بفرسه خبباً إلى رومة .

أما باردليان ، فما تمنى إلا أن تكون له أجنحة عقاب ، لينقض على هذا الخائن .

لكنه رأى ان لا حيلة له بلحاقه ، فرجع مسرعاً إلى خطيبته وابيه وهو واجف القلب فرأى المارشال يبتسم وابنته واقفة بالقرب منه وهو يقول : لا تخف يا بني إنها لم تصب إلا بخدش بسيط .

فترك الشفاليه لويزا مع أبيها وأقبل يفحص أباه فرأى مـــا انقبضت له نفسه وأضاع رشده ومزق قلبه .

فإنه رأى أباه بحالة النزع ، لان الموت يثب وثوب النمر ، فبينما يحسبه المرء بعيداً خفياً إذا به قد وثب ونشبت براثنه بالفريسة .

ولم يكن باردليان عارفاً بشيء مما أصاب أباه إذ كان يحسب انه أصيب بجرح في فخذه

والحقيقة أن أضلاعه قد تكسرت بذلك الانفجار ، فإنـــه الغم البناية وهو موقن انه لا يجد بعد ذلك غير الموت ، ولكنه كان موقناً أيضاً أن تهدم البناية سيكون حائلا بين ولده وبين أعدائه فيموت فداء عنه .

وقد صبر على ما أصابه صبر الكرام ولم يظهر عليه شيء من علائم الموت حين كان ولده في خطر .

فلما خرجوا من باريس وزالت تلك الأخطار اطمأنت نفسه ولم يعد يستطيع مغالبة الموت فلم يبق فيه من علائم الحياة غير تلك النظرات التي كان ينظر بها إلى ولده ولويزا بحنو لا يوصف .

وعرف باردليان حقيقة حالة أبيه فركع أمامه وجعل يبكي بكاء الأطفال ، فقال له أبوه

على م البكاء يا بني وقد بلغت من العمر عتياً ، أم تحسبني من الخالدين ؟ ..
انك بلغت بحسامك واقدامك أقصى ما رجوته لك وأنا أراك صاعداً إلى قمة مجدك فكيف تبكي لفقدي وقد بلغت بك كل ما اتمناه ..

كن ثابت الجنان يا بني واوقف نفسك لهذا الملاك الواقف بجانبك ، اني اباركـكما في الحياة وسأباركـكما نفسي بعد الموت.

ثم التفت إلى المارشال وقال :

وأنت يا سيدي المارشال ، ألا تزال عازماً على تزويج ولدينا ؟ قل يا سيدي ودعني أمضي مستريح البال .

فاغرورقت عينا المارشال بالدموع وقال :

ان ولدك ولدي ، وأقسم لك أن لا يحول حائل دون هذا الزواج الذي أتمناه .

— ولكني أذكر يا سيدي انك قلت لي يوماً بأنك ستزوج ابنتك من رجل يدعى الكونت مارجنسي

فأشار المارشال إلى الشفاليه وأجابه قائلاً هذا هو الكونت دي مارجنسي الذي كنت أعنيه ..

أن هذه الكونتية لي وقد وهبتها لولدك وجعلتها مهر ابنتي .

فابتسم برداليان الأكبر وقال لولده ، هات يدك يا بني .

ثم أخذ يده فشد عليها وقال له . اني أحب ان ادفن هنا قرب هذا النبع وتحت هذه الشجرة ، فقد انتقلت إلى محطات كثيرة فلم أر أهنأ من هذه المحطة .

ثم تنهد تنهداً طويلاً وأطبق عينيه وذهبت روحه الكريمة إلى خالقها ، فمات وهو مبتسم ناعم البال .

* * *

وعند انتصاف الليل كان الشفاليه برداليـــان بين المارشال وخطيبته يعزيانه عن نكبته وهو يبكي بكاء أليماً ويمتنع عن مواصلة الرحيـل إلى أن قال له المارشال : تشجع يا بني وهلم بنا نذهب إلى مونمورانسي ، وأعلم أن خطيبتك لا أمان لها إلا فيها ، وان ذلك الوحش الذي طعنها قد يعود بعدد عظيم .

فركع بارداليان بجانب جثـــة أبيه وجعل يقبل وجهه ويغسل يديه بدموعه .

وكان المارشال قد غادر بارداليان مع ابنته وذهب إلى قرية قريبـة فجاء بجماعة من الفلاحين وأمرهم أن يحفروا ضريحاً فوق قمة عاليـة فوضعوا في هذا الضريح ذلك البطل واهالوا عليه التراب .

فركعت لويزا عند ذلك الضريح وقالت : طب نفساً أيها الشيخ الكريم فسأحب ولدك الى آخر العمر كما أحببته قبلاً وأحبه الآن .

ثم أخذت غصناً فجعلته صليباً وشكته في تراب الضريح . ولا تزال تلك القمة الى الآن معروفة بقمة الصليب .

وعند الصباح كان بارداليان والمارشال وحنة ولويزا قد وصلوا الى حصن مونمورانسي وأمنوا كل طارىء ، ولكن المارشال كان خائفاً على بارداليان من الحزن فانه كاد يفقد الرشاد توجعاً لفقد أبيه .

- ٣٩ -

الخاتمة

إلى هنا انتهت حوادث هذا البطل الكبير فانتهت به حوادث هذه الرواية التاريخية .

ولا بد لنا قبل ختامها أن نذكر للقراء تتمة أخبار أبطالها كي لا تبقى حاجة في نفوسهم .

فقد عرفوا أن مورفر سافر برأس الأميرال إلى رومة فأقام عاماً في تلك العاصمة الباباوية ، وهي في ذلك العهد مرجع السلطة ومهد الكثلكة ، فلقي من إنعام الحبر الأقدس ما أنساه مكارم الملكة كاترين ، وعاد إلى باريس ، وهو مثقل بالهدايا ، لا ينغص عيشه غير الانتقام من باردليان الذي عاد خصيصاً إلى باريس من أجله .

ثم الدوق دي كيز فقد ثقل عليه فشله ، وقرأ ما كان يرد من تهنئات الحبر الأعظم إلى الملكة كاترين ، فشعر انه لا قبل له بتلك الملكة وقد عضدها سيد رومة

فعاد إلى أرضه وودع اللوفر وهو يقول . سنعود اليك أيها القصر العظيم ، وسيكون لنا فيك شأن .

ثم الدوق دامفيل ، فقد كان أشد الناس نكداً وهماً بعد إفلات أخيه من قبضته وهرب حنة منه . وكان يجن غيظاً حين يفتكر ان رجلين وهما باردليان

وابنه قد غلبا جيشاً برمته ، وانه لولاهما لظفر بأمنيته وبلغ ما يريده من قتل أخيه ونيل حنة .

وقد ساورته الهموم حتى اعتل واشرف على الموت ، ولكن قوة بنيتــــه تغلبت على مرضة ، فلما شفي ذهب إلى أرضه ، وأقام فيها معتزلاً لا يشغله غير التفكر في طرق الانتقام .

ثم رينيه الفلكي ، فإنه يئس يأساً شديداً من رد الحياة إلى ولده بعد فرار باردالبان منه ، واستشار الكواكب فلم ترشده إلى دم صالح لادخاله في جسم ولده ، فلم يجد بدأ من دفنه ، ودفنه بعد أسبوعين في تربة الأبرياء

وكانت الملكة قد رهبته لكثرة ما يعلمه من أسرارها ، فكان آخر مـــا صنعته ، انها أغرت به بعض أعوانها ، فأتهموه بالسحر وحاكموه ، وقضي عليه بالموت ، فأنقذته في آخر ساعة ، ولكن خوف الموت قتله ، فما عاش بعد خروجه من السجن غير بضعة أيام .

ثم الدوق دانجو ، فإنه عين ملكاً لبولونيا بعد مذبحة برتلماوس ، ولبث على هذا العرش إلى أن استحكمت العلة بأخيه ، فجاء سراً إلى باريس بدعوة أمه ، وأقام فيها إلى أن عين ملكاً لفرنسا بعد موت أخيه .

ثم الملكة كاترين فقد حسبت انها بلغت إلى قمة أمانيها ، بعد أن ظفرت بما كانت تسعى اليه من تتويج ولدها الدوق دانجو ملكاً على فرنسا، لكن هذا الولد كان عاقاً بها ، جاحداً لفضلها ، كافراً بنعمتها ، فـــأهينت في عهده ، واحتقرت كما كانت تحتقر في عهد زوجها ، فثقل هذا العقوق عليها ، وهي إنما عاشت دهرها بكيد المكائد ودس الفتن تمهيداً لبلوغ ولدها إلى ذلك العرش فاعتلت وماتت من غمها أشنع موت .

ثم ابنها الملك شارل ، فقد عرف القراء انه لم يصدر ذلك الأمر الهائل ، القاضي بقتل الهوكينوت إلا مكرهاً خائفاً من القتل .

فلقد مثلت له أمه الموت أشكالاً كما عرفه القراء في مكانه ، وما زالت به

حتى أكرهته على اصدار الأمر بتلك المذبحة التي وصمت تاريخه بوصمة عـار لا يمحوها كرور الأجيال .

وقد ندم ندماً شديداً ومثلت له تلك الفظائع فحرمته الرقاد ، واعتـل اعتلالاً لم يبق بعده سبيل إلى الشفاء .

وكانت خليلته ماري توشيت تعزيه في كل يوم ، وهو لا يتعزى ، ولا يزيد إلا تعباً وشقاء .

الى أن جاءها يوماً فجلس بجانبها وبينهما ولده فقال لها : لقد جاء دوري بتعزيتك يا ماري ، فأنا الذي أعزيك الآن ، فقد قضي علي بالموت المحتم ، ولا أرى حياتي تمتد الى أكثر من أسبوع ..

لا تبكي أيتها الحبيبة واصغي الي ، فقد هنأت حياتك بحياتي ، فلا أريد أن ينغص عيشك بعد موتي ، بل أريد أن تعيشي سعيدة ، وأن تعلمي هـذا الطفل أن لا يحتقرني كما سيحتقرني جميع الناس .. واني أحب أن القي اليك وصاياي ، بل هي أوامر ملكك ..

أقول ذلك وأنا أرجو أن تعذريني ، فهذه أول مرة كلمتك بهذه اللهجـة وستكون الأخيرة ، فهل تمتثلين لإرادتي ؟

قالت إن أوامرك مقدسة ، ولكن ما يدعوك الى الاهتمام بالوصايا الآن ؟

- أتريدين أن تقسمي لي يميناً أن تعملي بعد موتي بما أوصيك به الآن ؟

فبكت ماري وقالت : اقسم .

- اذاً فاعلمي انك وحيدة بعد موتي دون صديق يحميك من جور اعدائي ولا آمن عليك كيد أولئك الأعداء . ثم انهم قد يغضون عنك ، ولكنهم لا يرحمون ولدك لأن دمه ملكي ، ويخشون أن ين[...] الذهول ونظرت الى فيقتلونه .
فقالت : ماذا أرى ؟

فذعرت ماري ذعراً شديداً [...]انت يا لويزا ؟.

[...] رأسك !. رباه ماذا أرى ؟ العلي في حلم ؟.

تحميه وقالت : أيقتلونه ؟

– نعم يا ماري ، وخير وسيلة لانقاذه أن يكون بقربه وقربك رجل وفي باسل يحميك ويحميه بحق لا يستطيع ان يعترضك أحد فيه ، وهـذا الرجل يكون زوجك يا ماري .

فأجفلت ماري وقالت : شارل ماذا تقول ، أأنا أتزوج بعد الملك .

– هذه ارادتي ، وقد قلت انها مقدسة واقسمت على الامتثال .

– اذاً لا بد لي من الخضوع .

فأشار الملك عند ذلك اشارة الى المرضع ففتحت الباب ودخل منه فرنسوا دي انتراغ .

فقال له الملك : ادن مني أيها الصديق وقل لي اذا كنت لا تزال عازماً على البر باليمين التي حلفتها لي أمس .

قال : لقد أقسمت يا مولاي ، ولست من الذين يقسمون مرتـين في أمر واحـد .

– اذاً ، تعدني أنْ تتزوج المرأة التي ذكرتها وتتبنى ابنها فيكون كأنه من لحمك ودمك .

– لقد فهمت يا مولاي ما تريد ، وهو أن أتولى العناية بولدك ، وأكون في عيون الناس زوجاً السيدة ماري ، فاذا كان ذلك فقد أقسمت ، وسأحميه وأحميها بما وهبني الله من قوة وبأس وامتثل لأمر مليكي .

فأخذ الملك عند ذلك يد ماري فوضعها في يد فرنسوا دي انتراغ وقال ليبارك الله قرانكما .

فقبله وقال : اني أدعوك بالدوق دي انجلوم وأرجو

ثم ابنها الملك شارل ، فقد عرف

القاضي بقتل الموكينوت إلا مكرهاً خائفاً

فقد مثلت له أمه الموت أشكالاً كما عرفه القرا

وبعد يومين مات شارل التاسع .

فلما اجتمع النبلاء في غرفة الميت أشارت الملكة كاترين الى جثة ولدهـا شارل ، والى ولدها الدوق دانجو وقالت :

– أيها الأسياد ، مات الملك ، فليحيى الملك !

وهكذا مات الملك شقياً معذباً ، ورقي الدوق دانجو الى عرش فرنسا باسم هنري الثالث .

* * *

وأما بارداليان فقد كان الحزن انهكه لفقد أبيه .

فلما وصل مع خطيبته وأبويها الى حصن مونمورانسي ، أراد المارشال ان يشغله عن هذه الأحزان ، فحشد رجاله جيشاً كثيفاً قسمه الى قسمين . فولى بارداليان قيادة القسم الاول ، وتولى هو قيـادة القسم الثاني ، وسار كل من الجيشين في جهة من البلاد التابعة لولاية مونمورانسي ، فمنعوا الناس الثائرين فيها عن المذابح وطالت رحلتها ثلاثة أشهر .

ثم عاد الجيشان وقد سادت السكينة في البلاد وخفة لوعة حزن بارداليان فحل مونمورانسي الجيش وجعل يتأهب لزواج ابنته وبارداليان .

وكانت حنة قد انتعشت لتلك المناظر الطبيعية التي الفتهـا منذ الحداثة فخف ذهولها ، ولكنها كانت لا تزال تعتقد ، انها في عهد الصبا ، فتبتسم وتناجي فرنسوا ، واذا رأته لا تعرفه .

حتى اذا دنا يوم الزفاف ، ودخل العروسان الى كنيسة القصر ، وعقـد الكاهن لهما عقد الزواج ، خرجت حنة فجأة من هـذا الذهول ونظرت الى ما حولها كما ينظر المنتبه من رقاد طويل فقالت : ماذا أرى ؟

أهذا أنت يا فرنسوا ؟. أهذه أنت يا لويزا ؟.

وما هذا الاكليل الذي على رأسك !. رباه ماذا أرى ؟ العلي في حلم ؟.

فكادت لويزا تطير سروراً إذ ايقنت أن الصواب قد عاد الى أمها واقبلت تعانقها وتبكي ، وكذلك فرنسوا وباردالبان .

وقد ختم هذا الزفاف بالبكاء ، لكنه بكاء حنو وسرور اذ شفيت حنة من جنونها ، وعاشت مع فرنسوا ، كما عاشت لويزا مع باردالبان ، فلم تشرق الشمس على أهنأ منهم عيشاً وأطهر أخلاقاً .

وهكذا كان ختام حوادث أبطال هذه الرواية ولقي أولئك الاربعة من نعيم العيش ، ما أنساهم مرارة الماضي ، فغفروا لدهرهم كل ما اتاهم من السيئات .

— تمت —







